

مدينة السلام



يارا هيثم الشحف

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

مدينة السلام

اسم الكتاب: ١ عن |

اسم المؤلف: مسق م س ي

تدقيق لغوي: بش | عن | ١

إخراج داخلي: ٨٤٠٨

لوحة الغلاف واللوحات الداخلية: مسق م س ي

إذن طباعة وإيجاز تداول: MC-02-01-7142186

الترقيم الدولي: 978-9948-709-75-6

س ط عن

م س ي ي ع س ٥

أي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه
للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

٤ ————— ٣



للنشر الدولي والتوزيع

darerteqaa@gmail.com

+971509886995

يارا هيثم الشحف

مدينة

السلام

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

الفهرس

٩.....	تمهيد
١٣.....	الجزء الأول
١٥.....	شخصيات الجزء الأول
١٧.....	الفصل الأول
١٩.....	الدستور
٢٣.....	الأعياد
٢٧.....	الحدود
٣١.....	التعليم
٣٥.....	البحر
٤١.....	العزاف
٤٧.....	الفصل الثاني
٤٩.....	الذاكرة
٥٧.....	العائلة
٦١.....	الكذب
٦٧.....	الميناء الشمالي
٧٣.....	الجُبْن
٨١.....	فطيرة التفاح
٨٩.....	لحن مألوف
٩٥.....	الفصل الثالث

٩٧.....	الغرق
١٠٣.....	الذنب
١١١.....	دليل
١١٧.....	شاهد
١٢٣.....	سديم
١٢٧.....	البداية
١٣١.....	كعكة البرتقال
١٣٧.....	الجزء الثاني
١٣٩.....	شخصيات الجزء الثاني
١٤١.....	الفصل الأول
١٤٣.....	خنجر
١٤٩.....	المرشد
١٥٥.....	التردد
١٥٩.....	ال دراويش
١٦٣.....	رسالة
١٦٩.....	الفصل الثاني
١٧١.....	حفرة في السماء
١٧٧.....	الأمل
١٨٣.....	ابن القبطان دياز
١٨٩.....	الفضيحة
١٩٣.....	بطل
١٩٩.....	الفصل الثالث
٢٠١.....	الحقيقة
٢٠٥.....	توت أحمر
٢٠٩.....	العاصفة
٢١٥.....	مافروس
٢٢١.....	الفاجعة

٢٢٧.....	ظلام دامس.....
٢٣٣.....	الندم.....
٢٣٧.....	الجزء الثالث.....
٢٣٩.....	شخصيات الجزء الثالث.....
٢٤١.....	الفصل الأول.....
٢٤٣.....	خوف أعمى.....
٢٤٧.....	ضحك صاحب.....
٢٥١.....	درب السلام.....
٢٥٥.....	حرب باردة.....
٢٥٩.....	متجر الذكريات.....
٢٦٣.....	معزوفة الجحيم.....
٢٦٩.....	شمس منتصف الليل.....
٢٧٥.....	دماء البحر.....
٢٨١.....	الفصل الثاني.....
٢٨٣.....	عصيان.....
٢٨٩.....	اللا عودة.....
٢٩٥.....	ليلة مضيئة.....
٣٠١.....	إعلان الحداد.....
٣٠٧.....	مكيدة.....
٣١٣.....	هُدنة.....
٣١٩.....	مساومة.....
٣٢٣.....	الفصل الثالث.....
٣٢٥.....	المحاكمة.....
٣٣١.....	شادن.....
٣٣٧.....	ليلٌ ناطق.....
٣٤١.....	تخدير.....
٣٤٧.....	تهمة.....

٣٥٣.....	الجزء الرابع.....
٣٥٥.....	شخصيات الجزء الرابع.....
٣٥٧.....	الفصل الأول.....
٣٥٩.....	قرصان.....
٣٦٥.....	مصلحة مشتركة.....
٣٧١.....	شكُّ.....
٣٧٥.....	هراء مُنَمَّق.....
٣٨١.....	انقلاب مدبر.....
٣٨٧.....	مقبرة القصر.....
٣٩٣.....	الفصل الثاني.....
٣٩٥.....	تاريخ المدينة.....
٤٠١.....	الفصل الثالث.....
٤٠٣.....	السيادة.....
٤٠٩.....	اجتماع طارئ.....
٤١٥.....	حكاية من الماضي.....
٤٢١.....	قلب الأرض.....
٤٢٧.....	عمال المناجم.....
٤٣٣.....	اقتراح وأمر.....
٤٣٧.....	زيارة غير متوقعة.....
٤٤٣.....	خاتم زواج.....
٤٤٧.....	الجزء الخامس والأخير.....
٤٤٩.....	مدينة السلام.....
٤٥٩.....	الخاتمة.....

تمهيد

في مدينتنا لا وجود للون الأبيض، لون السلام، وكيف للسلام أن يتجسد في نسل البشر الآثمين، لكن لا يخلو الأمر من بعض الأدلة والعلامات المزروعة فينا بيد الإله للتعبير عن السلام، فأعيننا غارقة في لون السلام، وربما فقط في تلك المساحة المحدودة جدًا التي سلّمَ لونها من التدنيس، فحتى أسناننا ليست بيضاء، ومن يريد ادعاء المثالية والمبالغة في إظهار ولائه وطاقته، يبادر ويصبغها بلون السماء الأزرق باعتبارها أوضح رمز للسكينة والهدوء، ومن يخطّ البياض شعره مع تقدم العمر، يسارع ليصبغه بلون الليل الأسود، لذلك ترى أسواقنا في أزمة نقص الحناء السوداء على الدوام.

إلا من أكرمه الإله وسخّر له السلام خادمًا خاضعًا له، **النَّاجِدُ*** صاحب **المقام العالي** الذي يقطن في قصره الناصع البياض ذي الحديقة المليئة بجميع أنواع الزهور البيضاء المستوردة كأزهار الأوركيد، الكاميليا، القرنفل، والزنبق الجميل التي تتمايل مع مسار الرياح؛ ليفوح عطرها في

* **النَّاجِدُ**: أحد ألقاب الأسد.

أرجاء المدينة ذات المنازل الملونة جدرانها بعكس وجدان سكانها.

يخطّ لون السلام في لحيّة النّاجد الطويلة خطوطاً لامعة ومُلفّته، جعلته من يمثل السلام في مدينتنا؛ حيث يذهب الظّلام إليه ليحتكموا من منهم أظلم، فهو القاضي والشافي والمعافي، إنه السد العالي الذي يحمينا من الغرباء، ومن أنفسنا كذلك.

في عامي السادس، عندما كنتُ أعب في ساحة المدينة مع أطفال الحي، تناهى إلينا صوت صرخات مكتومة يقترب منا شيئاً فشيئاً، ليتضح لنا أن هناك امرأة تنزف من كل مكان في جسدها، يسحّلها أبناء النّاجد الأمناء، وأحدهم يحمل طفلة يقدر عمرها بثلاث أو أربع سنوات.

صرخت إحدى السيدات من خلفي عند رؤيتها للطفلة وجفل كل من وقعت عينه عليها، فقد كانت تجسيدا للون الأبيض، كأنها من كوكب آخر، بيضاء الشعر والجلد والأعين والأهداب، بيضاء حدّ العمى.

كانت المرأة الجريحة تنتحب وتُطلق صراخاً كالعواء، والكلام يختلط بدموعها

"أرجوكم هذه ابنتي، ابتليت بها، لكنها ابنتي" قاطع توسلاتها مجيء النّاجد صاحب المقام العالي حيث سكنت الأفواه.

اقترب من الطفلة ناظراً إليها بتمعّن، وبصوتٍ عالٍ جهوري لا يخلو من الحب والعطف قال:

- ليتنا نعي بما ابتلينا، ولماذا ابتلينا، وماذا علينا أن نفعل لنردّ هذا البلاء عنا، إن هذه الطفلة تسكنها روح الظلام والشر، تخدعنا بجعلها تبدو بيضاء ناصعة أمام أعيننا، ولكن في الحقيقة الظلام يطّوح منها،

إنها ابتلاءٌ على هذه المدينة المباركة، لقد خلق الإله العظيم لكل فرد منا روحًا متوازنة بين الأبيض والأسود، بين الخير والشر، جميعنا بشر، ولسنا آلهة أو ملائكة ليتلبسنا هذا اللون الفريد، أما من يلبس منا لون السلام ظاهريًا، فهو حتمًا يُخفي شرًا عظيمًا لا نراه بأعيننا، إنه تجسيد لشيطان يُمكنه أن يفتك بنا إن لم نتصرف، أو قد تحلّ علينا لعنة لا نستطيع التخلص من أثرها لأجيال عدة.

ارتفعت أصوات همهمات العامة، وطمغت على صوت نحيب المرأة الجريحة التي ركعت أمام الناجد عالي المقام تتوسل إليه أن يرحمها هي وابتنتها.

أشار الناجد لأحد أبنائه بطرف عينه، كأننا نشاهد مسرحية مسبقة التحضير بلغة غير مفهومة، ويلمح البصر قُتلت الطفلة، نذفت دمًا بلون الحب تشربته أرض مدينتنا المباركة ممتزجًا

بدماء ودمائها الجريحة التي فُجعت بها.

في مدينتنا لا وجود للون الأبيض، ولا للسلام.

الجزء الأول



شخصيات الجزء الأول

شيرو الطفلة: فتاة تنتمي لعائلة متوسطة الحال، هادئة الطباع وخجولة ومحدودة الصداقات والفضول، ذات شعر أسود طويل مع وجه دائري نوعًا ما، وبشرة بيضاء اللون.

شيرفين الطفل: طفل ينتمي لعائلة ثرية، صاحب وذو شخصية مرحة وفضولية جدًا، يملك شعرًا ناعمًا يصل إلى أذنيه مع ذقن مدببة، وأهداب طويلة تغطي عينيه الناعستين.

شيرو الشابة: ترتاد قسم الآداب في الجامعة، انطوائية ومنعزلة في عالمها الخاص؛ حيث تحولت مشاعرها إلى كلمات، ذات شعر أسود طويل مع ملامح حادة، وتناقض صارخ بين لون بشرتها المشرق وعمة شعرها وعينها، تُفضّل ارتداء الألوان الهادئة.

شيرفين الشاب: يرتاد قسم الطب في الجامعة، اجتماعي يحب الاستكشاف، مرح جدًا، وحتى إن كان بمفرده، أشعث الشعر يصل إلى أذنيه، مع ملامح بريئة بعينين ناعستين بلون العسل، وذقن طويلة مدببة وابتسامة بحجم الكون، يُفضّل ارتداء الألوان المزركشة.

مافروس: شاب شجاع جريء عنيد، ذو بنية قوية وقامة طويلة وشعر مجعد كثيف جدًا، مخلص لأبعد حدود، مرهف الأحاسيس عكس ما يُظهره من قسوة، ودائمًا يعمد إلى كتم أحزانه في قلبه، وعدم مشاركتها مع أحد.

العم ماهان: بائع تحف ونوادر في عقد عمره الخامس، يبدو بشارب
ولحية كثيفين، وعينين يطغى الحنان والطيبة على محياهما، لطيف جداً،
لكنه جبان أغلب الأحيان.

القبطان دياز: أب لثلاث فتيات وفتى، رجل ذو نفوذ واسع ودهاء،
صاحب شخصية قيادية قوية، يُفضّل السفر والاستكشاف؛ ليشبع
فضوله.

الفصل الأول

"ما يحدث في أيام قليلة، وأحياناً في يوم واحد، يستطيع تغيير اتجاه المرء
مدى الحياة".

- خالد الحسيني، كاتب وطبيب أفغاني أمريكي.

الدستور

الدستور في مدينتنا هو التمثيل الخطي لأقوال وأفعال الناجد على مرّ الزمن، لا أحد منا قد وقعت يده من قبل على نسخة ورقية من الدستور، لكن جميعنا يعرف بنوده ويلتزم بها، وتنفّذها على أرض الواقع فئة تُدعى "أبناء الناجد الأمناء"، وهم كتائب خاصة تمثل الجيش وعناصر الأمن والحرس، يرتدون بذل زرقاء اللون بجميع أطيافه؛ حيث يميز اللون منصب الفرد الذي يحتله، وكلما ارتقى في المنصب، تزداد مسؤولياته، ليصبح لون بذلته أعمق.

بمناسبة الحديث عن أبناء الناجد، دعني أوضح لكم أنه ليست هناك أي صلة دم بين الناجد وأبنائه؛ لأنّ ناجدنا العظيم عقيم، وبعد عدة محاولات للإنجاب والزواج من فتيات كثيرات بأعمار مختلفة، اتضح لعرف المدينة أنّ الناجد عالي المقام غير قادر على الإنجاب. للأسف، كل ما يملكه من عظمة وجلالة لن يُورث، لن يرث أحد عمق صوته، ولا شعره الأبيض الناصع الذي يرسي السكينة في نفوسنا لمجرد رؤيته، وبسبب هذا الحدث قرر الناجد تكريم من يرى فيهم الأفضلية؛ ليصبحوا من أحد أبنائه الأمناء، ثم يكونوا ممثلين ومنفذين للدستور لحفظ الأمن والأمان في مدينتنا.

جميع أبناء الناجد يتواجدون بالقرب منه دائماً ليل نهار بعد أن يتم إخضاعهم لعدة اختبارات، ومن ثم قبول قسّمهم الأبدي، القسم الذي يشمل على بعض الوعود التي.. لكن مهلاً، إنه قسّم سريّ للغاية، ولا يجب نشره على العامة، لكن تجاوزاً سوف أتلهو عليكم، من يدري؟! فقد يكون

سبيلاً للخلاص يوماً ما أو للهلاك.

يردد أبناء الناجِد الأَمْناء بعد إثبات ولائهم وإخلاصهم القسم المقدس: "أقسم بدمي أن أكون عين الناجِد اليَسرى، وأن أكون يديه وسيف كلمته، وظلّ روحه على هذه الأرض المباركة".

يعود أصل هذا القسم لسجين رَدّده تحت التعذيب، بعد أن فُقتت عينه اليمنى قبل أن يُقتل بحضور ناجِدنا صاحب المقام العالي الذي أشاد بهذا القسم ونال إعجابه، فأمر بوجوب تطبيقه من قبل المستجدين والجهر به أمامه؛ ليضمن ولاءهم وإذلالهم.

بالعودة إلى الدستور، أقول: إن دستور مدينتنا واضح لا لبس فيه، ليس هناك فيه أي وجود للظلم أو للعنف، فكل مشكلة تُحلّ بكلمة من الناجِد، وفي حال تعديل أو إضافة أي بند في الدستور يتم الإعلان عن ذلك من خلال خطبة رسمية يُلقىها ناجِدنا على مسامع أبناء شعبه في ساحة المدينة، والتي تشهد أيضاً محاكمة المذنبين، ومن تتعاضم خطاياهم بشكل لا يُمكن الصّفح عنه أو إصلاحه، يُرسل إلى درب السلام.

درب السلام طريق طويل، يمتد من شمال مدينتنا إلى عمق الغابة التي تنتهي عند الحدود الشمالية للمدينة، درب مزينّ بالزهور والأشجار المثمرة، يبعث في النفس شعوراً بالراحة والرغبة في قضاء ليلة هادئة فيه، عند مدخله يوجد هناك حاجز أمني تحت حراسة اثنين من أبناء الناجِد الأَمْناء الذين يشرفون على محاكمة المذنبين، ومن يثبت عليه الجرم يتم إرساله في درب الجميل، ويُمنع اللحاق به، إن الغاية من تنفيذ هذا الحكم هي وضع المذنب في خلوة مع نفسه أحرّ الدرب ليتفكّر بما اقترف من جرائم؛ ليتوب ويعود إلى رشده، لكن لا أحد يعود من درب السلام، وعندما سألت جارنا المسن ذات مرة، إذا كان قد شهد على عودة أحد المذنبين من درب السلام بعد توبته، قال لي: من تراه يعود بعد أن يجد السلام أحرّ الدرب؟!!

أما من يقترف ذنباً يمكن إصلاحه وعلاجه، فهو يبقى بيننا، لكن ليس كما كان قبل المحاكمة.

تتكرر أفعال السرقة والاعتداءات في موسم الأعياد، ودائماً ما يظهر أصحاب النفوس الضعيفة في هذه الأيام تحديداً، لتتم محاكمتهم بعد انتهاء هذه الأعياد، فمن تثبت عليه التهمة بالشهود أو باعترافه الشخصي، يَمَثَلُ أمام نَاجِدِنا والعَرَافِ، الذي يسقيه شراباً ناصع البياض شديد التركيز، بينما يضع يده على رأس المحكوم، ويتمم بكلمات غير مفهومة للعامة، عندما ينتهي يطلب منه النهوض، ليعود إلينا كمن فقد جزءاً من روحه ولم يعد له شغف الحياة، فيهيم في شوارع مدينتنا التي شهدت على خطاياهم بلا هدف، وما أكثر هؤلاء الأشخاص في شوارعنا الذين نُطَلِّق عليهم لقب "الدرأويش"!

مهام أبناء النَّاجِدِ الأَمْناء لا تُعد ولا تُحصى، وجميع سكان المدينة يقَدِّرون جهدهم الكبير الذين يبذلونه في سبيل حفظ الأمن العام وحماية المدينة؛ فهم ينقسمون إلى عدة فئات كل منها تتولى أمراً ما؛ حيث تُعد مهمة حراسة المدينة من خلال دوريات مكثفة والتفتيش العام الفئة الأكثر انتشاراً، ومن تثبت جدارته وحسن تصرفه تتم ترقيته لفئة أخرى، ويُكَلَّفُ بأعمال جديدة كالتحقيق مع المجرمين والمتمردين، أو قيادة كتائب الحراسة، أو حراسة قصر النَّاجِدِ العظيم، وأرفع منصب يمكن للفرد أن يصل إليه هو "حارس النَّاجِدِ الشرفي"؛ حيث يلزم النَّاجِدِ صاحب المقام العالي بشكل دائم، داخل وخارج القصر، وفي بعض الأحيان داخل الحجر المغلقة التي تُحاك فيها جميع القرارات المهمة التي تُصَبُّ في مصلحة الشعب بالتأكيد.

وهكذا نسير جنباً بجنب نحن والدرأويش والدستور بخطى ثابتة ومدروسة بلا أي فوضى أو تمرد، وإن وجدت بعض التجاوزات، نسرع لإخبار أحد أبناء النَّاجِدِ الأَمْناء؛ ليتم حلَّ المشكلة من غير إراقة أي دماء،

بإستثناء بعض الأيام المشؤومة التي تشهد مدينتنا فيها سيل الدماء
الحمراء، حتى تجف الدماء في عروقنا.

الأعياد

الأعياد أجمل أيام العام؛ حيث يستمتع جميع سكان المدينة بالإجازات الرسمية في أعيادنا الكثيرة التي نحتفل فيها تمجيلاً لذكرى أو احتفاء بمناسبة معينة، فنحن نحتفل بيوم الأرض عرفاناً لأرضنا المباركة بالحصاد الذي تقدمه لنا كل عام، وكذلك نحتفل دائماً بأول أيام فصل الربيع الذي يجلب لنا الخير والوفرة، لعل أهم الأعياد في مدينتنا هو "يوم السماء"، وهو أحبُّ الأيام إلى قلبي، وأتمنى أن يبقى كذلك، إنه تخليدٌ لذكرى اليوم الذي أُعلن فيه استقلال مدينتنا بشكل رسمي بعد عدة حروب مع المدن المجاورة التي حاولت ضم مدينتنا إلى أراضيها بلا أي حق.

في يوم السماء اعتدنا على تبادل الحلوى والساكر بين بعضنا البعض، بينما يرتدي الجميع ثياباً زرقاء بجميع تدرجات اللون الأزرق، ونخرج إلى ساحة المدينة؛ لنحتفل ونلعب، فتبدو ساحة المدينة من الأعلى في هذا اليوم كأموج البحر الجميلة، كما تُزيّن منازل المدينة الملونة بشرائط زرقاء جميلة.

يعود تاريخ هذا التقليد إلى يوم الاستقلال العظيم عندما كان الناجد الأول بعينه الزرقاوين يرتدي ثوباً أزرق بلون السماء يُلقى أولى كلماته بعد انتهاء الحرب وإعلان الاستقلال، ومنذ ذلك اليوم إلى الآن ترتدي جميع الأجيال في هذه المدينة ثياباً زرقاء في يوم السماء، ولذات السبب تم اختيار لون بزّات أبناء الناجد الأمناء.

ولا يفوتكم أن بعض مبدعينا قاموا بابتكار ألوان صناعية صالحة للأكل؛ حيث تتم إضافتها إلى كعكات وحلويات العيد، فتبدو زرقاء جميلة تتناسب مع الاحتفال القائم.

ما زلتُ أذكر أول مرة رأيتُ بها هذا اللون في الطعام؛ حيث كان ذلك في عامي الثامن، في يوم السماء تحديداً، جاء أحد المزارعين إلى الساحة يحمل بيده قطعة حلوى صغيرة زرقاء اللون أثارت دهشة الجميع وخوف بعضهم، كان سعيداً جداً بإنجازه، لكن أحد السكان هرع إلى أبناء الناجد الأمناء، وأخبرهم بالأمر، تجمّع حشد كبير حول الرجل مع حلواه الغريبة، وقرروا أن يطرحوا هذا الأمر على الناجد قبل البتّ فيه، على الرغم من تأكيدات المزارع المتكررة على سلامة تناول الحلوى الملونة؛ حيث أخرج لسانه أمام الجميع، وكان مصبوغاً باللون الأزرق، وقال:

- أترون؟ منذ الأمس وأنا أتناول هذه الحلوى، ولم يحدث لي شيء ولا أشعر بأي ألم في جسدي، فقط لساني أصبح أزرق اللون.

اقتيد إلى قصر الناجد أمام أنظارنا جميعاً، ودخل إليه برفقة أبناء الناجد الأمناء واختفى هناك مدة من الزمن، تجمّع أغلب سكان المدينة أمام حديقة قصر الناجد، وانقسمت الآراء بين من يرغب في تجربة الحلوى الزرقاء، ومن يرى أنها خطر، أو من غير الضروري تجربتها، نحن الأطفال كنا متحمسين جداً لتجربتها، فقد كانت تبدو مغرية جداً، مع الأخذ في عين الاعتبار قرار الناجد عالي المقام الذي سيصدر في حقّ هذه الحلوى الغريبة؛ حيث لا يُمكن لأحد أن يُخالفه البتّة، وعلى الجميع السمع والطاعة؛ فقد ترعرعنا على ضرورة استشارته بكلّ أمر جديد أو غير مفهوم، ومن رحابة صدره وطيب قلبه، أنه يستمع لجميع قضايانا وشكوانا دون تدمير أو تكبر، جميعنا يُقدّر ويحترم الوقت الذي يمنحنا إياه دوماً لحلّ مشاكلنا بكل حب وروية عندما نلجأ له ونطلب مشورته؛ لذلك لا يتجرأ أحد على مخالفة أوامره مهما كانت.

عندما أطلّ المزارع علينا ثانيةً كان لا يزال مبتسماً بوجهٍ مُشرقٍ،
وعندها خرج إلينا أحد الأبناء المقربين من النّاجد وقال:

- بعد التدقيق والتمحيص من نّاجدنا العظيم رأى أنه لا ضير في تناول هذه الحلوى الزرقاء، إنما حصراً في يوم السماء.

هللت الجماهير بأعلى صوتها فرحاً، ورفع المزارع حلواه الجميلة
عالياً قائلاً بأعلى صوته:

- سوف أعدّ الحلوى الزرقاء اليوم للجميع مجاناً، فمن يريد مساعدتي، فإن أبواب منزلي مفتوحةٌ له؛ لنحتفل ونتلون بلون السماء الجميل.

في ذاك اليوم اجتمع عدد كبير من سكان المدينة أمام منزل المزارع
المبتكر؛ ليتشاركوا بتحضير الحلوى الزرقاء، حيث وُرّعت على الأطفال
والدراويش، وامتلأت شوارع المدينة ببقايا تلك الحلوى الجميلة، ما جعل
اليوم التالي من الاحتفال صعباً على جميع السكان بسبب أعمال التنظيف
التي توجب عليهم القيام بها.

منذ ذلك اليوم قرر المزارع الطيب افتتاح مخبز خاص به وأسماه
"مخبز السماء"، ليحضّر المخبوزات والحلويات بجميع أنواعها كل أيام
السنة من الدقيق الأسمر، و فقط في يوم السماء يصنع الحلويات الزرقاء
ويبيعهها بأعلى الأسعار، وبعد عامين فقط من افتتاح المخبز شيّد قصرًا
كبيرًا لونه أزرق على الحدود الجنوبية للمدينة؛ ليسكن فيه مع عائلته، في
حين أنه حوّل منزله القديم لمستودع يحفظ به كميات اللون الأزرق
المُصنّع خصيصًا من أجل يوم السماء.

الحدود

مدينتنا صغيرة المساحة مقارنةً بالمدن المجاورة لها، فهي تبدو كمملكة قرر الإله تشييدها؛ لتكون نموذجًا تجريبيًا للمدينة الفاضلة، ويعيش على أرضها أسعد شعب في العالم، لكن النتيجة جاءت عكس المتوقع، فهي مدينة تكاد تخلو من الفضيلة، شعبها مُغَيَّب بالكامل عن الحقيقة، ليعيش على فتات سعادة وهمية، رغم جميع الأقاويل التي يتوارثها أجدادنا من أن مدينتنا تبدو كشجرة مثمرة تتوسط صحراء كبيرة وبحرًا ظالمًا، لكن من يدري إن كانت فاكهة هذه الشجرة المثمرة فاسدة أم لا؟!

مدينتنا معتدلة الطقس، تتوسط ثلاث مدن تحيط بها، تحدها من الجنوب مدينةٌ عَلَّمها أحمر بلون التوت تُعرف هذه المدينة بأرض المعجزات، فمن يذهب إليها مريضًا أو سقيمًا يعود بعافيته الكاملة، ومن الشرق تقع مدينة مشهورة بجمال سكانها وطول قاماتهم، علمها أخضر بلون العشب، تفصل بيننا وبينها سلسلة جبال عظيمة، من الشمال نواجه مدينة ذات علم أسود كظلام الليل، تحدُّ بيننا وبينهم الغابة الشاسعة؛ حيث يبدأ وينتهي درب السلام فيها، ومن المتعارف عليه أننا لا نتعامل مع هذه المدينة لخبث سكانها وقسوتهم وغدرهم الدائم بنا، ومن جهة الغرب، هناك البحر المتلائي الجميل الشاهد على تاريخنا وذنوبنا، وبالطبع علم مدينتنا أبيض اللون، إنه رمز السلام الذي نفتخر به.

هناك عدة أقاويل وحكايات أشبه ما تكون أساطير، أو هي بالفعل أساطير، تروي سبب اختيار اللون الأبيض، الذي يرمز إلى السلام، ليكون

لون علمنا المقدس، إحدى القصص التي يسردها لنا أجدادنا في احتفالات يوم السماء ويميل الأغلبية إلى تصديقها، مفادها أنه قبل استقلال المدينة في أواخر أيام الحرب مع المدينة الجنوبية ذات العلم الأحمر، اعتقلت قواتنا كتيبة من الجيش الأحمر وسلمتهم إلى عدالة الناجد الأول؛ حيث تم احتجازهم في قلعة تقع في الغابة الشمالية حينذاك، ولا أحد يعرف حتى اليوم أين تقع أو إلى ماذا قد آلت إليه، وبعد انتهاء الحرب، في يوم إعلان الاستقلال اقتيدوا جميعاً إلى ساحة المدينة لتقرير مصيرهم، بعد اعتقال استمرار لقرابة الشهرين وخرجوا بحالة يرثى لها، أجسادهم مليئة بالندب والجروح، أبدانهم هزيلة متسخة، وقف الناجد الأول وسط الساحة بثوبه الأزرق الجميل، وعند قدميه ركع أفراد الكتيبة بلباسهم الممزق الرث.

قال عالي المقام:

- من منكم مؤهل للتحدث معي نيابةً عن الجميع؟
رفع أحد الرجال يده، ولم يرفع رأسه قبل أن يأذن له الناجد بذلك،
كان أكبر الرجال سناً بين المجموعة.

- إذًا أيُّها المقاتل، لقد انتهت الحرب وانتصرنا عليكم، وحافظنا على أراضينا وحدودنا من خطر استعمارها من قبل حكومتكم الموقرة، فكيف لك أن تثبت لي ولشعبي أنه في حال قررتُ العفو عنكم، أنكم لن تحاولوا اقتصاص الثأر من أبناء شعبي وأهلي؟ فكما تعلمون لقد تكبدنا وتكبدتم الكثير من الضحايا خلال سنوات الحرب، ومن المحتمل أن يكون أحد من ذويكم قد لقي حتفه، لكن كنا في حالة حرب، وهذا الأمر طبيعي.

نظر إليه الرجل من الأسفل، وبشق الأنفس قال:

- أقسم أننا لا نسعى للثأر، فقط نريد العودة لوطننا.

قال الناجد:

- لا، في حال العفو عنكم، سوف تبقون هنا.

ظهرت علامات الاستغراب على وجوه سكان المدينة، وتساءلوا عن سبب هذا القرار الغريب، إلى ماذا يسعى عالي المقام؟ لماذا لم يعاقبهم؟ لمّ تسامح معهم؟ لكنه بالتأكيد يسعى إلى الخير، ولا شيء سوى الخير!

تلعثم الضابط، وقال بصوت مبحوح:

- أرجوك يا سيدي، نريد العودة إلى وطننا وأهلنا، فإننا لا ننتمي إلى هذه الأرض.

عاد نأجدنا العزيز خطوة إلى الخلف، وجلس على جذع شجرة وراح يُفكر بامعان، وبعد برهة قال:

- نعم، السلام هو الحل.

ظهرت ابتسامة خجولة على وجه الرجل الجريح، لكنها لم تدم طويلاً؛ لأن أحد جنودنا الذي فقد عائلته خلال الحرب انقض عليه بخنجره وقتله، سألت منه دماء بيضاء كالثلج، حينها جفل الجميع ودبّ الرعب في قلوبهم، كيف للدماء أن تكون بيضاء اللون؟!

اقترب النأجد من الضحية، وصرح أن هؤلاء الناس هم وجه الشيطان على الأرض وليسوا بشراً، وأمر بقتل ما تبقى من أفراد الكتيبة، تشتربت أرضنا الدماء البيضاء كلها، وغطى اللون الأبيض ساحة المدينة لثلاثة أيام كاملة كما يحكى، ومنذ ذلك اليوم أصبح لون السلام هو لون علمنا، وأصبح لوناً مقدساً ومحرمًا في آن واحد، ولا يتواجد إلا في بيت النأجد صاحب المقام العالي، إن شعبنا منساق بعاطفة عمياء مع حاكمه المعصوم عن الخطأ والزلل، فهو بعين هذا الشعب الحاكم المؤلّه، لا يوجد قبله، ولن يأتي بعده مثله.

في ذاك اليوم شُيد مبنى واسع متوازي الأضلاع بلا سقف في ساحة المدينة في أقرب موضع لقصر النأجد الأبيض الجاثم على أرضنا المباركة، فيه مصطبة مرتفعة قليلاً لغرض إلقاء الخطابات الرسمية، يُطلق عليها

اسم "محكمة الشعب"، تتم فيها محاكمة جميع المذنبين بشكل علني أمام سكان المدينة، حيث تحرص حكومتنا على مشاركة عامة الشعب في صنع القرارات المصيرية؛ إيماناً منها بأهمية مشاركة الشعب في تقرير مصيره بنفسه.

التعليم

لا شك أن التعليم هو الركيزة الأساسية لأي مجتمع للنهوض بالفكر العام ورفع مستوى الآفاق الإبداعية والعلمية لدى الأفراد، وحال مدينتنا كحال سائر المدن الأخرى، لديها نظام تعليم معتمد خاص بها، يُدرّس لكل الأجيال في ذات المدرسة التي يرتادها جميع سكان المدينة؛ حيث تقع وسط أحياء المدينة؛ ليسهل على السكان الوصول إليها، كما أنها تضم جميع المراحل العمرية التي تتخرج منها تبعاً لتدخل في الجامعة التي تجاور المدرسة أيضاً؛ حيث إن عدد سكان مدينتنا ليس بالكثير، والقليل منهم فقط يهتم بإقحام أبنائه في منظومة التعليم، ويؤمن بفعاليتها وأهميته، على حين أن أغلب العائلات تتوارث أعمالها من تجارة وحرف يدوية بشكل سلس بسيط، وهذا الأمر لا يتطلب من الفرد أن يكون متعلماً، إنما يتوجب عليه إتقان الكتابة والقراءة وبعض أساسيات الحساب إن أمكن.

أنا وأخي كنا من القلة القليلة التي ترتاد المدرسة، فقد أصرّ أبي على تعليمنا، رغم أنه قد كان أمياً، ولا ينتمي للطبقة المثقفة الشغوفة بالعلم، لكنه يعي أهميته وتأثيره على حياة الشخص.

المنهج الدراسي محدد من قبل الجهات التابعة للحكومة العليا، الأمر الذي يُشعر أولياء أمور الطلبة بالأمان، فمن الجميل أن يكون الوالدان على دراية تامة بما يتم تلقينه لأبنائهم بعيداً عن الخرافات والعلوم الزائفة التي لا فائدة تُرجى منها.

مادة الأدب واللغة من أهم الأساسيات التي نتلقاها في المدرسة، فمن الضروري جدًا أن يكون المرء مُجيدًا لغته عارفًا مداخلها مدرّكًا غناها، مع الإشارة إلى أن هناك لغة واحدة مشتركة بين المدن الأربعة المتجاورة، قد أتفق على اعتماد تدريسها في منظومة التعليم لكل مدينة على حدة، مع حق الاحتفاظ باللغات الأصلية المنتشرة في المدن التي يتقنها كبار السن، وبعض السكان من الطبقة الفقيرة جدًا، أو من يحلو له الاطلاع عليها.

تظهر أهمية اللغة وأثرها القوي، عندما يُلقى نأجِدنا خطاباته المنمقة، أو عندما يمدحه أحد الشعراء بقصائد وطنية تمجيدية، فتنسابق جموع الشعراء والأدباء لإظهار فَنهم وحرفيتهم في تطويع الكلمات والمعاني؛ ليعبروا عن الحب والولاء والاحترام للنأجِد صاحب المقام العالي ولأرض مدينتنا المباركة، فهذه هي وظيفة الأدب الأسمى.

ما زلتُ أذكر أول يوم لي في المدرسة، عندما طرح علينا المعلم سؤالاً؛ ليعرف من يمكنه الإجابة عليه:

- من منكم يعرف معنى لقب حاكمنا العطوف النَّأجِد؟

قال أحد الأولاد:

- إنه المنجد يا معلم، منجدنا.

ابتسم المعلم وقال:

- بالتأكيد هو منجدنا، لكن النَّأجِد تعني الأسد، أحد ألقاب ملك الغاب، كما هو نأجِدنا ملك مدينتنا.

حينذاك أبهرني توافق المعنيين في الواقع بين منجدنا ونأجِدنا، فهو بالفعل يمثل كلاهما.

بالتأكيد نتعلم في المدرسة أسس الحساب أيضًا، فلعلّه من المهم جدًا معرفة مقدار الربح والخسارة في كل شيء، وحتى إن لم نُكُن نرغب بامتهان التجارة أو أي عمل يخص الحسابات، إذ يتوجب علينا تقدير

وفهم علم الحساب جيدًا، فعلى الأقل، هذا يمكّن المرء ليس فقط من أن يحسب خساراته على الصعيد المهني فحسب؛ بل على الصعيد الشخصي أيضًا.

بالنسبة إلى التاريخ، فإن تاريخ مدينتنا حافل بالحروب والنزاعات والتضحيات في سبيل الحفاظ على استقلالية وسيادة أرضنا الجميلة، وبكل فخر نحن الطرف المنتصر دائمًا!

إن الأمر مع التاريخ يزداد صعوبة عبر الأجيال، كما يقول أبي، إذ ليس هناك فرد في هذه المدينة لم يواكب إحدى الحروب أو الأزمات التي مرّت بها مدينتنا، لكنني أمضيت سنين عمري القليلة حتى هذه اللحظة بسلام وهدوء تامّين، فلم أكن أعلم ماذا تخبئ لي أو لنا الأيام القادمة.

تكمّن المعضلة الأكبر في نظامنا التعليمي في افتقاره لعلوم الإنسان والطب والتشخيص والعلاج، فهذه الأمور من اختصاص عرّاف المدينة فقط، ومن يرغب بدراسة هذه الأمور، فعليه أن يطلب ذلك من العرّاف الذي يجمع تلاميذه في بقعة معينة قريبة من الجبل؛ ليلقّنهم علومه وخبراته الكبيرة في مجال العلاج والأعشاب وتشخيص الأمراض وتركيب العقاقير؛ ليضمن وجود خليفة يثق به من بعده لتسليمه زمام الأمور، إن العرّاف قادر على معالجة جميع الأمراض، وللمصادقية يمكننا القول: إن بإمكانه علاج أغلب الأمراض مقابل مبالغ مادية رمزية، وعندما تستعصي عليه بعض الحالات، فلا سبيل لنا إلا التضرع للإله وطلب الرحمة منه، أما الأثرياء فيتجهون إلى المدينة الجنوبية لشهرتها في إتقان علوم الطب والعلاج، لكن في بعض الأحيان يكون الصبر على ألم المرض أسهل بكثير من استخراج إذن سفر، فجميع الأمور المتعلقة بالسفر معقدة جدًا، لذلك ليست لدينا حركة سفر محسوسة ولا سياح، ولن نكون أبدًا في موضع السائحين، لكن يبقى هناك الكثير من الاستثناءات لأصحاب النفوذ والمال.

البحر

من نعم الإله علينا أن مدينتنا تُطل على البحر، فهو الدعامة الأساسية لاقتصادنا من خلال التجارة مع العالم الخارجي، والذي أحد المستفيدين من وجود البحر، فهو يعمل في الميناء في تدوين وحفظ معلومات البضائع القادمة من المدن الأخرى، ومعظمها آتٍ من المدينة الجنوبية الشقيقة.

نعم أصبحت شقيقة! فبعد انتهاء الحرب عُقد اجتماع بين حكومات المدن الأربعة المتجاورة، بمقتضاه تم توقيع اتفاقية سلام تضمن حدود كل مدينة، وترسيم الحدود البحرية والمياه الإقليمية بين المدن الثلاث المطلة عليه، لتُشيد كل مدينة لاحقاً ميناءً تابعاً لها، وتم الاتفاق كذلك على تشكيل "اللجنة الأمنية العليا" التي تضم أعضاء من المدن الأربع لحفظ الأمن، والبتّ في القضايا الكبيرة التي تمس استقرار أي مدينة عند الحاجة إلى ذلك.

بالنسبة للمدينة في الشمال ذات العلم الأسود كانوا الأكثر عدائية ووحشية، لذلك فضلت مدينتنا تشييد مينائها بالقرب من الجنوب، بجوار ميناء المدينة الجنوبية ذات العلم الأحمر، وتفصل بينهما مسافة ضئيلة من المياه الإقليمية لكل مدينة، ويُعد الميناء مساحة حرة لا تخضع لقوانين المدينة؛ حيث يمكن للتجار وذويهم من المدن الأخرى المكوث به دون طلب إذن دخول أو تصريح إقامة، باعتبارهم متواجدين لغرض تسيير أعمالهم، لكن لا يحق لهم الإقامة داخل المدينة إلا بعد استخراج تصريح رسمي، لكن من النادر جداً أن يطلب أحد تصريحاً للإقامة في مدينتنا، فهي ليست مكاناً سياحياً جذاباً، أو مكاناً مناسباً للأعمال الحرة.

ازدهرت التجارة البحرية بعد أن أُغُلقت طرق التجارة البرية لصعوبة نقل البضائع عبرها، ومن المتعارف عليه أن مدينتنا تشتهر بزراعة الأرز الأبيض الذي نملك فائضاً كبيراً منه؛ لعدم استهلاكه إلا من قبل الناجد، فعامة الشعب تستهلك الأرز الأسمر؛ لذلك يتم تصديره إلى المدن الأخرى على الدوام، ليصبح تصدير الأرز أحد أهم ركائز اقتصادنا، بالإضافة إلى تصديرنا الدقيق الأبيض والأجبان والألبان، في المقابل نستورد الحناء والبهارات والتمور والأعشاب المُعالِجة، فعرف المدينة كان يتعامل مع تاجر رحال يجلب له الأعشاب المباركة من الجنوب مرتين في العام براءً، لكن بعد تشييد الميناء وازدهار حركة التجارة أصبح الأمر يسيراً، ولا يتطلب وقتاً طويلاً.

كان عمري اثني عشر عاماً عندما اصطحبتني والدي لأول مرة معه إلى الميناء، فلم تكن لديه في ذاك اليوم أعمال كثيرة، لقد كنت الابنة المفضلة لدى أبي، أو على الأقل كان يراودني هذا الإحساس، على الرغم من إصرار أخي الذي يصغرنى بثلاثة أعوام على الذهاب معنا إلى الميناء بدافع الفضول أو الغيرة ربما، لكن أبي رفض طلب أخي وتجاهل إلحاحه قائلاً له:

- على رسلك، سوف تكبر وتعمل في ذات الميناء، فلم العجلة؟!!

حينها لم أكن أعلم أن هذا الميناء سيصبح جزءاً أساسياً في حياتي.

ذهبنا سيراً على الأقدام إلى ساحة المدينة، سرنا في الطرقات صعوداً من منزلي الذي يقع في منطقة منخفضة نوعاً ما، وصولاً إلى ساحة المدينة التي كانت تمثل قمة هضبة فيما مضى من الأيام، وحجزنا مقعدين في العربة المتجهة إلى الميناء، كون جميع العربات الخاصة بنقل الأفراد تجتمع في الساحة يومياً، أما العربات الخاصة بنقل البضائع؛ فهي متواجدة في الميناء أو في منطقة المستودعات، اتجهت بنا العربة نزولاً عبر الطريق المنحدرة لنصل إلى الميناء.

كان الميناء كبيراً جداً، وعلى صفحة الماء ترقد عدة سفن تجارية بأحجام وأشكال مختلفة، كلُّ منها ترفع علم المدينة التابعة لها، كان رصيف الميناء مكتظاً بجميع أنواع السلع المحفوظة في صناديق خشبية كبيرة ريثما تُوزَّع على التجار وتُنقل لمستودعاتهم، لتُعرض لاحقاً في المتاجر التي تنتشر في أرجاء الطرقات المتشعبة من مركز ساحة المدينة باستثناء الطريق المؤدِّي إلى قصر النَّاجِد، الذي بقي خاليًا من المتاجر والباعة المتجولين لغرض عدم إزعاجه وتعكير صفوه.

ألقي والدي التحية على العاملين ببهجة مختلطة بالنسيم العليل الذي لفح وجنتي عندما خطوت داخل الميناء، أبي يعمل في الميناء منذ عشرة أعوام وجميع العاملين هنا يحبونه ويحترمونه، جلب لي أحدهم عصير التفاح البارد، وطلب مني أبي أن أنتظره على المصطبة ريثما ينتهي من عمله، فجلستُ أردد لحن أغنية عن السماء، وحوالي أصوات التجار والعربات وموج البحر الأزرق الجميل.

من إحدى العربات الصغيرة ترجل رجلٌ طويلُ القامة يرتدي بزة بلون أحمر قاتم يميل إلى السواد، وقبعة تبدو من العصور القديمة، يرافقه فتى يبدو في مثل عمري تقريباً، راقبتهما من بعيد غير مبالية، وبعد قليل جاء ذاك الفتى الغريب، وألقى التحية بعد أن جلس بجانبني من دون سابق إنذار، كان شعره ناعماً طويلاً بعض الشيء، ذقنه مدببة، وعيناه ناعستان تغفوان تحت أهداب طويلة جداً.

قال لي بمرح:

- مرحباً، أنا أدعى شيرفين، وأنتِ ما اسمكِ؟

نظرتُ إليه ملياً متسائلة كيف يستطيع أن يتعايش مع هذا الاسم

الغريب:

- أنا شيرو٢.

ضحك عاليًا وقال:

- آه.. الفرق بيننا فقط ثلاثة أحرف.

لا يا غبي، ليست فقط ثلاثة أحرف، إنما إيقاع اسمي الموسيقي جميل جدًّا، ولا يُشبهه لفظ اسمك الغريب بأي شيء، لكنني ابتسمتُ له فقط، لم أبح له بما جال في خاطري؛ كي لا أعطيه فرصةً في الإسهاب في الحديث معي، حينها رأيتُ والد الفتى ببزته الجميلة يلوح لشيرفين، قفز من جواري وقال:

- إلى اللقاء يا شيرو، ومدّ فمه عند لفظ الحرف الأخير من اسمي، لا أعلم إن كان ذلك استهزاء أم مزاحًا ثقيلًا، وركض باتجاه والده.

أقبل أبي نحو شيرفين ووالده، وألقى التحية عليه بحرارة كأنهما صديقان قديمان، ولوّح لي مشيرًا أن آتي إليه، سرت بخطوات متناقلة، وقبل أن أصل قال أبي:

- هذه ابنتي شيرو...—

قال شيرفين:

- إنها شيرو! أعلم.. لقد تعارفنا منذ قليل.

وقهقه ضاحكًا، فغزا احمرار الخجل وجهي، محاولَةً إخفائه خلف ذراع أبي، لكن ذلك الشيرفين كان صاحبًا جدًّا، أهذا يوم عيد، وأنا لا أعلم؟ إنه يتصرف بطريقة غريبة جدًّا، حيث بدأ بإلقاء نكات سخيفة ودعابات تافهة وسط استحسان أبه من والده ووالدي أيضًا!

* شيرو: كلمة من اللغة اليابانية تعني اللون الأبيض وتُلفظ (Shiro)

علمتُ من خلال حديث والدي، بعد أن غادر الفتى غريب الأطوار برفقة والده، أن ذاك الرجل والد شيرفين يعمل قبطان سفينة تجارية، ويأتي دائماً إلى الميناء من أجل الإشراف على نقل البضائع بعناية؛ لأن سفينته تنقل الأعشاب المباركة حسب طلب عرّاف المدينة، تلك الأعشاب تحتاج لطرق خاصة للتخزين؛ كي لا تتلف أو تفسد.

طلبتُ من أبي أن نعود إلى المنزل سيراً على الأقدام رغم بُعد المسافة؛ لأنني أردتُ الاستمتاع بالطقس العليل في ذاك المساء، وصلنا إلى الطريق الذي يؤدّي إلى مخبز السماء؛ حيث اعتاد والدي أن يشتري لي حلوى الكرز والشوكولا، وكعكة البرتقال لأخي، بينما كنت التهم حلواي المفضلة، استمر أبي بالحديث عن والد شيرفين:

- إنه رجلٌ طيب، ابنه شيرفين فتى مرح دائماً، منذ أول مرة التقيته، وهو يلعب ويضحك.

قاطعته وقلت له:

- إنه أبله.

- لا يا حبيبتي، لا يجوز قول هذا، ولا يجوز الحكم على أحدهم من أول لقاء، لا أعلم إن كنتما سوف تلتقيان مرةً أخرى أم لا، لكن في المرات القادمة عليك بالعدّ إلى العشرة قبل قول أي شيء، ولا تتسرعي في حكمك.

كلام أبي حينذاك كان صحيحاً، لم أكن أعلم أن هذا اللقاء الذي لم يتعدّ خمس دقائق سوف يتسبب لي بالأم وآثام وأفراح، سيغيّر مسار حياتي بأكمله لاحقاً، وعلى الرغم من كل ما مررت به من مأس وأحزان، إن عاد بي الزمن إلى ذاك اليوم، سوف أعود وأجلس على مصطبة الميناء لأنتظر لقاء شيرفين.

العزّاف

بعد أسبوعين من لقائي الأول بشيرفين، سمعتُ والدي يقول لأحد أصدقائه أن عليه غدًا أن يشرف على استلام شحنة من الجنوب خاصة بأعشاب المعالجة سوف يتم إيصالها للعزّاف.

على الفور عرفت أن والد شيرفين سوف يكون هناك، ويُحتمل أن يأتي شيرفين برفقته، فبدأتُ أفكر كيف لي أن أطلب من والدي اصطحابي غدًا برفقته إلى الميناء، وبأي حجة سوف أقنعه، لكن لماذا أريد الذهاب؟ أعرف عددًا لا يُحصى من الفتيان والفتيات ولا أبالي بلقائهم إلى هذا الحد! لا بأس، سوف أعدُّ إلى العشرة حسب نصيحة والدي، وصلتُ للألف وما زلتُ أفكر كيف يمكنني أن أذهب غدًا للميناء، لقد أشغل تفكيري ذلك الفتى الغريب دون سبب واضح.

ذهبتُ إلى والدي ووقفتُ أمامه وقلت له:

- بابا، هل يمكنني الذهاب معك غدًا إلى الميناء؟
- حسنًا، لا مشكلة.

رائع... بهذه البساطة وافق! وأردف قائلاً:

- لكن عليّ الذهاب إلى منزل العزّاف غدًا بعد العمل لتسليمه بعض البضائع، وسوف أعود في وقت متأخر.

- نعم، لا بأس بذلك ما زلتُ أودّ الذهاب برفقتك.

قلت هذا بتلعثم مقصود متعمد، ليتناسب مع الدهشة التي رسمتها

على وجهي، وكأنني أسمع خبراً غريباً، ورفعتُ كتفي بلامبالاةٍ مصطنعةٍ
وطرُتُ إلى سريري بكل حماسةٍ.

استيقظت قبل والدي، وانتظرته عند بوابة منزلنا، وصلنا للميناء،
وتناهت إلى مسامعي أصوات التجار والعاملين، بدأت عيناى تبحثان عن
شرفين، وسرعان ما رأيته، لكنى تجنّبته، جلستُ على صندوقٍ خاوٍ
بالقرب من رصيف الميناء، وأخذت أنظر إلى موج البحر بأقصى درجةٍ
هدوءٍ ممكنةٍ.

جاء مشرق الوجه كما عهدته أبي، حاملاً بيده دفترًا صغيرًا، ألقى عليّ
التحية، وقال:

- لقد قلت لكِ إلى اللقاء، انظري، ها قد التقينا مرةً أخرى، كيف
حالكِ يا شيرو؟

قالها بلفظه الغريب.

- أنا بخير، أنت كيف حالك؟

- أنا سعيد جدًا جدًا، لقد كتبتُ خاطرةً أريد أن أهديتها للميناء،
انظري.

فتح دفتره، وانتزع ورقةً وقدمها لي قائلاً:

- اقرئي.

- مهلاً، تهديها للميناء؟ لم أفهم!

- نعم، أهديتها لهذا الميناء الجميل.

ارتسمت ابتسامة عريضة على محياه:

- هيّا اقرئي!

نظرتُ إلى الورقة التي في يدي، دوّن عليها بخط أزرق جميل:

"في مملكتنا شيدوا ميناء

وقالوا ممنوع الاقتراب
لم يجروُ أحد على العصيان
في ظلمة الليل، تسللت روعي لترى ما وراء الجدران
أهو الخلاص؟ أم الجحيم؟ أم عاد القيصر إلى الحياة؟
لتصطدم ببحرٍ من الخمر
يُسكرها ويُغرقها ويأخذها إلى أعالي السموات".
نظرتُ إليه متعجبة:

- جميلٌ ما كتبته حقًا، هل تطمح أن تصبح شاعرًا؟
- لا، أرغب أن أصبح طبيبًا.
- طبيبًا؟!

قالها سيدي العرّاف من خلفنا الذي فاجأنا قدومه، جفل شيرفين،
وانتزع الورقة من يدي بسرعة، رحبتُ بالعرّاف، وارتبكتُ عندما سألني:
- من هذا الفتى يا شيرو؟
- إنه صديقي شيرفين يا سيدي، ابن القبطان الذي ينقل لك الأعشاب
المباركة.

وفورًا ندمتُ على إسهابي في الكلام، وحاولتُ تمالك نفسي، ابتسم
العرّاف، ونظر لشيرفين الذي اعترفْتُ أنه صديقي قبل قليل، وقال له:
- يا فتى، لِمَ لا تصبح عرّافًا؟ إنه أعلم من أي طبيب.
لم يضحك شيرفين كما توقعت، فقط قال:
- شكرًا سيدي، سوف أفكر بالأمر.
انتظره حتى ابتعد عنا، وهمس لي قائلاً:
- من يكون هذا الرجل؟

- إنه السيد سام، عرّاف المدينة، يُمكنه معالجة أي مرض أو علة إن كانت ظاهرة أو غير ظاهرة، وهو مستشار رفيع المقام لناجِد المدينة، إنه الشخص الذي يحمل إليه والدك أعشابه المباركة.

- والدي! وأعشاب مباركة! من قال ذلك؟

- ألا تعلم ماذا تحمل سفينتكم لنا يا شيرفين؟

- لست متأكدًا، على أي حال دعيني أُهدي ما كتبت لهذا الميناء.

أخرج قارورة زجاجية صغيرة من جيبه، ووضع بها الورقة وأغلقها، أسندها على حافة الرصيف.

- سوف تأتي الرياح لتأخذها، إما إلى البحر أو لداخل المدينة، دعينا نرى.

سمعتُ صوت والده ينادي:

- هيا يا شيرفين، علينا العودة.

ذهب ولم يقل لي هذه المرة إلى اللقاء؛ بل قال وداعًا.

فأجبتُه:

- إلى اللقاء يا شيرفين.

ليتني أذكر ما جال في خاطري حينها؛ لآخذ القارورة الزجاجية معي، لم أكن أريد للرياح أن تأخذها مني.

بعد أقل من ساعة كنا متجهين إلى منزلنا، سألتُ أبي ألا يتوجب علينا الذهاب إلى منزل العرّاف؟

- لا، لقد أتى بنفسه إلى الميناء، واستلم الشحنة.

كانت هذه آخر مرة ألتقي بها شيرفين رغم ترددي الدائم إلى الميناء وسؤالي بعض العاملين هناك عنه، لكن لم يُبدِ أحد أي معرفة به، وكأنه كان صديقي الخيالي فقط لا غير، وحين سألتُ أبي عنه بطريقةٍ غير

مباشرة، قال "لا أعلم"، لأعود وألتقي به مرةً أُخرى قبل أن أكْمِلَ عامي الثاني والعشرين.

الفصل الثاني

"أعظم عدو للمعرفة ليس الجهل؛ بل وهم المعرفة".

- ستيفن هوكينج، عالم فيزياء وكاتب بريطاني.

الذاكرة

الجميعُ استثناءً لقاعدةٍ عامة تُحاكي شعور الفرد أن سنين حياته متشابهة متطابقة، وقد يشعر أغلب الأحيان أنه يعيش أيامه دون أي إنجازات تُذكر أو أحداث مهمة تغيّر مساره، لكن بالتأكيد هناك أيام أو حتى لحظات فاصلة بالمعنى الحرفي، نُمرُّ بها أو تمرُّ من خلالنا ولا يُمكن أن نبقى كما كنا قبلها، هذه اللحظات بالذات هي من تُعطي للحياة معنى وأهمية بعيدًا عن رتابة العيش التي نعتاد عليها، لذلك تكون لكل فرد منا حياة مختلفة عن الآخرين.

في الأعوام العشرة التالية لم يتغيّر شيء في دستور المدينة، وبقي الناجِد عالي المقام يتمتع في قصره الأبيض الجميل بجميع الصلاحيات والامتيازات، احتفلنا بيوم السماء عشر مرات، بقيت محكمة الشعب شاهدة على محاكمة وإرسال عدد لا يُحصى من المذنبين إلى درب السلام، ازداد عدد الدراويش في شوارع المدينة بلا مأوى لهم، بينما بدأت مشكلة انخفاض أعداد السكان تلوح بالأفق، وفارق الحياة المزارع المبتكر صاحب مخبز الحلويات الملونة التي أصبحت تباع بجميع الألوان، وليس فقط باللون الأزرق، واقتسم أبنائه القصر ومخبز السماء والثروة والنفوذ، في حين أن الشعب قد اقتسم الحزن عليه.

سوف أكمل عامي الثاني والعشرين بعد يومين، وأُنهي دراسة الأدب بعد عامين، إنها لفارقة جميلة، أن سطورًا قليلة كتبها فتى صغير غريب قد أسرتني وشجعتني على دراسة الأدب، وأصبحتُ أكتب بعض الخواطر والشعر البسيط.

أبي أصبح مشرفاً عامًا في الميناء، وبتُّ أزوره مرةً في الأسبوع؛
لأساعده في تحضير تقرير الجرد الأسبوعي، فقد تقدم به السن، وداهم
الوهن جسده وعقله.

وصلت للميناء، وأنا أرثدي ثوبًا طويلًا بلون السماء وقبعة كبيرة من
القش، فقد كان يومًا مشمسًا، رحب بي العاملون الذين اعتادوا على
رؤيتي دائمًا هنا، وقال لي أحدهم:

- والدك ما زال في جولته، انتظريه سوف يأتي قريبًا.

جلست على المصطبة وأخرجت كتابًا من حقيبتني، وشرعتُ بالقراءة
بينما أنتظر قدوم والدي، كان الكتاب يتحدث عن الصدف العفوية
وتأثيرها على مسار حياتنا، وكأن ما حصل معي في ذلك اليوم مقتبس من
الكتاب الذي كان بين يدي.

داهمني ظلُّ شابٍ طويل القامة، شعره أشعث بلون البندق يصل إلى
أذنيه ويرتدي ثيابًا صيفية مبهرجة، سعدت عيني إلى طرف ذقنه
الطويلة، وأيقنت من يكون من أهدابه الطويلة الناعسة، تجمدتُ في مكاني
تحت أشعة الشمس الحارقة؛ لأعود طفلة بعمر اثني عشر عامًا.

لاحظ وجودي، فرك عينيه مرارًا، وبعد أن تيقن أنني لستُ سرايبًا،
فتح يديه على مصراعيهما وابتسم "شيرو!"، قالها بنفس اللفظ الأحق
القديم!

أمضينا النهار بأكمله نتسكع حول الميناء، ونقصُ الحكايات لطرقات
المدينة الملتوية، نسيْتُ والدي والتقرير وذهبتُ مع شيرفين.

كان لا يزال يملك الحماسة والشغف ذاته، فقصَّ عليّ أنه بدأ بدراسة
الطب، وفي ذلك الوقت علمتُ أنه يصغرني بعامين، وقد سافر لعدة مدن
مع والده القبطان قبل أن يُفارق الحياة العام الفائت، ولم يروِ لي كيف
حدث ذلك، لقد تحاشى أن يتحدث عن ذكرى وفاة والده.

في ذلك اليوم لم أشأ أن أسأله عن أي شيءٍ قد يُعكر صفو ابتسامته،
فقد افتقدتها عشر سنوات.

بقدر فرحتي العارمة بلقائه، فقد أزعجني بطريقةٍ تصرفه وكلامه
معني كما لو أننا التقينا منذ أيام فقط وليست عشر سنوات، لم يسأل عن
حالي أو عن والدي، علم مني بشكلٍ عفوي بعض الأحداث، لكنه لم
يكثر، وبقية يسرد قصصاً عن سفره ومغامراته، ولم يعاود على ذكر
أبيه قط.

عندما غربت الشمس قرأ في وجهي أنني لا أرغب بالمغادرة، لكن قد
تأخر الوقت وعلّي الذهاب، فقال لي:

- سأمكث هنا لأسبوع أو أسبوعين، فقد حصلتُ على تصريح إقامة
من حكومة المدينة.

وأخرج من جيبه كيساً مزخرفاً، والتقط منه حبات أرز ذهبية، وقال:
- انظري، في زيارةٍ لي لإحدى البلدان شاهدت هذا الأرز الذهبي، فهو
يحمل فوائد غذائية أكثر؛ لهذا جلبت بعض حبات هذا الأرز معي؛ لأحاول إقناع
تجار مدينتكم باستيراده، وسأكون أنا الوسيط؛ حيث أكسب بعض الربح.

قلت له:

- لم أكن أظنك مهتماً بأمر التجارة.

ضحك، وقال:

- أنا أحاول تحصيل قوت يومي، بعد وفاة والدي ترك لي مسؤولية
والدتي وأخواتي الثلاث، وبالإضافة إلى ذلك، أنا مستمتع!

عندما وصلنا بالقرب من ساحة المدينة قُلت له:

- يكفي، سوف أكمل طريقي وحدي، أراك غداً.

- شيرو، أتعلمين أن معنى اسمك في إحدى اللغات هو الأبيض؟

التفتُ إليه ونطقتُ بحدّة غير متعمدة:

- هل غبت كل هذه السنين لتبحث عن معنى اسمي؟

تلعثم بقوله:

- شير، أنا...

حاولتُ تدارك الموقف قائلةً:

- لا تُكلم، أنا أعتذر، لا يحق لي أن أسأل.

وغادرت على الفور، فور ابتعادي عنه بخطوات قليلة ندمت على ما قلت، وبدأت أتساءل إن كان ما زال يرغب في مقابلي غدًا أم لا، وبالفعل أنا لا أعلم لماذا أحمل هذا اللوم في قلبي عليه، فهو لم يذنب بشيء، وفي نهاية المطاف هو شخص غريب عني، حتى لا يمكنني أن أعتبره صديقًا مقربًا.

كانت خطواتي متثاقلة نادمة، لا أود أن أبدو بلهاء أمامه وأمامكم، أنا لا أعني أنني وقعتُ بغرام المدعو شيرفين في ذلك اليوم، من الأساس أنا لا أوّمن بهذا النوع من الحب ولكن منذ رأيتَه أول مرة، يراودني إحساس مُلحٌ أنني أود أن أتعرف على هذا الفتى من الداخل واستكشفه عن قرب، أصبح الآن شابًا وليس فتى، على العموم سوف أحاول تمالك نفسي أكثر وأعدُّ إلى العشرة.

وصلتُ للمنزل بعد التاسعة مساءً وكان والداي قلقين جدًّا، لكن أبي استقبلني بحبِّ كعادته.

- حبيبتي أين كنتِ؟ لقد قلقت عليك، العاملون في الميناء قالوا أنك أتيت اليوم صباحًا، لكنني لم أركِ هناك.

- آسفة، لقد صادفتُ أستاذتي في الجامعة، وطلبت مني أن أساعدها في تحضير بعض الدروس، ولم أستطع أن أرفض.

لا أعلم من أين أتت هذه الكذبة إلى لساني، فرغم ركاكتها فقد صدّقني أبي أو تظاهر بذلك، وقال لي بحنو طاغ:

- سوف أكون سعيدًا عندما تكوّنين علاقات صداقة يا حلوتي، لا بأس، فقط قلقت عليك.

يعلم أبي أنني انطوائية جدًا، شيرفين قبل ساعتين قال لي:

- أنتِ مغفلة يا شيرو! كيف لا تملكين أصدقاء؟! لقد حظيتُ بأصدقاءٍ من جميع أنحاء العالم، ليس هناك متعة أكبر من مقابلة أشخاص جدد، والتعرف على ثقافات وأفكار جديدة قد تُغيّر من بناء شخصيتك.

- لكنني لا أتعلم على اختلاف الغير لبناء شخصيتي.

- نعم.. نعم أعلم هذا، لقد عنيت بكلامي أن الثقافات المختلفة تفتح لك طرق تفكير جديدة، مثلما أن تنظري لذات الكأس من عدة زوايا.

جلستُ إلى مكتبي وأمسكتُ بقلمٍ حبرٍ أسود، ودوّنتُ على دفتر ملاحظاتي الصغير:

"ليلٌ ونجوم،

أفتقد قمرًا أعيانسي طول غياب نوره عن عالمي

فلا يطيب لي النوم كلما هويت إلى أعماق نفسي

وأحلامي تتداعى بين جفوني مستنجدة الخلاص

فبات ليلي، أنت وأنت وثم أنت."

وكما كتبتُ حدث، تلك الليلة لم يفارق طيفه خيالي حتى بزوغ نور الشمس.

راودني النوم بعد سهر طويل وتغيبتُ عن محاضراتي، وصلت إلى متجر أغذية خلف ساحة المدينة، وانتظرت شيرفين بأمل مفقود متزعزع،

كنت أرثدي ثوبًا ربيعياً يزهو بأطياف اللون الأحمر الهادئة.

- أه.. شيرو، كيف علمت أنني أفضل اللون الأحمر؟

جاء من خلفي متبخترًا ضاحكًا:

- أهلاً شيرفين، أريد أن أعتذر...

قاطعني قائلاً:

- أتعلمين؟ اسمي أنا أيضًا يعني الأحمر في إحدى اللغات!

حقًا، لا أعلم كيف يمكنني التواصل معه، فهو غريب الأطوار، حسنًا..

اسمك جميل وغريب، عندما استطرد يشرح لي معاني بعض الأسماء، اقتحم شخص ساحة المدينة يرتدي ملابس بيضاء مريية جدًا، وبدأ يصرخ:

- انظروا.. أنا أبذو كالشيطان الكبير.

ولم تمر برهة من الزمن حتى انقضت عليه مجموعة من أبناء الناجد، ألقوا القبض عليه وقيدوه.

لفتت هذه الجلبة انتباه شيرفين الذي حاول إقحام نفسه في المشكلة، لكنني منعتة.

- توقف يا شيرفين! إنهم قوات حفظ الأمن، دعهم يقومون بعملهم، هيا تعال، أريد أن نذهب إلى مكان يخلو من أصوات الناس.

سرنا شرقًا باتجاه الجبال الخضراء، كنت أحاول مجارته، لم أكن أدري إذا كان يتعمد تجاهل وجودي أو أنه يفكر بشيء ما، فهو يمشي بسرعة، يلتفت يمينًا ويسارًا، يبدو غاضبًا بعض الشيء، قال من دون أن ينظر إلي:

- ما الذي حصل للتو؟ أريد شرحًا وافيًا.

- كما أخبرتك سابقًا، هؤلاء الأفراد هم من قوات حفظ الأمن، ومن

واجبهم القبض على المتمردين ومثيري الشغب.

- هل ارتداء الملابس البيضاء يُعدّ تمرّدًا؟!

- لا.. لا، ليس تمرّدًا فقط؛ بل جريمة.

نظر إليّ باستهزاء وراح يدندن لحنًا ما، جعلني أشعر أنه أخذ سعادتِي وحولها للحن يتغنى به، ولا يبالي إن كان لي وجود أم لا، عند وصولنا إلى بداية طريق الجبل، قال لي:

- من الذي كان يعنيه بالشيطان الكبير ذلك الرجل؟

- لا أعلم، لا تشغل تفكيرك به، هذه الأمور تحصل في بعض الأحيان،

لا تبال.

- هل مات ذلك العرّاف؟

- لا، السيد سام لا يزال على قيد الحياة، لكنه طريح الفراش، فهو

يعاني من مرض شديد.

- عرّاف عظيم ومريض، حقًا إنه أعلم من أي طبيب.

بدأ يصفّر ويضحك، حاولت تغيير مجرى الحديث، فلا تروق لي

الإساءة لأحد، فسألته:

- ماذا حدث بتجارة الأرز الذهبي؟

رفع يده وراح يحكّ رقبتَه، وقال:

- أنا أريد مساعدتك، أظن أن والدك لديه بعض المعارف من التجار

في الميناء أو خارجه، أنا غريب عن المدينة، وقد أواجه صعوبة في كسب ثقة

التجار ولا أدري من أين أبدأ، إذا أمكن لك، أودُّ أن تسألني أو تطلبي منه

مساعدتي، سوف أكون ممتنًا لك، وسأعطيكَ مكافأة.

ترددتُ برهة، لكنني وددتُ مساعدته بالفعل، حسنًا سوف أبذل جهدي.

العائلة

جميعُ الروابط والعلاقات الإنسانية وغير الإنسانية، تفنى أمام قوة الروابط العائلية الممتدة جذورها عميقًا في نفس الإنسان، فمهما حاولنا التمرد على هذه الجذور والأصول، نجدها تحيط بأفكارنا ومشاعرنا وتؤثر بنا، فتختلف طريقة إظهار وتجسيد هذا الانتماء اللاواعي من شخص لآخر، لذلك يمكننا اعتبار كل عائلة على حدة نموذجًا مصغرًا عن أرض الوطن بجميع أركانها ومكوناته وركائزه.

جدي، والد الذي هو من شيّد منزلنا الذي نقطن فيه الآن، إنّه مكُون من ثلاث حجرات وصالة، على الرغم أن والدي لا يملك إخوة أو أخوات، لكن جدي كان رسامًا، لهذا خصّص إحدى الحجر لتكون مرسومًا له يعمل فيه على إبداع لوحاته، لكنها الآن أصبحت حجرة أخي الذي يُدعى مافروس، يصغرنى بثلاثة أعوام، شخصيته متعالية عنيدة، يمتلك شعرًا مجعدًا كثيفًا أحسده عليه، وجسدًا قويًا شديد البنية، يطمح أن يصبح أحد المقربين من الناجد صاحب المقام العالي، وأول خطوة لتحقيق حلمه هو أن ينضم إلى جيش أبناء الناجد الأمناء، وعلى الرغم من معارضة والدتي الشديدة، بدأ يستفسر عن كيفية تقديم طلب الانضمام إليهم.

عدتُ من نزهتي الجبلية مع شيرفين، وبقِي صوت ضحكته الرنانة يلانمني حتى وصلت الزقاق الذي يؤدي إلى منزلنا، حينها سمعت صوت الجدل الذي كان يدور بين أمي وأخي.

احتدّ موقف أمي أكثر منذ بداية العام الفائت، عندما أعلن أخي أنه

وصل للناجِدِ عالي المقام بنفسه، وطلب منه بشكل شخصي التوصية به؛ لينضم إلى جيش أبنائه.

مع دموعها كانت تقول:

- يا عزيزي، أنت ابني الوحيد، وأتمنى أن أرى ذريتك، أرجوك لا تضيّع سنين عمرك في خدمة أحدهم وتنفيذ أوامره، وحتى لو كان نأجِدنا عالي المقام.

قبل خمس أعوام طلب أحد وجهاء المدينة أن تتم دراسة خيار إلغاء قانون عدم السماح لأبناء النأجِدِ الأمناء بالزواج؛ لأنه بحسب رأيه سوف نواجه مشكلة عدم توازن بين أعداد الذكور والإناث في مدينتنا مستقبلاً، وسوف ينخفض معدل التكاثر، لكن القانون بقي ساريًا إلى يومنا هذا، مع زيادة عدد الأطفال اللقطاء مجهولي النسب؛ حيث سارع أحد كبار التجار إلى استغلال هذا الوضع، فشيّد ميثمًا في حيّ يزدهر بحركة التجار وأصحاب الأموال.

يهدف هذا القانون الذي يصفه البعض بالظالم، في تحديد وضمان انتماء وولاء الأشخاص وأولوياتهم، فمن كانت لديه عائلة وأطفال، لن يبقى مركّزًا بشكل تام على حماية النأجِدِ وتنفيذ أوامره، فقد ينساق خلف عواطفه أحيانًا ويتوه عن الدرب الصحيح، فيجب أن تبقى سلامة النأجِدِ وغاية إرضائه الأولوية الأولى والأخيرة التي تشغل تفكير أبنائه.

موقف مافروس واضح وغير قابل للنقاش، فهو لا يريد عائلة ولا أبناء ولا زوجة، فقط يريد القوة والسلطة، وفي جميع الأحوال، مافروس لن يَحقق أيًا من أحلامه أو من أحلام أمي.

في ذلك المساء بينما نتناول العشاء، جلست أمي متكدرة المزاج، وأبي عاجزًا عن فعل أي شيء قد يغيّر رأي أخي، وأنا في عالمي الخاص لامبالية، قال أباي:

- مافروس شخص عنيد، علينا فعل أي شيء لإقناعه بالعدول عن رأيه، لكن يا عزيزتي أرجوك، لا تثوري عليه، فسوف يزداد عنادًا وقسوة، سوف أحاول التهاور معه بأسلوب لطيف لمعرفة ما يدور في داخل رأسه.

التفت أبي إليّ وقال:

- كيف حالك الآن يا شيرو؟ قالت لي والدتك أنك لم تذهبي إلى جامعتك اليوم، هل أنت بخير؟

- نعم يا أبي، أنا بخير، لقد جفاني النوم فقط ليلة أمس.

بادرت في الكلام وقُلت:

- أبي هل تتذكر القبطان الذي كان يجلب البضائع إلى العرّاف؟ كان لديه فتى من عمري تقريبًا يأتي إلى الميناء.

- لا، لا أذكر.

قالها بحزم، فأردفت كلامي:

- إنه يدعى شيرفين.

لكن لا استجابة من أبي، تابعت قائلة:

- حسنًا.. لقد رأيته اليوم مصادفة، و..

لم أكمل كلامي، وإذا بوجه أبي يتجمد وتبرز عروق رقبتة.

- هل أنت متأكدة أنه ذات الفتى؟

- نعم، لقد تعرّف عليّ على الفور، وألقى التحية، وطلب مني أن

أسألك...

- لا شيرو! لا نريد التعامل معه، إن كان بالفعل ذات الفتى فليذهب

إلى الجحيم، وإذا لم يكن هو فلا فرق، لا داعي لتكوين صداقات مع أناس غرباء.

أجابني أبي، ونهض عن العشاء وغادر خارج المنزل، وقفت مصدومة من الذي قد حدث للتو، فقبل لحظات كان ينصح أمي بالهدوء والتروي بالتعامل مع مشكلة أخي، ومن مجرد كلامي المقتضب عن شيرفين فقد أعصابه، هذا ما لم أعتد عليه في التعامل مع والدي؛ فهو شخص لطيف هادئ ودود جدًا، لكن ما حدث في صباح اليوم التالي كان أغرب وأكثر حدة.

لم أنم جيدًا تلك الليلة، وسمعتُ صوت باب المنزل يُفتح عندما عاد أبي في وقتٍ متأخر على غير عادته، فهو لا يقوى على السهر، عندما خرجتُ من حجرتي صباحًا كان أبي جالسًا على مائدة الطعام وحيدًا بعينين منهكتين متعبتين، حاولتُ تجاهله بينما أجهّز حقيبتني لأذهب إلى الجامعة، هممتُ بالخروج، وقف أبي وأغلق مدخل الباب بيده بشكل أفقي وقال:

- لا نريد مقابلة ذلك الفتى، أتعدينني؟

- شيرفين صديقي يا أبي!

- شيرو! عليك أن تختاري بحكمة، إما أن تتعهدي لي ألا تقابليه، وبحكم ثقتي الكبيرة بكِ وبتربيتي لكِ سوف أصدّقكِ وأنسى الموضوع من أساسه لتمارسي حياتك بشكلٍ طبيعي، فأنا قد ربّيتكِ على عدم كسر وعودكِ، أو سوف تواجهين غضبي الذي قد يحوّل حياتكِ إلى جحيم إن بقيتِ مصرّةً على التعامل مع هذا الفتى.

عدتُ إلى حجرتي وانخرطت في بكاءٍ محموم.

الكذب

لم أكن أتخيل أن أول يوم في عامي الثاني والعشرين سوف يبدأ بسلسلة من الأكاذيب؛ لأنقذ فرصتي بلقاء شيرفين فيما تبقى له من أيام قليلة في مدينتنا، بعد ساعتين من البكاء المتواصل بسبب ما قاله أبي من كلام جارح وقاسٍ لابنته المدللة، قررتُ أن أستخدم كل ما تعلمته من كلام معسول وعاطفي، وقلتُ لوالدي أنني لن أقابل شيرفين، وقد قابلته فقط خمس دقائق يوم أمس، والذي قال أنه جاء لقضاء عملٍ ما، وسوف يغادر خلال أيام، وأنا لا أقوى على غضب أبي العزيز، وبكثيرٍ من الدلال قلتُ له:

- هل من المعقول أن تغضب من شيرو في يوم ميلادها؟

سرّرتُ على خيوط عواطفه لأصل إلى مبتغاي، فأبى شخص حساس جدًا.

- آه.. آسف يا حبيبتي، أعذريني فإنني قلقٌ عليكِ لا أكثر، أتمنى لك عامًا سعيدًا، وأن تبقي بخير.

- أنا أنفهم ذلك يا أبي، لكن أنت تعرفني جيدًا، لن أقوم بأي فعلٍ خاطئ.

خرجتُ من المنزل وبجعبتي عدة أكاذيب قابلة للاستعمال، فالكذب سلسلة متصلة لا تقطعها إلا الحقيقة، ومن يبدأ بهذا الطريق يصعب عليه التراجع، وفي بعض الأحيان يتمنى المرء أن يستمر بالكذب، وألا يصطدم بالحقيقة المرّة.

ذهبت على عجل لنفسي مكان لقائنا بالأمس ووجدته بانتظارني

ولكنني تجاهلته، رميت ورقةً على الأرض عمدًا بالقرب منه ليراه، وانطلقت بالاتجاه المعاكس، رأيته، وهو يلتقط الورقة ويفتحها، كتبتُ له:
"اتبعني، ولا تلتفت نظر أحدٍ.. أرجوك".

تبعني بالفعل بعفوية دون لفت نظر المارة بأي فعل مريب باستثناء ثيابه المبهرجة أكثر من اللازم التي لفتت انتباه جميع المارة من كبار وصغار وقطط، فهو يرتدي ألوانًا صاخبة غير متجانسة دون أن يبالي كيف يبدو مظهره الخارجي، لكنه يبدو جميلًا جدًا.

كنت ألتفت خلفي خلسة؛ لأتأكد من أن شيرفين يتبعني، وخلال مسيرنا توقف ما يقارب عشرين مرة؛ ليتجاذب أطراف الحديث مع هذا وذاك لتكوين علاقات جديدة مع التجار والباعة المتجولين وبعض الدراويش، في كل مرة يتوقف مع أحدهم اضطر للانتظار بعيدًا، متظاهرًا أنني أبحث عن شيء سقط مني، أحسده على برودة أعصابه، فهو يضحك ويغني، وأنا أنسج جميع الاحتمالات التي ممكن أن تحدث في حال علم أبي أنني كذبت عليه واخترت أن أقابل شيرفين بدلًا من الانصياع لأوامره، وأيضًا لم يغفل عني أن أفكر ماذا سأقول لشيرفين عندما يسألني عن موضوع التجار، أصدقاء أبي.

وصلنا إلى وجهتنا، إنه منتزه مهجور خلف الميناء بسبب أعمال الردم التي جرت هنا لغاية إنشاء قناة بهدف إيصال المياه الصالحة للشرب للمدينة، لكن في الواقع أوصلت المياه فقط إلى قصر الناجد؛ حيث قيل إنه حدث خطأً هندسي في شق مسار القناة، لذلك لم تفلح بإيصال المياه لوسط المدينة كما كان مخططًا له، لكن الشكر للرب، نأجدا عطوف رحيم، بعد تلك الحادثة بات يبيع المياه للعامة بسعر بخس.

- شيرو، لماذا كل هذا الغموض؟

ومع ابتسامةٍ عريضة قال:

- لقد راقت لي اللعبة، لكن هل شرحت لي القواعد؟

- ليست لعبة يا شيرفين، فقط لا أريد أن يرانا سكان المدينة معًا، أنت تعلم كيف تُنسج الأكاذيب والأقاويل حول أي شخصين يتقابلان دومًا.

كذبت مرةً أخرى.

- آه.. فقط هذا، ظننتُ أنك تودين اختبار ذكائي بلعبةٍ ما.

- اليوم هو عيد ميلادي.

- يا لحسن الحظ! ما أجمله من يوم، أتمنى لك عامًا سعيدًا مليئًا بالمفاجآت الجميلة التي سوف تبدأ للتو.

اقترب مني، وبحركات درامية مبالغ بها أخرج من جيبه مرآة دائرية الشكل بحجم كف اليد تقريبًا منقوشًا عليها رسومات حمراء جميلة، تفتح كالدفتر وقدمها لي كهدية، ارتبكت، لم أعلم ما الذي عليّ قوله، تمتمت قائلة "شكرًا لك" على استحياء.

هل هي صدفة بحتة أن يحمل هذه المرآة اليوم؛ ليُقدمها لي؟ أم أنه خطط لذلك من البداية، استطرد قائلاً:

- لقد حصلتُ عليها من إحدى المدن التي زرتها، حيث قصص عليّ بائعها حينذاك قصة؛ ليثير اهتمامي بها، فأقوم بشرائها، وبالفعل نجح في ذلك، مفاد هذه القصة، أن هذه المرآة كانت لإحدى الأميرات قديمًا وضاعت منها، في أحد الأيام وجدها شاب من العامة، فذهب لقصر الأميرة المنقوش اسمها أسفل المرآة ليُعيدها لها، لكن حراس القصر منعه وقالوا له إن هذا اليوم هو يوم زفاف الأميرة، ولن يسمحوا لأحد غريب بالدخول تجنبًا لإثارة أي مشاكل أو متاعب ممكنة.

ألقيت نظرةً لأسفل المرآة؛ حيث نُقش عليها اسم "شيربي" الأميرة

شيربي.

- اسمها قريب من اسمي، فرق حرف واحد فقط.
- أجل، مصادفة جميلة، لذلك قررت أن أهديك إياها، لعل أرى زفافك قريباً.

وضحك بجنون، تخطيت دعابته السخيفة وجلستُ بجانبه:

- شيرفين كيف يمكنني السفر؟
- الأمر سهل، تحتاجين إذن سفر وحجز بالسفينة أو العربة وبعض المال وابتسامة.

- لكن هنا الأمر معقد، حتى بعد معاهدات السلام يبقى أمر السفر صعباً جداً للعامة، فهو مكلف جداً، ونحتاج وقتاً طويلاً لاستخراج إذن سفر.

- إلى أين تودين السفر على أي حال، ولماذا؟

- ليس أنا؛ بل أخي، إنه يريد الانضمام إلى جيش أبناء الناجد الأمراء، وأمي قد جُنَّ جنونها من قراره، وسمعتها تسأل أبي عن إمكانية سفره، لعله ينسى هذه الفكرة.

- نعم، هو مجنون، من الغباء والبلهامة الدفاع عن أفكار أو أماكن وجدتَ عليها بالصدفة، ولم تخترها بنفسك.

- هو يريد القوة والسلطة فقط.

- فليصبح عرّافاً!

وضحك بصوتٍ مرتفعٍ جداً.

- شيرفين.. ما بالك تتكلم بسوء واستهزاء عن العراف دوماً؟

- لأنه خرافة يا شيرو! إنه يستغل غياب وحاجة الناس إليه؛ ليفرض عليهم سطوته، هذا الدجال الكبير.

- إنه شخص طيب يساعد الجميع، ويعالج جميع الأمراض باستثناء

من مَسَّهُ الشيطان.

- ماذا تعنين بمن مَسَّهُ الشيطان؟

قصصتُ عليه حادثة الطفلة البيضاء التي قُتلت بحضور والدتها.

ضحك حتى وصل صوت ضحكته إلى الجنوب، وقال:

- صديقتي الذكية، ما هذا الهراء؟ إنه مرضٌ يُدعى "المهاق" وليس مَسًّا من الشيطان، اضطرابٌ خلقي يُسبب الغياب الكامل أو الجزئي للمادة الصبغية في الجلد والشعر والعينين، وليس معدياً ولا مخيفاً، يا لها من مسكينة تلك الفتاة، لكن بالفعل، الموت أفضل لها من العيش مع أناس يرونها ممسوسةً من الشيطان.

- لكن هذا ما قاله الناجد.

- إما أنه غبي وجاهل، أو كاذب، وماذا حصل لوالدتها؟

- لا أعلم، لم أفكر بالأمر من قبل.

- رائع!

شعرتُ ببرودةٍ تسري في أوصال جسدي، فبعد أن بدأت يومي مستعينة بالكذب على أبي وشيرفين أيضاً؛ لأحقق بعضاً من غاياتي، تألمت عندما شعرت أنه قد تم خداعنا ربما كشعب كامل من قبل شخص نثق به، ونسلم بصحة جميع أقواله وتعاليمه، لا لبس فيها.

نحن البشر نستمتع بلذّة خفية عندما نختلق الأكاذيب ونمارسها على غيرنا، لكن نشعر بالسوء والغدر عندما تُمارَس علينا ونقع ضحيتها.

لم أكمل الحديث مع شيرفين فيما يخص قصة الفتاة أو مدى مصداقية الناجد والعرفان، فعلى الرغم من رغبتني المتعاطمة بمعرفة المزيد عن هذا الأمر، فقد شعرتُ لأول مرةٍ في حياتي أن الفضول والشك قد استحوزا على عقلي، لكنني آثرت أن ألوذ بالصمت، وأن أدع لنفسني فرصة

لأتفكّر بالأمر بشكل متأن هادئ، بعيدًا عن صخب هذا الشخص الذي
اقتحم وجوده حياتي كالإعصار.

الميناء الشمالي

تجدد لقائى بشرفين عدة مرات، بصحبة شكوكي، وبسرّية أكبر قدر الإمكان، فقد مدد إقامته في المدينة بعد أن تعرّف على بعض التجار، ليس عن طريق والدي بالطبع، لكن من خلال تحركاته وشخصيته الاجتماعية وكلامه المعسول.

كنت محظوظة أنه لم يسألني لماذا لم أزوده ببعض أسماء التجار من أصدقاء أبي، فلا ينقصني اختلاق أكاذيب جديدة وتحمل وزرها، بقيت حذرة أمام والدي، محاولة التصرف بشكل طبيعي، لكن ذاك الشك بدأ ينمو بداخلي أكثر فأكثر.

في أحد الأيام صباحًا، جاء شرفين إلى مكان لقائنا المعهود في المنتزه المهجور فرحًا جدًا، مرتديًا قبعة قش كبيرة، يكاد يطير عن الأرض.

- شيرو، لقد عقدت اتفاقية مع أحد التجار ليلة أمس بعد أن غادرت، لكنه طلب مني إيصال الشحنة إلى الميناء الثاني الواقع في الشمال، وأهداني هذه القبعة الجميلة، إن أهل مدينتك طيبون جدًا.

- عن أي ميناء تتحدث؟ إن ميناء مدينتنا هو هذا الذي نطلّ عليه من هنا، الذي يعمل به والدي كما تعلم.

ضحك وقال:

- لا أصدق أنك ولدت وترعرت في هذه المدينة، ولا تعلمين أنكم تملكون ميناءً آخر في الشمال غير الذي يعمل به والدك.

وغمزني بينما يداعب القبعة، فشعرت بطعم مرارة في فمي، منذ أن كدّب شيرفين كلام النَّاجِد عن حال الفتاة البيضاء المسوسة، ومع استهزائه الدائم بالعزّاف، بتُّ لا أعلم من أُصدّق.

قرأ أفكاري وقال:

- لا تصدقين إدا؟ حسنًا لن أجادلك وأقصّ عليك تاريخ وأسباب بناء الميناء الشمالي، لكن بعد ثلاثة أيام سوف تصل شحنة الأرز الذهبي، وعليّ الذهاب لتسليمها للتاجر مقابل المبلغ المتفق عليه، يمكنك مرافقتي ورؤية الميناء بأم عينيك.

- لماذا يتوجب عليّ تصديق أن هناك ميناء في الشمال، ونحن في حالة عداء مع المدينة الشمالية؟

ضحك حتى سقط أرضًا، قال وهو يلوح بقبعته الجديدة:

- عزيزتي شيرو، أنتِ واهمة.. ليس هناك عداء من أي نوع؛ بل هناك تجارة متبادلة ومصالح مشتركة، انظري..

ثم أخرج بعض المأكولات من حقيبته تفاعًا محلّي وكعكًا مقرمشًا مملحًا وعنبا مجففًا:

- خذي، وألقي نظرة على بلد المنشأ.

بالفعل، كانت كل المنتجات مصنعة في المدينة الشمالية، والعلم الأسود ظاهرٌ جليّ للعيان على أغلفة جميع المنتجات، كيف لم أنتبه من قبل! إنني اشتري هذه المنتجات عينها مرارًا وتكرارًا، ولم يخطر لي أن أنظر إلى تفاصيل المنتج.

ابتسم منتصرًا على جهلي، قلت له:

- أيعقل أن سكان المدينة أيضًا مثلي لا يعرفون؟

ردًا بسخرية:

- في هذه الحال إنها ليست مصيبة؛ بل هو وباء، كثيراً ما سمعتُ عن الإيمان الأعمى، لكن هذه أول مرة أقابله وجهاً لوجه، مدينة الإيمان الأعمى بامتياز!

قررتُ ألا أدخل بجِدالٍ مع شيرفين وأبوح له بشكوكي، فمن المتعارف عليه أن لا أحد يذهب أو يتجول في الغابة الشمالية، لكن من غير المعقول أن لا أحد من سكان مدينتنا أو التجار قد رأى ميناء في الشمال، قلت له:
- حسناً ليس عندي جواب الآن، لكنني سوف آتي معك لاستلام الشحنة في موعدها؛ لأرى عما تحدث.

- جيد، لكن لا تسرقني الأضواء مني.

كما قال شيرفين، هناك ميناء مشيد بجوار ميناء المدينة الشمالية، ورأيتُ علمنا الأبيض يرفرف بالقرب من العلم الأسود بشكل متآخ، هذا المشهد بعث في نفسي شعور الاشمئزاز، هذه هي المرة الأولى التي أشعر أن وجود البحر ليس نعمة بل نقمة، وإنه بالفعل غدار كما يشاع عنه، هذا الميناء يضم مرافق خدمية أكثر وأكبر من الميناء الجنوبي، وترسو فيه سفن تجارية ضخمة لم أر مثلها من قبل، وحتى إن رصيفه نظيفٌ ومنظم أكثر من اللازم.

لم أقرب كثيراً من المكان، فقط انتظرتُ شيرفين عند مدخل الميناء لينتهي صفقته، كان المدخل مدججاً بالحراس، لكن شيرفين لم يهدر أي فرصة للحديث معهم وإلقاء دعاياته عليهم.

ألفُ فكرةٍ تدور في رأسي، نعم أنا واهمة، لم أكن أعلم أن العلاقات الاقتصادية بيننا وبين المدينة الشمالية مزدهرة وعلى ما يرام.

لقد تمّ تجبيشنا ضد المدينة الشمالية لعقود من خلال خطابات الناجد، وعبر مناهج المدارس والجامعات، باعتبارها العدو اللدود، والسبب المباشر لكل مصائبنا من فقر وجوع وجرائم وبطالة وتفكك

روابط المجتمع.

عاد شيرفين منتصرًا، وهو يحمل مبلغًا وفيرًا من المال، قال لي:

- غدًا سوف أحضر لك شيئًا لذيذًا جدًّا عليكِ تجربته، لقد نجحت الصفقة، وأخذتُ المبلغ الذي طلبته، قولي لي؟ هل أيقنت أن هناك ميناء في الشمال؟

هزرت رأسي بالإيجاب فقط.

- شيرو، أعلم أنكم تعيشون بعزلةٍ عن العالم الخارجي فرضتها عليكم حكومتكم الموقرة لأسباب سياسية، لكن عدم درايتك بوجود ميناء آخر للمدينة، هذه قوقعة داخل قوقعة.

- نحن لسنا بعزلة عن الخارج.

قُلْتُ على استحياء.

- بلي، انظري حولك، هل ترين أي سياح في مدينتك، على الرغم من امتلاكها الطبيعة الخلابة والطقس الجميل؟! أنتِ تعلمين كم هو صعبُ السفر خارج هذه الحدود أيضًا، هل تملكون كتابًا، أدباء، أو علماء؟ هل تعرفون شيئًا عن الأساليب الحديثة في العلاج والطب؟ أه.. لا يُسمح لكم بدراسة الطب من الأساس.

- لكننا نعيش بسلام.

ضحك بصوتٍ مرتفع، وسألني:

- هل التغيُّب الكامل عن العالم الخارجي، وحجز الحريات يُسمَّى سلامًا؟

نظرتُ إليه بشيءٍ من الخزي والخذلان، ولم أتفوّه بأي ردِّ.

- العزلة على مدينتكم فُرِضتْ قبل حوالي مائة عام، وجميع المدن الأخرى تتعامل مع هذا الأمر على أنه شأن داخلي ولا يمكن التدخل به،

لذلك لم يتغير شيء منذ إقرار هذا الأمر أو بالأحرى، منذ فرضه عليكم، ولن يتغير أيضًا، إن لم يحدث شيء جلل يهز أركان هذه المدينة، ويوقظ الشعب من غيبوبته.. أنا لا أعني بكلامي هذا أننا مختلفون أو أي شيء من هذا القبيل، لكن الحياة خارج هذه المدينة تسير بشكل مختلف عمّا هي هنا، حاولي أن تنظري للأمور بشكل مجرد دون تقديس أو إيمان أعمى، القداسة الحقيقية تتمثل في حرية الإنسان وحقه الكامل بالعيش كيفما وأيما يريد، وهذا ما تمّ تدنيسه هنا في هذه المدينة.

عدتُ أدراجي مشوشة الذهن بعد كل ما حدث اليوم، لا يمكنني أن أصف شعوري بعد كلام شيرفين، لديه وجهة نظر بالتأكيد، لكن هناك أشياء مفقودة.

جلستُ إلى مكتبي، ودونت:

"لدينا ميناءٌ آخر ناحية الشمال أكبر من الميناء الذي أعرفه، وترسو فيه سفنًا أكبر،

وتُباع منتجاتُ صنعت في المدينة الشمالية في أسواقنا".

"الناجِد صاحب المقام العالي غبي أو متواطئ".

"السيد سام العرّاف؟"، وضعت إشارة استفهامٍ جانب اسمه.

"نحن نعيش بعزلة عن العالم الخارجي".

"شيرفين محل ثقة".

قررتُ أن عليّ أن أفهم، فلا يُعقل أنني أنتمي لهذا المكان، ولا أستطيع تمييز الحقيقة عن الأكاذيب والأوهام، ولا سبيل آخر لذلك إلا شيرفين، فإن أبي لن يُجيب على تساؤلاتي، وربما هو بدوره مُعَيَّبٌ مثلي، أو عليّ تتبع الحقيقة بنفسِي.

وللتأكد من أن أحدًا لن يصل إلى دفتر ملاحظاتي هذا، وتجنبًا لأي

هفوة، فقد وضعتُ الدفاتر في حقيبتني التي أخذها معي إلى كل مكان، بهذه الطريقة فقط أستطيع حماية ما في داخلها من حقائق وأكاذيب ومشاعر.

الجبن

في اليوم الذي تلا رؤيتي لميناء الشمال الذي خَلَفَ في رأسي عدة تساؤلات، قابلتُ شيرفين في المتنزه المهجور، كان يرتدي ثيابًا زرقاء مع حذاء أحمر قاتم، ويحمل معه حقيبة تبدو ثقيلة الوزن.

- ما هذا الذي تحمله؟

- تعالي، سوف نذهب للجبل اليوم.

- لكنني لا أرتدي حذاءً مناسباً لطريق الجبل.

فلقد جهّزتُ نفسي لأبدو بأجمل حلّة، كنتُ أرتدي ثوبًا بلون العسل يلتف حول خاصرتي بشكلٍ مُبالغٍ به، وحذاء يفيض أنوثة وجمال.

- لا بأس، إن سقطتِ سوف أحملكِ.

وغمز لي بعينه الناعسة.

بعد ساعةٍ من المسير البطيء بسبب حذائي غير المناسب للطرق الوعرة، وصلنا إلى بقعة خضراء بجانب مصطبة حجرية عند سفح الجبل تطل على المدينة من أعلى، وإن تجرأ أحدهم وخطأ عدة خطوات أخرى في الاتجاه المعاكس، سوف يرى بوضوح الحدود الفاصلة بيننا وبين المدينة الشرقية.

فتح حقيبته، أخرج منها حصيرة ملونة مزركشة، ومدّها على المصطبة، ثم أخرج كذلك أوعية طعام مغلقة بإحكام، وبعض الفواكه والمكسرات، خلع حذاءه، وجلس على المصطبة وأوماً لي بالجلوس، كانت

الحصيرة صغيرة جدًا تتسع لشخص واحد فقط، وبسبب ضيق المكان جلست بجواره، لكن لا مشكلة، فمكان الضيق يتسع لألف صديق، كانت هذه أول مرة يلامس جسدي جسده بشكلٍ مباشر، ثمة كهرباء سرت في جسدي، استنفرت أعصابي، أحسستُ بدفءِ يده، وبروحه الحنونة.

لفت انتباهي أنه يرتدي أساور سوداء جلدية في معصمه، تبدو قديمة مهترئة قليلًا وغير متناسبة مع ذوقه العام، بخفة أزال غطاء أحد أوعية الطعام وأخفى محتواها عني، نظر إليّ بلؤمٍ وقال أولًا:

- أغمضي عينيك، هيا!

- أغمضتُ عيني، قال:

- افتحي فمك ولا تجادلي.

- فتحتُ فمي، وشعرتُ بشيءٍ ناعم بارد وضعه على لساني.

- هيا كُليه.

مضغته بلا صعوبة؛ لأنه كان طريًا جدًا، وطعمه فيه ملوحة خفيفة وبعض الحموضة، والكثير ممًا لا أستطيع وصفه.

- افتحي عينيك، وقولي لي ما رأيك؟ هل أعجبك الطعم؟

رأيتُ مكعبات بيضاء أمامي، شعر أنني تفاجأتُ أو بالأحرى دُعرت، إنه طعام أبيض! ولا يجوز أكله.

- شيرفين ما هذا! اشرح لي أرجوك؟

- أعلم أنك لا تعرفين ما معنى "الجُبْن" إنه غذاءٌ يُصنع من الحليب ويتم تخزينه وتناوله في أي وقت، وهناك عدة أنواع وأشكال ونكهات منه، إنه لذيذ جدًا، ألا توافقينني الرأي؟

- نعم إنه لذيذ، ولكنه أبيض.

- لا تقلقي لن تُصابي بأي مكروه، هيا لنأكل.

جميع الأوعية كانت تحتوي على الجُبْن، لقد أصبح طعامي المفضل منذ ذلك اليوم، من مكعبات الجبن الأبيض المالح، والجبن الأصفر، بالإضافة إلى الجبن الناعم الطري، ولا أنسى الجبن المخلوط بالزعر والزيتون، كانت أجمل وألذ مائدة طعام أتناولها في حياتي.

- حسناً بما أنها أول مرة تتذوقين الجُبْن، كيف يمكنك أن تصفي طعمه؟ لديّ فضولٌ لأعرف!

قلت بلا تردد:

- إنه بطعم الحب.

ابتسامته تلك بعد إجابتي الخرقاء سكنت قلبي على الفور، لن أنساها طيلة حياتي، وقال:

- أنتِ جميلة جداً يا شيرو، رأيتُ شعوباً كثيرة تتميز بملامح ملفتة وجميلة، لكنكِ تملكين سحراً غامضاً في عينيكِ، أظن أنه يصعب توريثه أو تقليده أو الهرب منه، وما يزيدكِ جاذبية وإغواء حاجبكِ الجميلان، إنني مفتونٌ بما تملكين من ملامح حادة جريئة عكس شخصيتكِ الانطوائية.

أقسم أن حرارتي الداخلية في تلك اللحظة قد ظهرت على محياي، وبدوت حمراء كالقراولة، اعتراني الخجل الشديد وفقدتُ القدرة على الكلام، ذلك ما أعجبه وجعله يدنو مني ويُمسك خصلَةً من شعري ويسترسل بقوله أكثر:

- شعركِ الأسود الطويل هذا، هو أول ما لفت انتباهي، ما زلتُ تملكين نفس التسريحة منذ عشرة أعوام.

أمسكْتُ بيده المحتضنة خصلَةً من شعري، وتحسستُ دفئها ولملمسها العاجي، ولا أعلم ما الذي دفعني حينها لأسأله:

- ما لون دمك؟

ضحك وقال مماًزحاً:

- أتريدان قتلي لأنني لمستُ شعركِ الجميل؟

- لا أبداً، يمكنكِ لمسه في أي وقتٍ تشاء.

نظر إلى السماء، وقال بابتسامة كبيرة:

- إنه بلون هذه السماء الجميلة.

صحّحت له:

- أتعني بلون الغيوم التي في السماء؟

ضحك وقال:

- حسناً كما تشائين، لأجلكِ سوف أُغَيِّر لون دمي.

- شيرفين أنا أسألكِ بشكلٍ جدّي.

- لا أستطيع أخذ هكذا سؤال على محمل الجدِّ إلا إذا كان تهديداً.

علمتُ أنني لن أصل إلى نتيجة إذا بقيَ يمزح هكذا، فقررتُ أن أسرد له قصة كتيبة المدينة الجنوبية ذات الدماء البيضاء، لم يضحك كما فعل عندما سمع قصة الفتاة البيضاء، ولا كما ضحك عندما كشف لي جهلي بوجود ميناء آخر لمدينتنا؛ بل عبس لأول مرة في وجهي وزفر أنفاسه، وقال بغضب وحزم:

- لن أقول لكِ أنكِ بلهاء، لكن أنتم مجرمون، ليس بسبب قتل الكتيبة؛ لأنها كانت حالة حرب، وبالتأكيد هناك ضحايا ودماء، لكن تضليل الحقيقة وتزييفها وإقناع أجيال كاملة بخرافة لا معنى لها لأهداف أجهلها حتى الآن، جريمة بحق الجميع، يا للسخف، تسأليني ما لون دمي؟ سوف أريكِ، لكن لا تصرخي وتطلبي النجدة وتصفيني بالشیطان إن لطّخكِ دمي الأبيض الشيطاني.

كنتُ خائفة ولا أقوى على الكلام ولا الحركة، فقد تفاجأتُ من ردة

فعله هذه، أخذ سكيناً لا يزال يحتفظ بآثارِ الجُبْنِ الذي تناولناه للتو، وجرح به معصم يده، بدأ دمه يقطر أمامي، وفي عينيه نار، خُيِّلَ لي أنها سوف تحرقني، لقد نزف دماً بلون الحب!

بعد أن هدأ قليلاً، ونزف دماً لَطَّخَ الحَصِيرَةَ وملابسي، جلس بعيداً عني، أخرجتُ من حقيبتني منديلاً نظيفاً، وذهبتُ إليه وأمسكتُ يده النازفة، محاولةً إيقاف النزيف، ولم أحاول النظر في عينيه خوفاً مما قد أرى فيهما.

- لا بأس، لن أموت من فقدان القليل من الدم الأحمر.

وشدد على آخر كلمة.

لذتُ بالصمت إلى أن توقف نزيف يده، كان قد استعاد هدوءه، ومازحني قائلاً:

- اطمئني، من لمس شعركِ ليس بشيطان.

وضحك، لكنني دفنتُ رأسي بين راحة يدي وشرعتُ بالبكاء، لا أعلم لماذا بكيت، هو من جرحَ وليس أنا، دمه وليس دمي، لكن دموعي جرت على يديه عندما أمسك وجهي ورفعته إلى مستوى نظره، لم أكن قريبةً منه إلى هذا الحدِّ من قبل، رأيتُ عن كثبِ شعر لحيته المتدرِّج من الأسود إلى البني المحمر، ناهيك عن أهدابه الطويلة الجميلة جداً، التي تحسده عليهم أي فتاة في هذا العالم، قبَّل جبينني وقال:

- أنا آسف، لقد أخفَّتِكِ.

كفكفتُ دموعي وجلست بجانبه، وضعتُ رأسي على كتفه، وقلَّت له:

- منذ أن رأيتك قبل عشر سنوات شعرتُ أن هناك شيئاً يربطني بك، والآن اكتشفت أن لون دمنا واحد.

ضحك حتى بدأ يسعل، ثم قال:

- أنتِ فاشلةٌ في الرومانسية يا حلوتي وحمقاء أيضاً، جميع سكان هذا الكوكب يملكون دمًا أحمر، صدقيني، يمكنكِ أن تعلمي كقاتلة مأجورة؛ لتتأكدي من ذلك بنفسكِ.

- إذا مرةً أخرى هناك حقيقة مفقودة؟

- نعم، أشعرُ بالشفقةِ عليكم، إنكم مغيبون تمامًا، حتى أساسيات الحياة تجهلونها! شيرو.. اللون الأبيض ليس مقدسًا ولا محرّمًا، هو لون مثل أي لونٍ آخر، اللون الوحيد الذي يجب تحريمه هو الظلم، جميع البشر يملكون دمًا أحمر، ومن زرع هذه الفكرة في رأسكِ، وربما في رؤوس جميع سكان المدينة، زرعها فقط لتحقيق أهداف سياسية أو شخصية، لقد رأيتِ بنفسكِ أنكم تملكون ميناءً آخر، وفي متاجركم توجد منتجات مستوردة من المدينة الشمالية، لذلك أرجوكِ تجاهلي موروئك المزيّف، واستخدمي عقلكِ بالحكم على الأمور بشكلٍ منطقي، عليكِ بالشكّ في كل شيء حتى تقطعيه باليقين.

بحثٌ له حينذاك أنني قد عزمْتُ على فهم الحقيقة الليلة الماضية، وأخرجتُ دفتر ملاحظاتي وأريته ما دونت، فقال "شكرًا على ثققتكِ" عندما قرأ ما كتبت عنه.

- العرّاف.. نعم إنه ذو عدة أوجه، سوف أحرص على كشف حقيقته أمام الجميع.

- طريقة كلامك عنه دائماً توحي لي أنك تعرف شيئًا ما، لكنك تخفيه عني.

لم ينيس بنت شفة، وقلب الصفحة فوجد ما دونته بعد أن قابلته مجددًا أول مرة، ابتسم، وقال لي:

- أنتِ جيدة في الرومانسية، لا بأس بكِ.

ضحكنا معًا، أخذ يديّ الاثنتين ووضعهما في حجره، وغرق في

تفكيره، ثم قال لي:

- إن بحثُ لكِ بكلِّ شيء، هل سوف تبقين معي وتسانديني؟

- نعم، أنا معك.

أخذ السكين ذاته وجرح إبهامي بلطف، خرجت قطرة دم على الفور، وضع إبهامي على جرحه الناظف وضغط بشدة.

- حسناً علينا الالتزام بعهد الدم هذا، ومن ينقضه، فسوف يُهدر

دمه.

في هذه الأثناء، بينما كنت أعاهد شيرفين على شيءٍ أجهله، لمحتُ طيراً أبيض في السماء، يحلّق فوق موضعنا، وقد أُصيب بجرحٍ من أحد الصيادين ربما، أو من أحد الأشخاص الذين لا يطيقون رؤية هذا اللون الناصع، ليسقط بالقرب منا نازفاً دمه الأحمر، أخذه شيرفين، فقد كان لا يزال على قيد الحياة، وغادرنا بسرعة قبل مجيء أحدٍ ما.

لم يُفارقني ذلك المشهد لأيام عديدة؛ حيث بات يُداهمني في أحلامي، ولا أعلم ما تفسير ذلك، ربما كناية عن حريرتنا المجروحة.

فطيرة التفاح

فزعت أُمِّي عندما شاهدت ثيابي المملّخة بالدم، قلت لها إنني قد جرحتُ يدي عن طريق الخطأ ونزفت، لم أكذب، نعم هذا دمي، هذا دمنا.

لم تعرني اهتمامًا كبيرًا بعد أن طمأنتها على نفسي، فوالدتي هذه الفترة مشغولة البال بقضية أخي، لكن الأمهات لديهن حاسة سادسة يجب تصديقها، عندما تقول إن هذا الأمر يبدو مريبًا أو خطيرًا، يتوجب علينا تصديقها دون نقاش، لكن لم نكنُ ندري أن هذا الخطر الذي يُقلق راحة أُمِّي سوف يداهمنا قريبًا، وبأفزع شكلٍ ممكن.

جلستُ إلى مكتبي، ودونتُ في دفتر ملاحظاتي إرهابات تجول في رأسي منذ أن اختلط دمي بدمه:

"أتعلم يا سيدي ما يعني عهدَ الدم؟

ميثاقٌ قديم يحفظُ الوعد ولا يُنقضُ إلا بالدم،

فكيف تطالبنني أن أتعهد لك بدمي، وأنت قد أوقفت الدم في

عروقي؟

وماذا عن عهد روحي بدوام الوجود حول حضورك الطاغوي؟

أُيرضيكَ ويشبُعُ غرورك أن أرهن أيام عمري لك؟ أم أن عمرًا واحدًا

لا يكفيك؟

وأنا الذي ليس له حق الاختيار إلا أن أتتبع نورك الباهي

لعلني أنالُ ما يتمناه قلبِي وأرى انعكاس روعي في عينيكِ. "

استلقيتُ على سريري الذي يتوسط حجرتي المتواضعة، ورحتُ أتأمل السقف على غير هدى، وبينما كنتُ غارقةً في ملكوت أفكارِي البيضاء، تذكَّرتُ أنني لم أسأل شيرفين عن عنوان مسكنه الحالي، فمن الضروري أن أعرف، سوف أستفسر عن ذلك غداً.

غفوتُ ورأيتُ حلمًا يختلط فيه دمٌ أحمر بدمٍ أبيض ليُشكِّلا بركةً أغرق بها، مع يدٍ ممدودة تُحاول انتشالي، كانتُ يداً نازفةً دماً أحمر، استيقظتُ متصبِّبةً عرقاً عند الساعة الثالثة فجراً، أشعر بجوع شديد؛ لأنني تناولتُ وجبةً واحدة فقط خلال يومي الفائت، وجبة الجُبْن اللذيذ.

خرجتُ باكراً واشتريتُ تفاحاً أحمر من الباعة المتجولين في ساحة المدينة، كتبتُ على ورقة: "خذني إلى عنوان سكنك وادخل إليه، ولا تخرج قبل أن أعود، إنها مفاجأة"، ورميتها في الساحة عند قدمي شيرفين الذي لم يستطع إخفاء ابتسامته الجميلة عندما رأى أنني بتُّ أكثر جرأةً في تعاملي معه.

سار أمامي مُتبخترًا، ووصلنا لحَيٍّ يبعد عن منزلي عشرين دقيقة مسيراً على طريقة شيرفين، إنه يقطن في حيٍّ يحفل بالمجمعات السكنية التي يستأجرها التجار الأجانب والرحالة بجانب ميثم المدينة الوحيد.

صعد إلى المبنى وظهر من الشرفة الثالثة المطلة على الشارع وراح يُداعب شعره الجميل، حالما علمتُ عنوان إقامته بالتفصيل عدتُ أدراجي؛ لأنفَذ ما خططتُ له.

أخبرتُ والدي أنني سوف أذهب برحلةٍ إلى سفح الجبل تُنظمها الجامعة، في الأيام الماضية بدأتُ أمهد لعائلي أن لديَّ رغبةً ببناء علاقات وصدقات؛ لكي أبرر غياباتي المتكررة لاحقاً، وبدأتُ بتحضير فطيرة

التفاح* بالقرفة والعسل والجوز، وبالطبع من الدقيق الأسمر.

لا أنكر علامات الاستغراب على وجه أبي؛ لأنه لم يرني بهذه الحماسة سابقاً، لكنني كنتُ ممثلةً بارعة، أخذتُ أطباقاً بعدد طلاب فصلي، مع بعض قطع الكعك المقرمش المملح المستورد من المدينة الشمالية، لعل أحد الزملاء لا يرغب بتناول فطيرة التفاح.

تسللتُ خلسة إلى خزانة ملابس والدتي، أخذتُ عباءةً كانت قد ارتدتها عندما ذهب لِعلاج الحرق الذي أصاب قدمها قبل عدة أعوام عند العرّاف، ارتديتُ ملابسِي وتعمدتُ ارتداء معطفٍ ذي قبعة، عندما خرجتُ وابتعدتُ عن المنزل، تواريتُ عن الأنظار، وارتديتُ العباءة وغطيتُ رأسي وشعري، واتجهتُ إلى مسكن شيرفين.

لا أظن أن أحداً سوف يتعرف عليّ بهذه الهيئة، فأغلبية المارة ظنوا أنني زاهية للعلاج عند العرّاف، فمن باب الاحترام والحشمة يتوجب على نساء المدينة ارتداء عباءة طويلة عند الذهاب إلى العرّاف؛ ليسهل عليه التعامل معهن دون حرج، ولا أحد يدري ماذا يحصل تحت تلك العباءة، العلاج أم الاحتيال كما قال شيرفين.

عند وصولي إلى الحي كان يجول بنظره من شرفته، ابتسم عندما لمحني، لكن ما أثار خوفاً وجعلني عاجزةً عن الحركة لفترة وجيزة، رؤية أخي مافروس هنا، مافروس كان جالساً على مقعد خشبي مقابل الميتم وفي حجره طفل، إنه مشهد سوريالي، لم أفهم شيئاً، بعد قليل جاءت امرأة وأخذت الطفل عائدةً إلى الميتم، وغادر أخي من الطريق المعاكس بحزن.

*فطيرة التفاح: تتكون العجينة من الدقيق والزبدة والسكر، وتحضر الحشوة من التفاح المطبوخ بالزبدة مع السكر أو العسل، وتضاف لها القرفة، وتوضع الحشوة فوق العجينة، وتخبز في الفرن لمدة نصف ساعة، وتزين بالمكسرات حسب الرغبة.

حسنًا، بدا لي أن المرأة أضاعت الطفل، أو قد خرج من الميتم، وهو يلعب، لكن بعد الإمعان في الأمر، تبين لي أن ذاك الطفل غير قادر على المشي، على حسب تقديري كان عمره لا يتعدى الأشهر الأولى، فما الذي يحدث هنا بحقّ الجحيم؟

تناسيتُ الموضوع، وشعرتُ بالراحة لأنه لم يرني، ونظرتُ إلى شرفة شيرفين ودخلتُ المبنى من الباب الخلفي صعودًا إلى شقته، لكنني سوف أندم لاحقًا على تجاهلي هذا المشهد، وعدم اللحاق بأخي والضغط عليه حتى يفصح لي عن حقيقة ما يجري.

تمالكتُ نفسي وطرقتُ الباب، وعندما رأني هكذا كاد يضحك كعادته، لكنني دخلتُ عنوة وتوسلتُ إليه ألا يفعل شيئًا يلفت الانتباه، قال:

- حاضر أيتها الجنيّة، لكن ما هذه العباءة؟ هل اشتريتها لكي توقعيني بشباكك يا عزيزتي؟ لن تفلحي بذلك، فإن ذوقي ليس بهذا المستوى الرفيع.

وضحك حتى بانّت جميع أسنانه.

- كفى استهزاء، لقد ارتديتها لأتخفى بها؛ فإن رأني أحد من معارفي هنا، فسوف تحدث مصيبة.

قال:

- تبدين كالساحرة.

نظرتُ إليه بتعالٍ، وقلت له:

- نعم، أنت قلتُ إنني أملك سحرًا غامضًا في عينيّ، أليس كذلك؟

أخذ يدي وقبّلها من الداخل، وقال:

- أشمّ رائحة سحرية جميلة أيضًا، ماذا جلبتِ معكِ؟

أخرجتُ طبق الفطيرة، كان ساخنًا جدًّا تفوح منه رائحة القرفة التي

ملأت الأجواء، أبدى حماسة كبيرة لتجربتها، ونالت إعجابه بشدة من أول لقمة، بدأ يدندن لحناً بينما يأكل ببطءٍ شديد، سألني بغم مملوء:

- ما حاجتنا إلى كل هذه الأطباق يا شيرو؟ لن أسمح لأحد أن يشاركني هذه الفطيرة، إنها لي وحدي.

- إنها لغرض التمويه فقط.

بعد أن التهم أكثر من نصف الفطيرة تنبّه إلى أنني لم أكل منها، فقال على استحياء:

- آسف، لقد نسيْتُ أن أسألكِ إن كنتِ ترغبين بالأكل، لقد راققت لي جدًّا.

- أنا سعيدة أنها أعجبتك، أما أنا فأريد بعض الجُبْن.

- آه.. ممتاز، سوف تجدينها هناك، في الثلاجة، كلي قدر ما تشائين.

كانت الثلاجة مملوءة بكل المنتجات البيضاء التي لم يُخَيَّل لي أنها موجودة في عالمنا، وأكثر ما لفت انتباهي كان البيض الأبيض، لا أصدق أن هناك بيضًا أبيض اللون، أخذتُ واحدة ورفعتها أمام ناظريه، سألته:

- أهي مختلفةٌ من الداخل؟

أجابني:

- لا.

اقترب مني وأخذ طبقًا مجوفًا، وفسق البيضة فيه:

- تاتاتاراتاااا، انظري، إنه بيض عادي.

ثم جلب عبوة حليبٍ بقري كما أخبرني، وأضاف القليل منه إلى البيضة ومزجها جيدًا، ثم أضاف إلى الخليط توابل بيضاء من فلفل وملح، كنت أشاهده بحذر والدهشة تتملكني، لقد اعتدنا أن نستعمل البيض البني والملح المائل إلى الحمرة، ويتم إضافة الكركم للبيض؛ ليغدو

ذهيبًا.

سكب الخليط في مقلاة، ثم أضاف الجبن أيضًا الذي ذاب تحت تأثير الحرارة، قدّم الطبق لي ساخنًا مع شريحة خبز مصنوع من الدقيق الأبيض، لن أنسى طعم ذلك الطبق حتى مماتي، تناولته بنهمٍ، ورأيتَه يشاهدني بحيرةٍ أو ربما شفقة، لا أدري.

ضحك بينما هو يراقبني أتناول ما أعدّه لي، وقال:

- أنتِ جلبتِ لي فطيرة تفاح، وأنا أعددتُ لك بيضًا مقليةً وجُبْنًا، إننا متعادلان.

وغمزني.

- لم أتذوق في حياتي أذً من هذا الطبق، شكرًا لك يا شيرفين.

- السرُّ في الجبن يا عزيزتي، جميع أنواع الأطعمة المشتقة من الحليب، الأجبان والألبان والزبدة تمتلك قيمًا غذائية عالية مهمة للنمو والصحة والمناعة، كوني على ثقةٍ أن سائر أثرياء هذه المدينة التي تحرّم اللون الأبيض، تمتلئ ثلاجاتهم بجميع أصناف هذه الأطعمة، وربما يملكون أصنافًا أخرى أنا أجهلها، فقط على عامة الشعب يُمارَس هذا الحظر الغريب الأطوار.. صدقًا أنا لا أفهم ما الغاية من هذا الأمر.

أشحت بنظري عنه، فأنا لا أملك إجابة، ولم أعد مقتنعةً بالموروث الذي تربيته عليه.

تضم شقة شيرفين أشياء كثيرة لا أعرفها، وما لفت انتباهي أن هناك أمتعة وحاجيات تدل على أن ساكنها قد عزم على الاستقرار فيها، ما يعني أنه ليس في زيارة عمل قصيرة كما زعم.

فما حاجة شيرفين للشموع، أو لكل هذه الأوراق والأقلام والأكواب المتنوعة وعدة أغطية للسرير؟ أم أنه استلمها هكذا من المالك؟ لن أتدخل، على العموم يكفيني الآن أنني أعرف أنه يقطن بالقرب من الميتم الذي

يضم أكبر عددًا من الأطفال مجهولي النسب، والجميع يعرف أن هؤلاء الأطفال هم خطيئة لتفريغ رغبات أبناء الناجد الأمناء، وقد تم بناء هذا الميتم هنا تحديدًا؛ ليكون قريبًا من الأماكن التي يتردد عليها التجار والرحالة، لعل أحدهم يرغب بتبني طفل؛ ليخرجه من هذا الجحيم.

جلسنا في شرفة الشقة المطلة على الميتم، لففت عباءة أمي حولي، وحاولت إخفاء وجهي قدر الإمكان، وسألته:

- ماذا كنت تنوي أن تقول لي قبل أن نغادر في ذلك اليوم؟

- آه، أنا متردد بعض الشيء، لكن...

قبل أن يُكمل كلامه سمعنا صوت المذياع يصدر ببيان مفاده أنه غدًا في العاشرة صباحًا سوف يُلقى الناجد صاحب المقام العالي خطابًا في محكمة الشعب في ساحة المدينة.

قال شيرفين:

- ما الذي يريد قوله هذا العجوز؟

أجبتُه بلامبالاة:

- إما تعديل جديد في الدستور، أو سيتم إرسال أحد المذنبين لدرب السلام.

- ماذا يكون درب السلام؟

- لن أقول لك، على الأغلب إنها خرافة أو كذبة، لم أعد أثق بكلامهم.

- جيد، لقد بدأنا أول خطوة في الشك، لكن اشرح لي ما درب السلام؛ لكي نكتشفه معًا.

بحثُ له بكل شيء أعرفه عن هذا الدرب، والغاية منه.

- أين يقع؟

- في جهة الشمال داخل الغابة، لا أعلم أين بالضبط، لكنني أستطيع

الوصول إلى مدخله، فهو مميز، لكن لماذا تسأل؟

- عليّ تحريّ الأمر، بالتأكيد هو خدعة أو مكيدة.

- إذا ستأتي غدًا إلى الساحة؟

- نعم عليّ معرفة ما الذي يجري، وبعدها تأخذيني إلى ذلك الدرب

الملعون..

قاطع كلامنا صوت رجلٍ يُعني بلغة لا أفهمها، ولكن علي ما يبدو قد

فهمها شيرفين، وأنصت بجمودٍ حتى تلالأت الدموع في عينيه.

لحن مألوف

هرع شيرفين مسرعًا إلى شارع الحي يتتبع صوت الرجل، وأنا ارتديتُ عباءتي، محاولةً مجاراته، لكنني لم أجروء على مناداته كي يتوقف أو يتمهل؛ لكي لا ألفت الأنظار إلينا.

وصل قبلي للعجوز الذي كان يردد ذلك اللحن الغريب، وقف أمامه، خُيل لي أنه تفوّه بكلمات لم أفهمها بتلك اللغة الغريبة، وصلت إلى جانبه، وعلى الفور أمسك بيدي وشدَّ عليها بقوة، كان متوترًا باحثًا عن ملجأ ليشعر ببعض الأمان، فور نطق شيرفين بتلك الكلمات الغريبة نهض العجوز عن مقعده، واقترب منه قائلاً:

- كيف تعلمت هذه اللغة يا بني؟

قال له شيرفين:

- أيمكننا التحدث في الداخل؟ أو يمكننا الذهاب لشقتي، إنها هنا

بالجوار.

- لا بأس، تفضّل يا بُني، أهلاً وسهلاً بكم، أنت وأختي...

- إنها حبيبتي.

نطق شيرفين هذه الكلمة وشدَّ قبضته على يدي أكثر، وأنا قد فقدتُ السيطرة على نبضات قلبي، وشعرتُ أنها باتت مسموعة لجميع سكان الحي، وحتى الطيور في السماء.

دخلنا إلى مسكن العجوز خلف متجر التحف والنوادر الذي يعمل به

ويدعى "متجر الذكريات"، هناك لافتة مُثبتة على بوابة المتجر تحمل عبارة خطفت تفكيري للحظات:

"يا من تبحث عن الذكريات، لقد وصلتَ للمكان المناسب، جميع القطع داخل هذا المتجر ما زالت تحمل ذكريات من امتلكها."

لكنني لا أبحث عن الذكريات؛ بل أبحث عن الحقائق!

عدتُ لواقعي عندما قال الرجل العجوز ذو الشارب الكث:

- أنا آسف، المكان يعجُّ بالفوضى، فأنا أعيش وأعمل هنا بمفردي منذ زمن بعيد، لقد افتتحتُ هذا المتجر منذ عشرة أعوام بعد أن سافرتُ لعدة بلدان وجلبتُ بعض القطع المميزة والنادرة التي قد تنال إعجابكم، وبالأخص إعجاب هذه الأنسة الجميلة.

حيث كان المتجر يعج بالرفوف البالية التي تحمل قطعًا عابرة للزمن، قال شيرفين بحدة لا تخلو من الذوق:

- شكرًا لك يا عم، بالتأكيد سوف نُلقي نظرةً على بضاعتك النادرة، لكن بعد أن تقول لي، كيف وأين تعلمت هذه الأغنية؟

هناك ممر يوصل بين المتجر وحجرة دائرية تضم مجموعة من القطع المتناقضة والمتجانسة معًا في آن واحد من جميع الألوان والأشكال، بالإضافة إلى صندوق أسود يبدو عليه أنه قد نُظف منذ قليل فقط، فهو يلمع بشدة، وقفل محكم، موضوع على رفٍّ مرتفع مثبت بالجدار، ولحُتُ بابًا صغيرًا يؤدي إلى القبو أو المخزن ربما.

جلس الرجل العجوز على أريكة تبدو أنها تكبرني بأعوام، وجلسنا أنا وشيرفين على الأريكة المقابلة لها، بهدوء قال، وهو يبتسم ونظراته تُحلّق في مكانٍ ما لا نراه:

- لقد تعلمتها من صديقٍ قديمٍ عزيز على قلبي، كان يقول إنها ترنيمةٌ من لغةٍ قديمة تخصّ بلاده، ومن فرط حبي له، ورغم عدم إتقاني

أو فهمي لتلك اللغة، فقد حفظتها عن ظهر قلب.

اعتدل شيرفين بجلسته بينما كان لا يزال يُمسك يدي بقوة، وقد بدأت أشعر ببعض الألم لكنني لم أعترض، فقد شعرت أنه بأمس الحاجة لي الآن، ثم قال:

- هذه الأغنية يا عمي من تأليف أبي.

ونظر لي بحزن؛ حيث عرف أنه قد آن الآوان ليتخطى تردده ويشرح لي كل شيء.

انحنى العجوز على ركبتيه وراح يُمسد لحيته الطويلة، ونظر ملياً بوجه شيرفين، وقال والدموع تتجمع في عينيه:

- اللعنة! أنت لا تُشبه دياز أبداً!

وكاد يبكي لكنه تمالك نفسه ومسح دموعه، ورحب بنا مجدداً بحفاوة كبيرة وحنان طاع.

- ألا تتذكرني يا بُني؟ كنتُ أعمل ملاحاً بجانب والدك أينما حلّ لثمانى سنوات أو أكثر.

- أنا آسف، لا أذكرك.

- آه.. أنا أذكر صباحك جيداً، لقد كنت شقيماً ولعوباً، على العموم، كيف حال والدك؟

- لقد توفي منذ عام.. لقد قُتل.

دبّ الخوف في قلبي قبل وجه الرجل العجوز الذي نهض على الفور؛ ليُحکم إغلاق الباب الذي يؤدي إلى المتجر ثم الشارع، مسدلاً جميع الستائر متأكداً من إغلاق النوافذ بإحكام، ليعود إلى مكانه مشدود الأعصاب، وبملامح غريبة سأل شيرفين:

- لماذا أنت هنا يا بُني؟ هذه المدينة خطرٌ عليك.

- عمي ماهان، أنا أتذكرك جيدًا، آسف على نكراني في بادئ الأمر، لكنني ظننتك لا تعرف.

لم أفهم شيئًا، كأنما يتحدثان بلغة غريبة عني، شعرت أنني تائهة وأردت المغادرة، لكن يد شيرفين ملتحمة بيدي بقوة.

- كيف لي ألا أعرف يا بني؟ نحن كنا معًا، قل لي هل ما يجول في خاطري صحيح؟

- نعم، لقد قُتل والدي على يد أحد كلاب الناجد والعرفان.

شعرتُ بدوارٍ وكأن الحجرة تدور بي وحدي، أظن أن تفسير منام الغرق في الدم الذي روادني ليلة أمس يحدث الآن.

- إذًا، أنت هنا للانتقام؟

- نعم.

بدأ العجوز ماهان يتنفس بصعوبة، وقال لشيرفين بنبرة تَرَجُّ:

- أرجوك يا بُني، انس ما حدث، وعش أيامك براحةٍ وسكينة، بالتأكيد والدك لم يَكُن ليرغب أن تفني عمرك وشبابك في سبيل انتقام قد يقضي عليك، أرجوك.. إن التورط مع هؤلاء سوف يكلفك الكثير.

- لا تقلق يا عمي أنا متعقل، لن أسرد لك أي تفاصيل كي لا أؤرطك معي، يكفي أنني ورطتُ شيرو.

والتفت إليّ بنظرةٍ مليئةً بالحب والندم معًا، همستُ له دون تردد، وقبل أن أعرف أي شيء:

- أنا معك.

وارتسمت على وجهه ابتسامة ذابلة.

بعد حديثٍ مليءٍ بالدموع والذكريات، خرجنا من تلك الحجرة، كان العم ماهان لا يزال ينتحب، وقبل أن نصل إلى الرواق الذي يؤدي إلى

المتجر قال لنا:

- انتظرا قليلاً من فضلكما، قلّت لي يا شيرفين إن اسمها شيرو!
مصادفة جميلة، الاسمان يبدآن بذات الحرف الأول.

عانقني شيرفين مبتسماً، وقال:

- معنى اسمي أحمر أيضاً، واسمها يعني الأبيض في إحدى اللغات.
أخذ العم ماهان الصندوق الذي لفت انتباهي سابقاً عن الرف، وقال:
- إنه مصنوعٌ من خشب الزان، ومُغلفٌ من الداخل بجلد أفعى.
قدّمه لي، وأكمل:

- يا ابنتي حافظي على جميع أسراركما داخل هذا الصندوق، ولا
تسمحا لأحدٍ أن يُشارككما في سعادتكما، حافظي على سعادتكما لكما
وحدكما، إن هذا الصندوق يتجاوز عمره المئتي عام، صُنِعَ على يد حربيّ
شاب أهداه لحبيبته؛ لكي تحفظ به جميع لحظاتهم الجميلة والدافئة.
نظرتُ للصندوق بذهول، فقد سحرني تصميمه ورائحته، وقلت للعم
ماهان:

- شكراً لك يا عمي إنه جميل جداً، إنه المكان الأنسب لتخبئة سعادتنا
وذكرياتنا فيه.

نظر إليّ شيرفين، وقال:

- صدقيني، لن يتسع هذا الصندوق لذكرياتنا.
ابتسم بحزن وأرخى قبضته قليلاً، شكر العم وهممنا بالخروج، لكن
العم ماهان قال لشيرفين:

- لن أسألك عن أي تفاصيل، فليست لي الجلادة على تحمل هذا الأمر
الذي يحمل في طياته رائحة موت صديق عزيز عليّ، ولن أسألك ماذا تنوي
أن تفعل؛ لأنني بالطبع لن أوافقك الرأي، لكن تذكر إن احتجت لأبي

مساعدة، فأنا هنا.

انحنى شيرفين، وقبّل رأس العجوز، بعد أن شكره، ثم غادرنا.

الفصل الثالث

"أدركنا منذ زمنٍ طويلٍ أنه لم يعد بالإمكان قَلْبَ هذا العالم، ولا تغييره إلى الأفضل، ولا إيقاف جريانه البائس إلى الأمام، لم يَكُنْ ثمة سوى مقاومة وحيدة ممكنة؛ ألا نأخذه على محمل الجدّ".

- ميلان كونديرا، كاتب تشيكي فرنسي.

الغرق

قبل عشرين عامًا، وفي يوم ولادتي بالتحديد، حظي أبي بعرض عملٍ جديد، فقد كان عاطلاً عن العمل منذ أشهر، كان العرض ينصّ على أن يعمل بمنصب ملاح لسفينةٍ تجارية تنقل أعشابٍ طبية لعزّاف مدينتكم السيد سام، وحسب طلب الناجد بنفسه، فقد تمّ تجهيزُ سفينةٍ كبيرة حديثة لهذه التجارة تحديداً؛ لضمان سلامة هذه البضائع الحساسة، حيث يجب حفظها ونقلها بظروف مدروسة جيداً، وكان الأجر المعروض على أبي مغرياً جداً، وقد ازداد سعادةً بقدمي بعد ثلاث بنات.

بدأ أبي العمل بحماسةٍ وشغفٍ كمُساعدٍ لقبطان طاعن في السن، لكن بعد عامٍ تقريباً قاده فضوله الذي ورثته عنه، أن يُلقي نظرةً على البضائع التي يتم نقلها في هذه السفينة؛ حيث تُعامل معاملة خاصة جداً، وفي تلك اللحظة تغيرت حياة أبي وعائلتي للأبد.

بعد تفقّده للبضائع اكتشف أن عزّافكم القدير تحت إشراف نأجدمك المُبجّل يستورد مرگباتٍ طبية مخدرة وأعشابٍ خطيرة، وليست أشياء مباركة، أو أي شيءٍ من هذا الهراء الذي يعيش في أذهان أهالي هذه المدينة.

يُستخدم القليل من هذه العقاقير للعلاج والطبابة، لكن الكثير منها يُستخدم لأغراض شيطانية، وأثار استغراب أبي طلبكم المتكرر لنفس الكمية الكبيرة شهرياً، بينما مدينتكم لا تمتلك من الأساس طبيباً ولا مستشفى ولا جامعات تُدرّس الطب بشكلٍ علمي، لديكم العزّاف الدجال

فقط.

أبي لم يكن مغفلاً، وعلم أن الأجر الذي يتقاضاه يزيد عن أجر أيّ ملاحٍ آخر في الميناء بأضعافٍ مضاعفة؛ ليبقى صامتاً إن كُشف سرهم.

طلب أبي مقابلة العرّاف والنّاجد بشكلٍ شخصي من إدارة الميناء؛ بحجة أنه وجد اختلاساً في الدفعات المستلمة، وعندما جاء يوم المقابلة كان هادئاً جدّاً، وأخرج كيساً صغيراً فيه عينة من المواد التي يُشرف على توصيلها لميناء مدينتكم، وتحدّث بلامبالاة أمامهما، فهو لا يأبه بماذا يستعملان هذه المواد، أو ما غايتها منها، ولماذا يتم شحن هذه الكميات الكبيرة بشكلٍ دوري للمدينة، إن أبي لن يُفشي سرهما لأحد، إنما هدفه فقط أن يُصبح هو قبطان السفينة مع زيادة في الأجر.

هدده النّاجد بالقتل إن لم يصمت، لكن أبي اختلق كذبة في لحظتها، وقلب الوضع لمصلحته، عندما قال لهم:

- سوف أُسقطُ النّقاب عن وجهيكما الغادرين، إن لم تدعنا لمطلبي البسيط، فقد أخفيتُ وثائق جميع الشحنات لغاية يومنا هذا، وعينته من هذه البضائع عند صديق لي في المدينة الشمالية، وطلبتُ منه أن يذهب لميناء مدينته، ويفضح أمركما إن لم يرني غداً قبطاناً على السفينة.

زَمَّ العرّاف شفّتيه، وقال:

- ما الضمانات التي سوف تقدّمها لنا؛ لنثق بك؟

قال أبي:

- الخوف، الخوف على نفسي وعائلتي وزوجتي، أعلم أنكما قادران على قتلي في أي وقت، لكنني بالفعل لا أبالي بأي شيءٍ تفعلانه، إن كان أخلاقياً أم لا، أريد المال لأحسّن وضع معيشتي.

أقيل القبطان العجوز؛ ليتمّ تعيين أبي بدلاً عنه قبطاناً، وضوع أجره خمس مرات عن سابقه، متعهّداً ألا يدخل مدينتكم، وألا يُكوّن أي

علاقات مع سكانها، باستثناء منطقة عمله في الميناء.

وافق أبي وباشر عمله، ليُصبح شريكًا معهما بتجارتهما الآثمة، لكن بمقام رفيع المستوى، فذاع صيته، وأصبح له نفوذ كبير في الميناء وبين التجار، واستغل هذه العلاقات لاحقًا لتحسين ظروف معيشتنا.

عندما أكملتُ عامي العاشر والتقيتُ بكِ -في المرة الثانية عندما شاهدنا العرّاف- ذهب الأخير لأبي مذكرًا إياه بتعهداته السابقة، التي يجب أن تُطبّق أيضًا على سائر أفراد عائلته؛ لذلك اخفيتُ كل تلك المدة، أنا لم أكنُ أفهم أيَّ شيءٍ في البداية، لكن بعد عدة شهور، تكرر موقف أبي مع العم ماهان الذي كان ملاحًا وصديق أبي، رأى ماهان البضائع على حقيقتها، فأخبر أبي ظنًا منه أنه لا يعلم، لكنه فوجئ بموقف أبي، ونعته بالانتهازي ومساعد الشيطان، لكن بعد أن هدأ العم ماهان، تفهّم موقف أبي الذي قصّ عليه كل تفاصيل القصة، وأكّد لأبي أن الأمر لا يعنيه أيضًا، لكن ما دار من حديثٍ بينهما في ذلك المساء قد تناهى إلى مسامعي، لمحني العم ماهان في لحظةٍ تنصّتي عليهما، فغضب بجنون ودبّ الخوف في أوصاله، رغم أن أبي قد أكّد له أنني لن أفشي ما سمعته لأحد، لكن الملاح كان أجبن من تحمّل هذا الضغط والتوتر، فقدّم استقالته؛ ليعيش حياة هادئة.

قبل عام، بُلغَ أبي من أحد أبناء الناجد الأمانة أن هناك فردًا من طاقم السفينة، وشى بأبي أمام الناجد والعرّاف؛ حيث أخبرهما أن القبطان دياز قد أفشى سرّكما لشخصين، لم يذكر له اسميهما، لكن أبي ظنّ أنه يعينني أنا والعم ماهان.

عاش أيامًا صعبة، وقال لي مرارًا وتكرارًا، مهما حدث لي، عليك مواصلة العيش دون الرجوع للماضي.

في أحد الأيام عندما كنا نوصل بضائع إلى المدينة الشمالية، هاجم أبي رجلٌ مُلثم في قمرة التخزين، وقتله بعدة طعنات في ظهره، لم يدّر أنني

كنت هناك ورأيتُ كل ما حدث، لكنني لم أقوَ على الحراك، اختبأتُ خلف صناديق البضائع، ذلك المثلث كان أحد أبناء الناجد الأمناء، فقد ظهر لي طرفٌ من بزته الزرقاء المميزة، فزعتُ أشد الفزع ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل، انتظرتُ حتى غادر ذلك المثلث، كانت دموعي تنهمر من عيني كالشلال، جثوثٌ بالقرب من جثة أبي، كانت الدماء تُشكّلُ بركةً تحت جسده، وأنا عاجزٌ تمامًا، والخوف يدبُّ في أوصالي، انتزعتُ من يده هذه الأساور التي يرتديها دائمًا، وهربتُ من السفينة عبر الجبال إلى مدينتنا، وصلتُ بعد خمسة أيام مسير بين الجبال والوديان، وكان نبأ وفاة أبي قد وصل قبلي، فقد قيل لعائلتي أنه مات غرقًا، يا للسخرية... قبطان يموت غرقًا، وتكريماً له سوف يُدفن بالقرب من الميناء بكامل زيه الرسمي وأوسمته.

أخذ نفساً عميقاً عندما أنهى كلامه، وابتسم بمرارة وقال لي:

- والآن، أما زال عهدُ الدم بيننا قائماً؟

كنتُ غارقةً في بحرِ أفكاري، أمسكتُ يده متمسّسةً الأساور التي تحيط معصمه بحزن، وقلت له:

- كما قال العم ماهان، علينا تخبئة سعادتنا داخل هذا الصندوق، لكن علينا اقتسام الجراح والآلام والأقدار.

احتضنني بشدة وهمس في أذني:

- أحبِّك يا شيرو.

بنفس لفظه الأحمق الذي بتُّ أعشقه، فشعرتُ أن جسدي قد ارتجف تحت سطوته، دفنتُ رأسي بين أكتافه:

- أنا أحبِّك أيضاً يا شيرفين، لقد كذبتُ على أبي وأخفيتُ عنه لقاءاتنا لأجل هذه المشاعر التي بداخلي.

بعد أن قصَّ عليّ الحكاية كاملة، لم أعد أرى موقف أبي غريباً

برفضه وجود شيرفين بتلك الحدة التي واجهني بها، وسألته إن كان هناك أي خطر محقق به الآن؟

- لا تقلقي، أنا لستُ في خطرٍ لغاية هذه اللحظة، فحكومتكم الموقرة تعلم بوجودي هنا وبنشاطي التجاري الذي افتعلته؛ لأعطي على السبب الحقيقي لوجودي هنا.

- كيف تأمن طرفهم، وقد أخبرتني الآن أن والدك قد قُتل؛ لأنهم عرفوا أنه قد أفشى سرهم لك وللسيد ماهان؟

- نعم كنت خائفاً مثلك عندما دخلت المدينة، لكن تعاملهم الطبيعي معي، جعلني أشك أن ما قاله المخبر في ذاك اليوم غير صحيح، وأكّد شكوكي أكثر بقاء ماهان على قيد الحياة، فإن كانوا يقصدوننا بروايتهم تلك، كان من السهل جداً عليهم التخلص منا، وبالأخص من العم ماهان.

- أنت محقٌّ، ما الاحتمالات المرجحة؟

وقف وراح يذرع الحجرة زهاباً وإياباً بحيرة أمام ناظري، ثم قال:

- هناك احتمالان، إما أنهم قد دبّروا التهمة فقط للتخلص من أبي، ما يعني أن ذكر الشخصين كان محض صدفة لا أكثر، أو أنه أبي بالفعل قد أخبر شخصين غيرنا.

- وأنت أيّ خيارٍ ترجح؟

- الأول، نعم الكذب ثم الكذب، أسلوبهم المعتاد.

- إذاً لماذا احتدّ أبي عندما ذكرتُ اسمك؟

- أظن أنه قد هُدد أيضاً يا عزيزتي بوجود عدم لقائنا أو الاقتراب مني كما فعلوا مع أبي.

اقتربتُ منه وقبضتُ على ياقة قميصه:

- لكن انظر.. ها قد التقينا بأخطر شكلٍ ممكن.

ضحك وقال:

- نعم، ثورة وحب.

تحسستُ الصندوق الذي قدمه لي العم ماهان، بالفعل لن يسع حجم
ذكرياتنا كما قال شيرفين.

في ذلك اليوم، في شقة شيرفين المُطلّة على الميتم بالقرب من متجر العم
ماهان، أغرقني بحبّه على سريرهِ طيلة الليل، كم تمنيتُ حينذاك أن أحفظ
رائحته الجميلة، وتلك الليلة في ذاكرتي أبد الدهر؛ لأعود إليها كلما داهمني
الخوف والجزع.

الذنب

عدتُ محملةً بعطري ممزوجةً بعطره، شاعرةً بطعم حلاوة في فمي،
أتراقص على وقع ضحكاته في رأسي، وأحمل همومه في قلبي، وبسبب تأثير
الحب الذي سكبته في قلبي راودني شعور أن شوارع مدينتنا المهملة
والمليئة بالأوساخ قد تلونت، فقد بدت لي أنها مليئة بالزهور، خالية تمامًا
من القذارة والمخلفات، عند دخولي إلى المنزل عدتُ إلى أرض الواقع، على
الفور سألتني أمي بوجه متكرر:

- هل سمعتِ ماذا أعلنوا اليوم؟ بشأنِ خطابِ الناقدِ غدًا.

- أجل يا أمي، سوف أذهب غدًا إلى الساحة لسماع الخطاب.

- أنا قلقة، أتمنى أن يكون هناك تغييرًا بشأنِ قانونِ زواجِ أبناءِ
الناقدِ الأمناء، فهذا قد يُخفف من حسرتي في حال بقي أخوكِ مصرًا على
رأيه.

- أتمنى ذلك، سوف أخلد للنوم الآن، فقد كان يومًا طويلًا، وأنا
متعبة.

دخلتُ إلى حجرتي، تأملتُها جيدًا بجدرانها الخالية وأرضيتها
الباهتة، شعرتُ لأول مرةٍ أنها موحشة، جلستُ إلى مكتبي وتحسستُ أثرًا
تركه شيرفين على كتفي، ودوّنتُ هذه الكلمات:

أُتيت،

أنرت دربي،

أضفت حياةً على حياة،

شيدت روحًا على أنقاضٍ وأطلال... روحًا هائمة

أمسيت عزيزَ قلبي وشققتَ مسارًا في شراييني

لا يمرُّ به إلا كل من آمن بمعجزة وجودك."

بدأ الندم والخوف يتسلل إليّ لاتخاذني قرار مساعدة شيرفين بمخططة الانتقامي الذي ما زلتُ لا أعرفه لغاية الآن، وقد يكون هو أيضًا لا يعرفه، فقط ينتظر فرصةً مناسبة، أما أنا فليس لي دافع للانتقام من أحد، وحتى بعد أن كشفتُ أكاذيبهم، وشعرتُ أنه قد عُدر بي وبشعبنا، لم يكن ذلك دافعًا كافيًا لدخول هذه الحرب، لكن أشعر أن لي جذورًا خفية ترتبط بجذور شيرفين وتشدني إليه بكل قوة، لا أنكر خوفي على نفسي وعلى عائلتي وعليه، لكن شيرفين سوف ينفذ ما جاء من أجله، إن وافقتُ على مساعدته أم لا، لقد تورطتُ بحبه قبل تورطي بخطة انتقامه، لقد فات الآوان على التراجع، فأنا لستُ ماهان.

صباحًا قبل الساعة العاشرة بقليل، تجمّع عدد غفير من الناس في الساحة بانتظار الناجِد صاحب المقام العالي، وصلتُ برفقةٍ والدايَّ إلى ساحة المدينة دون أخي مافروس، هذا ما أثار شكوك والدي أكثر، فلم يعدتُ أخي على التغيّب عن أي خطابٍ للناجِد.

حاولتُ البحث عن شيرفين دون لفت انتباه أحد، فأنا لا أعلم إن كان أبي قادرًا على التعرف عليه بعد كل هذه السنين، فهو لم يتغير كثيرًا، هناك احتمال كبير أن يعرفه إذا لمح بالثياب الملونة المبهرجة التي يرتديها دومًا، فقد تتعقد الأمور أكثر، واضطرُّ لمواجهة غضبه، لكن أبي كان شارداً الذهن، وينظر إلى أمي بحزن.

رأيتُه، إنه يظن أنه يُخفي نفسه هكذا بارتدائه النظارة ذات العدسات الحمراء والمعطف الطويل بلون الرمال المزخرف بلون أحمر

قاتم، على أيِّ حالٍ كان شعره الكستنائي الأشعث كفيلاً ليلفت الانتباه، لا أعلم إن رأني وتعمد أن يتجاهلني، أم لم يرني من الأساس، لكنني حذرتة ليلة أمس ألا يقترب مني اليوم، وأنا برفقة عائلتي.

جاء عدد من أبناء الناجد الأمناء الذين شكّلوا ممراً من حوائط بشرية؛ ليُمَرَّ من خلاله كبيرهم الناجد العظيم، ويعتلي منصة محكمة الشعب التي جُهّزت له.

وقف بكامل جلالته ولباسه الأبيض الناصع الذي يجرّه على الأرض دون أن يتسخ، لقد ظهرت علامات التقدم في العمر على وجهه جليّة واضحة أكثر مما سبق، ولاحظت أنه يستعين بعضا يتوكأ عليها أثناء مسيره.

رحبّ بالجميع بأطيب الكلمات والتحيات، ثم طلب من الحشد الهدوء؛ لأنه متوعك قليلاً، وعلى الرغم من مرضه أصرّ على أن يخرج إلينا لإيمانه بأهمية مشاركة الشعب في صنع القرار مع السلطة، أراهن أن شيرفين قد ضحك الآن، استرسل الناجد بكلامه بعد المقدمة المحشوة بكلمات الحب والمديح لشعبه:

"يا أبنائي ويا أهلي، مجموعة من أبنائي الأعزاء قررت الانضمام إلى كتائب حفظ الأمن والاستقرار على الحدود الشمالية، وأنا لا أستطيع رفض طلبهم هذا، فأنا أقدر عمق انتمائهم إلى هذه الأرض المكرمة وولائهم لشعبها المعطاء، لذلك سوف يرحلون اليوم، إنني أتمنى لهم النجاح والتوفيق في مهامهم ومسؤولياتهم الجديدة، لذلك قد جمعتمكم لأعلن لكم أن بعد رحيل هذه المجموعة من أبنائي، سأحتاج بعض المتطوعين بدلاً من ذهبوا، فمن يرغب بالتطوع، يمكنه ذلك في غضون الأيام العشرة القادمة ابتداءً من اليوم، وبعدها كما جرت العادة سوف أختار منهم من هو كفاءٌ لذلك".

ختم خطابه بكلامٍ معسولٍ آخر، رأيتُ أمي تنتحب وتقول لأبي:

- مافروس سوف يستغل هذه الفرصة بالتأكد يا عزيزي.

غادر الناجد وأتباعه، كما عاد أبي للميناء، وأمي ذهبت مكسورة النفس للمنزل، حاولتُ التواري عن الأنظار؛ لآتتبع شيرفين، دخلنا في ممر ضيق بين الأحياء، اقترب مني وقال لي بصوتٍ يكاد مسموع:
- علينا الذهاب إلى درب السلام.

لم أفهم بما يُفكر شيرفين، تبعته حتى وصلنا إلى الحي الذي يقطن به وكان يعجّ بالتجار، تظاهرتُ أنني ذاهبةٌ إلى متجر الذكريات، رحب بي بحرارة العم ماهان، وسألني:

- أين شيرفين؟

جاء شيرفين من خلفي على عجلٍ، وألقى التحية على العم، التفت إليّ:
- لماذا توقفت هنا؟ علينا الإسراع، لا نملك الكثير من الوقت.

- أريد التحدث معك.

- شيرو، لا يمكننا إضاعة هذه الفرصة!
اقتربتُ منه وقلت له:

- فقط اشرح لي ماذا يدور في رأسك، وسوف أتبعك.

- علينا الذهاب إلى درب السلام، إنه يكذب، لا أحد يريد الذهاب للحدود؛ بل هو من يريد أن يرسلهم شمالاً، ولا سبيل آخر إلا من خلال ذلك الدرب اللعين.

- حسناً، لقد فهمت ما ترمي إليه، لكن أرجوك، اذهب، بدّل ثيابك، وارْتدِ شيئاً لا يلفت أنظار وانتباه الجميع إلينا.

- لا وقت لديّ لتبديل ثيابي!

قالها بصوتٍ مسموع جعل العم ماهان ينهض عن كرسيه، قال
لشيرفين:

- اتبعني.

بعد دقائق خرج شيرفين يرتدي معطفًا أسود اللون ذا ياقة عالية تخفي رقبته، وسرّح شعره بعناية، فقلت:

- هكذا أفضل.

ضحك وقال:

- أبدو كالمنجمين، على العموم شكرًا لك يا عمي، وأرجو أن تحتفظ بأغراضي ريثما نعود.

خرجتُ أنا أولاً، وتبعني شيرفين بعد لحظات حتى وصلنا إلى بداية طريق الغابة المنعزل، ومشينا جنبًا إلى جنب.

بدا عليه التوتر قبل أن نصل إلى درب السلام، أمسكتُ يده وقلت له:

- استرخِ قليلًا.

- أنا متيقنٌ أن ما قاله كذبة أو تغطية لشيءٍ ما يتم تحضيره، بالتأكيد درب السلام له علاقة بما قد يحدث، لكنني لست متأكدًا من أنهم سوف ينفذون خطتهم اليوم، أم في وقت آخر.

- ماذا تعني؟ ماذا سنفعل لو لم يحدث شيء اليوم؟

- سوف أحيّم على مقربةٍ من المكان للمراقبة، سأبقى متربصًا لأيّ حركةٍ قد تحدث مثل فرقة الكشافة، وستُحضرين لي الطعام.

غمزني، ثم أكمل قائلاً:

- لكن أرجوك، بدون فطيرة التفاح؛ لأن رائحتها قد تفضح مكاني.

- شيرفين، لا أفهم كيف لك القدرة على المزاح بينما نحن في مصيبة.

- ليست هناك مصيبة ولا شيء، أنا الطرف الأقوى، أعني نحن

الطرف الأقوى.

وقبّلني.

وصلنا إلى ذلك المكان الذي يشرب دماء أبناء وطننا والأوطان الأخرى،
كان مدخلُ الدرب مزيئاً بالورود والأشجار المثمرة، وهناك حارسان
يتسكعان حول المدخل.

- جميل، اسم؟ على مُسمّى، أهذا درب السلام؟

- نعم، انظر كيف يمتد إلى عمق الغابة، وصولاً إلى الحدود الشمالية.

- لقد قلت لي من قبل أنه لا أحد عاد من هذا الدرب، أليس كذلك؟

- أجل، لم أشهد في حياتي عودة أحد، جارنا المسنّ قال لي من تراه
يعود بعد أن يجد السلام في آخر الدرب!؟

- حبيبتي، في بعض الأحيان، السلام يعني الموت.

اخترنا مكاناً يطل على الدرب من علّ، وتوارينا خلف الحشائش
وأغصان الأشجار الباسقة، نزع المعطف الأسود ووضعه على الأرض
وجلسنا عليه، ضحك وقال:

- إنني أعتذر أشد الاعتذار للسيد ماهان عن تلويثي لمعطفه الجميل
هذا، بالتأكيد سوف يستشيط غضباً إن رأنا الآن.

- لا بأس، يُمكنني تنظيفه قبل إعادته له.

مازحته وقلت له:

- إن سمحت لي باستخدام شقتك.

لم يضحك شيرفين كما توقعتُ؛ بل رأيت نظرةً زعرٍ على وجهه،
التفتُ باتجاه نظراته، وإذ بالنّاجد وأربعة من أبنائه في عربته الجميلة،
ومن خلفهم تتبعهم عربية مكشوفة تحمل عشرة أفراد من أبناء النّاجد
الأمناء مُقيدين، عليهم علامات تعذيب وندوب ودماء، لكن رؤوسهم
مغطاة، كانت وجهتهم نحو الدرب، كتمت أنفاسي، وأمسكتُ بيد شيرفين

المرتجفة.

كان توقع شيرفين صحيحًا، فلا أحد يريد الانضمام إلى كتاب الحدود؛ بل وراء الأكمة ما وراءها.

وصلت المجموعة أمام مدخل الدرب، أمر النَّاجِد حراس الدرب بشيءٍ ما، اختفوا من المكان بسرعة البرق، سائق العربة ترَجَّل، وأنزل الأفراد المقيدون بسلاسل وثياب مهترئة ممزقة، وركعوا أمام النَّاجِد.

دار بينهم حديثٌ ما، أو هذا ما خُيِّلَ لنا، بعد ذلك جاء أحد أبناء النَّاجِد الأربعة وركع أمامه وبدا وكأنه يتوسل إليه، لكن أحد زملائه ضربه بقدمه حتى سقط أرضًا بلا حراك، اقترب أحد الأبناء من النَّاجِد الذي همس بأذنه شيئًا لم نسمعه، لكننا رأينا وشهدنا عليه، نحر المجموعة كاملة، واحدًا تلو الآخر بخنجر.

تشرَّبت الأرض الدماء الحمراء كما عهدت على مرَّ الزمان، مشهد يعود بي إلى قصة الكتيبة ذات الدماء البيضاء، فإن كانت صحيحة، فإن أرضنا قد تشرَّبت جميع أطياف الدماء، وبقيت خضراء مزهرة، ونحن نعيش على أطلال جرائمنا.

نُقِلت الجثث إلى العربة، وقادها السائق إلى مدخل الدرب وتَوغل في الغابة حتى توارى عن أنظارنا، دار حديثٌ بين النَّاجِد وبقية أبنائه الثلاثة، كانوا يشيرون إلى الشخص الذي سقط أرضًا، وبعد برهة رحل النَّاجِد مع اثنين من أبنائه بعربته الجميلة، وبقِيَ فردٌ واحد عدة دقائق واقفًا مع الجريح المُدمى على الأرض، بعد قليلٍ أمسك الضحية من ياقية قميصه، وجرَّه خلفه ببطء إلى داخل درب السلام، نظر إليَّ شيرفين وقال:

- أجزمُ أنه لم يمُت.

وقد همَّ بالحركة، أمسكته وقلت له بصوتٍ مبجوح:

- لا، أرجوك لا تذهب.

أمسك يدي ونظر إليّ مطولاً، لكن قبل أن ينطق خرج ذلك الرجل من دون ضحيته، مسرعاً الخُطى نحو طريق المدينة المنحدر.
- شيرو.. هياً، إنها فرصتنا، علينا تفقد ذلك الجريح.
- شيرفين.. أنا خائفة.

لكنه مضى إلى الأسفل بسرعة، أخذتُ المعطف، فلا يجب ترك أيّ دليلٍ على وجودنا هنا، وذهبتُ خلفه بقلبيّ مفجوع.

ولج المدخل لاهتأً، وبدأت الأفكار السوداء تراودني، ماذا لو عاد الحراس؟ أو جاءت تلك العربة من الداخل؟ بقيتُ متسمّرةً في مكاني خائفةً، سمعتُ صوته ينادي باسمي من الداخل، مشيتُ خطوات سريعة، ومن شدةِ خوفيّ ذلك الوقت لا أكاد أذكر شيئاً عن تفاصيل المكان.

رأيتُ شيرفين راكعاً أمام ذلك الرجل الذي ضُربَ منذ قليل، قال لي بهدوء:
- ما زال على قيد الحياة، سوف نأخذه معنا.

وقبل أن أعترض، حمله على كتفيه، وانطلق أمامي راكضاً رغم وزنه الثقيل، أظن أن خوفه وقلقه دفعه للإسراع.

نزلنا باتجاه الطريق المنحدر الذي يؤدي إلى الميناء الشمالي؛ لأن الصعود إلى الجبل مع هذا الحمل سوف يكون مستحيلاً، كنتُ خلف شيرفين أحاول إخفاءً أيّ آثار للدماءِ النازفة من الرجل، عبر تغطيتها برمالٍ أرضنا المباركة، وممسكةً قلبي بيدي.

دليل

وصلنا إلى بقعةٍ خاليةٍ مهجورة تبعد عن الميناء الشمالي بضعة أمتار، قال لي شيرفين أنه كان يتردد إلى هنا أثناء زيارات أبيه للميناء؛ لإلقاء مخلفات البضائع والصناديق، فهذه المنطقة تقع ضمن خط فاصل بين حدود مدينتنا والمدينة الشمالية.

كان المكان يعجّ بالأخشاب التالفة والأوراق القديمة والأعشاب السامة، لكنه خالٍ من أعين النّاجد وأبنائه، وضع شيرفين الرجل على الأرض وسقط بجانبه، يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة.

ركعتُ بجانبه، والخوف يطفح من نظراتي، كان يتصبّب عرقاً، قلبه ينبض بشدة شعرتُ بنبضاته عندما جذبني إلى صدره وعانقني قائلاً:

- لا بأس، هذا جيد، أفضل مما توقعت.

نهض بهدوء، ووضع يده أسفل رقبة الضحية، وضغط.

- إنه حيٌّ، لم أفهم الذي حصل، هل ظنوا أنه فارق الحياة؟ أم تركوه ينزف وحيداً؟ هل سيعودون لتفقّد جثته؟

تملّكني الرعب من آخر احتمال قاله، فإذا صحّ الأمر وعادوا لتفقده، فربما يجدون أثراً ما يقودهم إلينا، قلت له مرتجفة:

- علينا إخفاؤه والهرب من هنا بأسرع وقتٍ ممكن.

- اعطيني معطف العم ماهان..

ثم خلع بزة الجريح بحذرٍ، ووضع كومة الملابس بجانبه، وقال لي:

- علينا حرقها.

بدأ يبحث عن أي شيء يُمكنه من إشعال نارٍ، فلم يجد شيئاً.
- شيرو، نظفي ثيابكِ قدر الإمكان، وكفكفي دموعك، وأخفي خوفكِ،
وانطلقِي إلى العم ماهان، اطلبي منه أن يُحضر عربةً، وعودا إلى هنا
بسرعة.

وقفتُ أنظف ثيابي قدر المستطاع، أردف شيرفين قائلاً:
- شيرو حبيبتِي أحضري مقصاً وقلم كحل، وأي شيء يمكنه أن
يساعدني بتغيير هيئة هذا الشخص، واجلبي بعض الملابس، وأي شيءٍ
لتضميد جراحه، وأعواد كبريت لحرق الثياب، هَاكِ مفتاح شقتي، إن
احتجتِ أي شيء، ولا تتأخري.

- لا تقلق، سوف أعود بأسرع وقتٍ يُمكن.
نزلتُ المنحدر المتجه للميناء، إنه أقرب طريق للوصول إلى متجر
الذكريات، التفتُ إلى الخلف، ورأيتُ شيرفين يبكي.

وصلتُ لاهثةً إلى العم ماهان الذي كان قلقاً، سألتني:
- شيرو يا عزيزتي، أين شيرفين؟ أشعر أن قلبي ينقبض.
جلستُ بقربه، وأجبتُه:

- شيرفين يحتاج مساعدة، يحتاج عربةً ومقصاً وبعض الثياب،
وشياًً لتضميد الجراح، وقلم كحل وأعواد كبريت.

بدا لي أن العم ماهان لم يستوعب ما قلتُ؛ لذا شرعتُ أشرح له كل
شيء، لا، ليس كل شيء، فقط قلت له:

- لقد وجدنا أحد أبناء الناجد الأمانء جريحاً، ونريد إنقاذه دون أي
جلبة.

كان مرتبگًا، فاقتربتُ منه، وأقسمتُ له أنه لن يلحق به أي أذى،

فجمع الأغراض المطلوبة، وطلب عربة من جاره بائع الفاكهة الذي قام بإفراغها من صناديق الفاكهة التالفة، وجلسُ بجانبه، واتجهنا إلى موضع شيرفين.

وصل صوت نبضات قلبي إلى العم ماهان، الذي لم يكن أقل خوفًا مني عندما رأينا شيرفين والرجل الجريح العاري.

جاء شيرفين، وقال للعم ماهان:

- لن أنسى مساعدتك هذه حتى مماتي، شكرًا لك يا عمي.

أخذتُ الملابس، وأحرقْتُها مع القليل من الأخشاب المتناثرة للتعمية وإخفاء الرائحة، وشرع شيرفين بقصّ شعر الضحية بشكلٍ عشوائي، ورمى الشعر في النار حتى يتفحم، ثم رسم له حاجبين غليظين بالكحل الأسود، وألبسه الثياب الجديدة، بعد أن ضمّد جراحه بشكلٍ مبدئيّ بقطع القماش التي جمعها العم ماهان من أغراض منزله.

لكنه بقيّ حافي القدمين، لقد نسينا إحضار حذاءٍ آخر يا شيرفين! لكن لا بأس، فهو في غيبوبة ولن يستطيع المشي، حملة شيرفين بمساعدة العم ماهان ووضعاه في العربة، والمعطف الأسود يغطي كامل جسمه.

انطلقت العربة، شيرفين في الخلف مع الرجل في غيبوبته، أنا والعم ماهان في الأمام.

احتج العم ماهان:

- لماذا تكبدنا مهمة تغيير مظهر الرجل إن كان سيُنقل بالعربة فقط؟

قال شيرفين بهدوء:

- الاحتياط واجب، ربما يستوقفنا أحد أبناء الناجد أو ما شابه.

أكملنا الطريق في صمتٍ مُطبق، وصلنا إلى الحي مساءً، وقبل أن

نصل إلى متجر الذكريات قال شيرفين:

- يكفي، لن أورطك أكثر من هذا يا عمي، فقط التف من الخلف؛
ليسهل عليّ نقله إلى شقتي دون إثارة الشبهات.
أنزل شيرفين الرجل وصعد به إلى شقته وعاد إلينا لاهئاً.

- شيرو يكفي اليوم، عودي إلى منزلك، وأنت يا عمي أشكرك جداً،
فقط نظّف العربة جيداً من أي آثار، قبل أن تُعيدها إلى صاحبها.

عدتُ إلى منزلي منكسرة، يملؤني الذعر والخوف، تمنيتُ لو أنني
أستطيع أن أتواجد برفقة شيرفين؛ ليطمئنني ويهدئ قلبي، فور وصولي
إلى المنزل واجهتُ بكاء أُمي الذي زاد من حزني وانكساري في ذلك اليوم؛
حيث علمت أن مافروس بدأ يحزم أغراضه للتقدّم بشكلٍ رسمي
للانضمام إلى أبناء النّاجد الأماناء.

دخلتُ إلى حجرته من غير استئذان، وقلتُ له بغضبٍ عارم:

- أيرضيك حال أمك يا أخي؟ هل تستمتع برؤية دموعها وبؤسها؟
لماذا لا تأبه بمشاعرنا؟ يبدو لي أنك بلا قلبٍ وبلا أحاسيس.

- أنت لا تفهمين شيئاً.

قال ذلك مافروس بحدّة.

- أنا أفهم كل شيء، وأعرف ما لا تعرفه أنت، إنك متوجّه لخطرٍ
عظيم.

لم يجب؛ بل بقيَ مُركّزاً على حزم حاجياته، كان عليّ قول شيءٍ لردعه
عن قراره.

- مافروس.. اليوم تحديداً رأيتُ شيئاً يُمكنه أن يدفعك لهجر هذه
المدينة بأكملها، وليس فقط لهجرنا.

- ماذا تعنين؟

- هل تثق بي؟

- بالتأكيد يا شيرو، لكن ما الذي جرى؟

- قبل أن أجيبك، قُل لي من كان ذاك الطفل الذي احتضنته عند
المتيم؟

برزت عروق وجهه ورقبته، أمسك كتفي بيديه المرتجفتين، وشدهما
بقوة المتني، ثم قال:

- عليك أن تحرسي تمامًا، هذا شيء لا يعينك!

- بل يعينني ويعيننا! نحن عائلتك.

- لهذا السبب أنا ذاهب؛ لأنكم عائلتي!

- مافروس حبيبي، أيمكنك مرافقتي إلى مكان ما الآن؟ أنت لديك سرٌّ
وأنا لديّ سرٌّ، سوف أريك سرّي وتبوح لي بسرّك، ثق بي أنا أريد
مصلحتك، أعلم أنك تخفي شيئاً، لكنني هنا من أجلك.

شاهد

تحت جناح الليل خرجنا أنا ومافروس، بعد أن أخبرتُ أمي أنني سوف أحاول أن أثنيه عن رأيه، ومن المحتمل أن نتأخر بالعودة إلى المنزل، بصمتٍ تامٍّ سرنا متجاورين باتجاه الشمال بينما أراقب النجوم والقمر، فلقد اعتدتُ على تأملِ النجوم، كلما سنحت لي الفرصة.

عند وصولنا إلى الحي الذي يقطن فيه شيرفين الذي تمتد على جانبيه المتاجر والأبنية السكنية، بالإضافة إلى مبنى الميتم الذي يحتل مساحة واسعة من الحي، تنحنح مافروس وقال لي:

- ماذا سنفعل في هذا المكان؟ قلت لي أنك سوف تكشفين لي عن سرِّك، لكنك لم تنطقي بكلمةٍ واحدة طوال الطريق، أهذه مكيدةٌ ما؟ أم تضييع للوقت؟

- لا، أنا ما زلتُ عند وعدي، فقط اصبر قليلاً.

التفطنا باتجاه شقة شيرفين، وصعدنا إلى الطابق الثالث، وقبل أن أطرق الباب قلت له:

- مافروس.. الآن سوف ترى شخصين، أحدهم صديق، والآخر لا أعلم من يكون.

- ما هذا الهراء الآن؟

- سوف تفهم، فقط اصبر قليلاً.

طرقتُ الباب مرارًا بهدوء؛ كي لا أفزع شيرفين، فمن المؤكد أنه قلق

وسوف يفرع إذا سمع طرقات على بابه في هذا الوقت، شعرتُ بخطواته
تقترب من الباب، فهمست له:

- أنا شيرو، افتح الباب.

فتح الباب بهدوء، وتراجع خطوتين عند رؤيته أخي، فإن هيئة
مافروس تبدو كالمحاربين، فهو طويل القامة وقوي البنية وذو منكبين
عريضين، فقلتُ له موضحةً:

- إنه أخي الصغير مافروس، فلا داعٍ للقلق.

ابتسم ابتسامة عريضة لا تنم على أن هذا الشخص ذاته قد شهد على
مقتل بعض الأفراد اليوم بدم بارد، ويخفي في منزله شخصًا جريحًا على
حافة الموت، قال بخفة:

- يبدو مُقاتلاً جسيمًا.

ظهرت المفاجأة على وجه مافروس عند رؤيته الرجل الجريح المُمدد
على الأريكة بحاجبيه الغريبيين، والدماء التي لم تجف بعد عن ثيابه.

طلبتُ من مافروس أن يسترخي ويجلس، أخذتُ شيرفين إلى المطبخ،
وبإيجاز شرحتُ له الوضع، وخوفي على أخي أن يواجه نفس مصير الموت
الذي رأيناه اليوم، وأشرتُ عليه أنه يُمكنه مساعدتنا إذا وافق على ذلك،
وذكرتُ له حادثة الطفل والميتم باختصارٍ قدر الإمكان.

- شيرو.. أقدّر خوفكِ واهتمامكِ بأخيكِ، لكن ماذا لو لم يساندنا،
وقرر فضحنا؟

- لن يفعل ذلك، ثق بي، أرجوكِ.

- وماذا عن قصة الطفل، هل قال لكِ شيئًا ما؟

- على الإطلاق؛ بل غضب بشكل رهيب عندما سألتته عن الأمر.

- حسنًا، لقد بدأ التشويق، دعينا نُكْمِل اللعبة!

ومشى متبخترًا ناحية مافروس، وجلس بجانب مافروس وبدأ يتودد له، وبالطبع بدأ حديثه بالشكل الذي يُفضّله على الدوام:

- هل تعلم يا مافروس؟ اسمك يعني اللون الأسود في إحدى اللغات، لكن هذا لا يعني أن تجعل حياتك مطابقة لمعنى اسمك، فلقد أخبرتني شيرو عن رغبتك في الانضمام إلى أبناء الناجد الأمانء، لماذا توذُّ فعل ذلك؟ أيمكنني معرفة السبب؟

أجاب مافروس باقتضاب:

- لديّ أسبابي.

- أنت مُحقّ، جميعنا لدينا أسباب لأفعالنا، حتى عندما نقترف الذنوب، لكن لا أظن أن هناك سببًا أهم من سلامة عائلتك وخوفك عليهم، أليس كذلك؟

ثار غضبًا مافروس، وقف وقال:

- أنا راحل، لا أريد معرفة أسرار أحد، فقط دعوني وشأني.

أمسك شيرفين يده، وقال بحزم:

- اجلس أيُّها الشاب الوسيم، أنت هنا في منزلي وعليك احتراممي.

ضحك بسخرية وأكمل:

- صحيحٌ أنني أصغرُ شقيقتك بعامين، لكن احتراممي واجب.

اقتربتُ من مافروس وعانقته وهمستُ له:

- أرجوك، اجلس واسمعنا.

- اسمع يا مافروس، أنا صديق شقيقتك شيرو منذ زمن، وتجمعنا عدة أشياء مشتركة تجعلني أثقُ بها، إلى درجة أنني وافقتُ على استقبالك في منزلي دون معرفةٍ مسبقة بيننا، على الرغم من الأقاويل التي قد تُنسج بحقي وتلاحقني إذا أحدهم رآني مع شاب ضخم وفتاة جميلة في هذا

الوقت المتأخر من الليل، فلن يُفسر أحدهم ذلك بنية حسنة.

وضحك مجدداً:

- لكن لا بأس، سوف أبوح لك ببعض الأشياء التي قد تضع حياتي على المحك إن قررت إفشاءها لأحد، لكنني أثق بشيرو، وأحب المغامرة أيضاً.. اسمع للنهاية واحكم، وإن لم يَرُقْ لك حديثنا، سوف أقوم بتزكيته عن طريق أحد معارفي؛ ليتم قبول انضمامك لأبناء الناجد الأمناء يوم غد على الفور، مُقابل أن تنسى ماذا سوف أقوله لك الآن.

- موافق، لكن أوجز.

نظر إليه شيرفين بحيرة وقال:

- كيف لرجلٍ عتيدٍ مثلك أن يرتدي مثل هذه السلسلة اللطيفة؟

كان مافروس يرتدي قلادةً سوداء تتدلى منها نجمة فضية جميلة جداً حصل عليها من أحد الباعة المتجولين عندما بلغ عامه العاشر؛ حيث أُعْزِمَ بها على الفور، وبسبب طبيعته الحادة لم يبدِ أي اهتمام للإجابة أو مجازاة لسخرية شيرفين، ما اضطر الأخير للكلام بجديّة.

بإيجاز وجمود ودون عواطف، شرح شيرفين لمافروس من يكون، وسبب تواجده في مدينتنا، وسرد قصة مقتل والده القبطان دياز، لكن هذه المرة لم تؤثر به ذكرى وفاة والده كما فعلت عندما ذكرها لي سابقاً، لم يذكر العم ماهان، فلا داعي لتوريثه معنا، فقد قرر الانسحاب منذ زمن بعيد، وتحدّث عن واقعة اليوم باسترسال، لكن لم تظهر علامات الدهشة على وجه أخي.

أشار شيرفين للشخص الملقى على الأريكة، وقال له:

- لا أعلم لماذا جلبته معي، لقد كنتُ مرتبگًا، ربما سوف يفيدنا، ويُشكّل ورقة ضغطٍ، أو قد يلعب دور الشاهد.

لم يقاطعه مافروس طيلة حديثه، وأصغى إليه باهتمام بالغ، وكانما الأمر يخصه بشكل شخصي، وعندما توقف شيرفين عن الكلام قال مافروس:

- يا رجل، لم أتوقع أن أجد أحدًا في هذا العالم أستطيع أن أشاركه أحزاني وهمومي.

ضحك شيرفين وقال:

- هيّا، لنتقاسمهم إذاً!

سديم

قبل عام ونصف العام، كنتُ مولعًا بشدة في كل ما يتعلق بالناجِد وأبنائه، كنتُ أطمح بجديّة؛ لأنضم لهم، وقد أُجريتُ عدّة جولات حول قصر الناجِد مرارًا وتكرارًا؛ لعل وعسى ألتقي به يومًا ما، وأثبت له شغفي به وولائي له، لكن حدث ما نسف كل هذا في لحظات.

في أحد الأيام رأيتُ فردًا من أبناء الناجِد جالسًا على الأرض في الفناء الخلفي للقصر، وبدا لي أنه يبكي، أردتُ التقرب منه لعله يفيدني في مبتغاي، وقلت له:

- كيف لأبناء الناجِد الأبناء أن يكونوا بهذا الضعف؟ أنتم قدوة لنا نحن الشبان.

نظر إليّ بحدّة لا أنساها، اعتذرتُ على الفور، لكنه نهض واقترب مني، عندها فقط عرفتُ أنها فتاة، وليست رجلاً.

ظهرت علامات الدهشة على وجه شيرفين، كما حالي.

نعم، فتاة بثياب أبناء الناجِد، تراجعتُ للخلف، وكما نعلم يستحيل انضمام الفتيات إلى هذا التنظيم الأمني.

اقتربت مني أكثر، وقالت باكية:

- أرجوك، لا تفضح أمرِي، يكفيني ما أنا به.

شعرتُ بالشفقة عليها، فقلتُ لها:

- لا بأس، لكن لماذا أنتِ هنا وبهذه الثياب؟

لن أُطيل عليكم الكلام، فقد ترددتُ إلى ذات المكان عدة مرات لمدة شهر أو شهرين، لعل المُصادفة تجمعنا مرةً أُخرى، وبالفعل التقيتُها عدة مرات، لكنها لم تبح لي بشيء، إلا بعد أن تيقنتُ أنني لن أفشي سرّها، بالإضافة إلى أنها كانت في عزلةٍ مُوحشة، وبحاجةٍ ماسّة لمن يسمعا.

علمت منها أنها تُدعى سديم* وتعيشُ كالرجال، أو بالأحرى فُرِضَ عليها أن تحيا كرجل، سديم كانت إحدى ضحايا تجارب النَّاجِدِ بالزواج لمحاولة الإنجاب، هي ابنة رجل بسيط يعمل في مخزن ملابس، لم يصدق عينيه عندما أتى إليه أحد أبناء النَّاجِدِ، وأبلغه أن النَّاجِدِ يرغب بالزواج من ابنته سديم، إذا لم يكن لديه أي مانع، ومن المجنون الذي لديه أي مانع؟! لن يُمانع بالتأكيد؛ فهو شرفٌ عظيم وخطر كبير في آنٍ واحد.

إنها تكبرني بخمسة أعوام، وعندما أصبحت زوجة للنَّاجِدِ كانت تبلغ خمسة عشر عامًا فقط؛ حيث اقترح العرَّاف عليه محاولة الزواج من فتاة صغيرة؛ لعلها قادرةٌ على الإنجاب قبل البتِّ في أمر عقمه، استمر زواجهما أربعة أعوام، وهذا كان أطول زواج للنَّاجِدِ بعد أن نصحه العرَّاف أن يتأنى؛ لأنَّ والده سديم أنجبت توعمين مرتين على التوالي.

في أحد الأيام بينما كانت تتجول في القصر الكبير، سمعت العرَّاف يشكو للنَّاجِدِ حول أمر ما، لم تفهم ما يجري بالضبط، اقتربت من الباب وأصختُ السمع، في ذاك اليوم سمعت سرًّا كبيرًا عن حقيقة درب السلام.

رأها أحد أبناء النَّاجِدِ تتنصت عليهما فوشى بها للعجوز، الذي لم يوفر اتباع أي وسيلة تعذيب ليرغمها على الاعتراف بما سمعت، لكنها بدأت تتوسل إليه أن يصفح عنها؛ فهي من المستحيل أن تبوح لأحدٍ بسرِّه، أو تخون ثقته.

*سديم: كلمة من اللغة العربية تعني السحابة الرقيقة.

كان ينوي أن يُطلقها ويُعيدها إلى أهلها، فلم يُعد يرغب بها كزوجة، فقرر إعلان وفاتها، بعدما عرفت عنه شيئاً مُشيناً خطيراً.

أُبلغت عائلة سديم أن ابنتهم قد توفيت بمرضٍ خطير، رغم جميع محاولات العرّاف لعلاجها، وأقيمت لها جنازة وهمية، وتحولت هي إلى أحد أبناء الناجد الأمناء؛ حيث تبقى بجانبه بهيئة رجل بعد أن قصت شعرها، وأخذت ندوب التعذيب مكاناً في وجهها، وارتدت ثياباً تُخفي مفاتنها، لكنها بقيت أنثى بنظر الناجد اللعين.

- مافروس، ما حقيقة درب السلام تلك؟ لقد باحت لك أليس كذلك؟

سأله شيرفين بإلحاح.

- رويدك يا شيرفين، لم أنته بعد.

- نعم، لقد باحت لي، فقد أصبحنا متاحين، لقد وقعت في شباك حبّها يا شيرو، والطفل الذي رأيته بين يديّ منذ يومين، كان فتاة، إنها ابنتنا.

انقبضت معدتي وشعرتُ برغبةٍ في التقبؤ.. يا إلهي! ماذا سيحدث لو علم والدائي بهذا الأمر؟

أكمل مافروس قائلاً:

- ذاك الناجد البغيض أبقى على حياتها، لا أعلم لماذا لم يتخلص منها كما يفعل دائماً؟ إما أنه مستمتع في استغلالها وإذلالها، أو أنه قد وقع في حبها، أنا أستبعد هذا الاحتمال العاطفي مع هكذا شيطان.

عندما عرفنا أنها حامل، حاولتُ إخراجها من هناك عدة مرات، لكنني فشلت، وبعد شهرها الرابع كُشف أمرها، لكنها أمام الجميع متوفاة، لذلك تم استدعاؤها من قبل الناجد، وبدأ التحقيق معها ونعتها بأسوأ الألفاظ والصفات حينها، أخبرته أن والد الجنين من أحد أبنائه الأمناء، هذا ما قاده للجنون، وأصرت على عدم كشف هوية شريكها، فقال لها بخبث:

- إن جاء المولود ذكرًا، سوف أرتب الأمر؛ لأعلن للجميع أنه ابني، ثم أطلق سراحك؛ لتعيشي حياةً كريمة بعيدًا عن هنا وعن أعين الجميع، وإن جاءت المولودة أنثى، سنكررين المحاولة مع عشيقك أو مع أيٍّ أحدٍ آخر حتى أحظى بمولود ذكر.

قال ذلك بكلِّ خسةٍ ودناءة.

انقبض قلبي، ضمنتُ ساقِيَّ على بعضهما بشدة، فقد تخيلتُ حجم المعاناة التي تعيش بها تلك الفتاة المسكينة، قال شيرفين:

- إذا... جاء المولود أنثى، وهي هنا تعيش في الميتم.

- نعم، هو كذلك يا شيرفين، إن هدني من الانضمام إلى هؤلاء الحثالة، هو فقط إنقاذها من مخالب ذاك العجوز، حاولتُ عدة مرات إخراجها دون الانضمام لهم، ولم أفلح، لن أسامح نفسي إذا حدث لها أيُّ مكروه، عليَّ تجربة كل الطرق الممكنة.

- أما زلتَ تقابلها؟

- نادرًا، فقد شدتُ الحراسة عليها، ذاك العجوز يعتقد أنها ستهرب أو ما شابه، وينتظر منها أن تحمل مرةً أخرى، فهو متيقنٌ أن والد الطفلة هو أحد الحراس أو العاملين بالقصر، أو من المقربين له.

غرق شيرفين بأفكاره للحظات، ونطق أخيرًا:

- ما نسبة نجاحك في اختبارات القبول؟

- شيرفين! لا أريده أن يلتحق بهم.

- ولا أنا يا شيرو، لكن مساعدتنا من داخل عرينهم سوف يكون امتيازًا كبيرًا.

قال مافروس بجديّة تامّة:

- أنا جاهز، حتى لو طلبت مني قتل ذلك العجوز وأعوانه.

البداية

غادرتُ شقة شيرفين برفقة مافروس مشدودة الأعصاب، ويعتريني خوف وشعور بالقرف في آن واحد، خلال هذا الأسبوع اكتشفت أننا نعيش في مكانٍ مُظلمٍ جدًّا عكس ما كنا نظن، ويحكمنا أناس من نسل الشيطان، كان الأسي يحتل وجه أخي الصغير، شعرتُ أنه بحاجة إلى دعمٍ ومواساة.

- مافروس.. يا عزيزي، هل أنت واثقٌ من قرارك؟
- أحببتُ شيرفين، ذاك الرجل ذكي محتال، ليتني التقيته قبل عام،
لربما كنا قد استطعنا إخراج سديم من هناك، وكانت الآن طفلاتي في أحضانني.

- ماذا أسميتها؟

- إنها بلا اسم، سوف تكمل شهرها الخامس ولا تملك اسمًا؛ لأن سياسة الميتم تمنع ذلك.

- بأيِّ حجةٍ تراها؟ ماذا تقول لموظفي الميتم؟

- لا شيء، الجميع يعرف أنني وجدتها ملقاةً أمام أحد المتاجر فقط..
شيرو، أرجوك، عديني أن تذهبي وتطلبي تبنيها في حال حدث أيُّ مكروهٍ لي، رقمها ٢٢٩٥ أتوسل إليك لا تتركها هناك، الحياة ليست جميلة في الميتم، إنها بحالة جيدة الآن؛ لأنني أتردد إلى هناك كثيرًا، وأقدم لهم مبالغ

طائلة للعناية بها، غير ذلك فإنه جحيم.

- من أين تحصل على المال؟

- سديم تتدبره بطريقةٍ ما، وأنا أوصله للميتم.

- مافروس عزيزي، لقد فكرت في الأمر مسبقاً، لِمَ لا تنسى أمر سديم وتأخذ الطفلة وتساfer؟

- لا يا شيرو لن أفعل.

وقف، واحتدّت نظراته وشرع في بكاءٍ محموم:

- لا أستطيع تركها، أنتِ لا تعرفينها، إنها ملاك، عاشت عذاباً بما يكفي لخمسة أجيال قادمة، افهمي يا شيرو، إنه يعتدي عليها ساعة يشاء، أرجوك افهمي مشاعري، أنا مكسور القلب، كان ذلك العجوز اللعين يعتدي عليها بشكلٍ متكرر، ومع تقدمه في العمر بدأ يضعف، لكنه هدهدا أن يسلط عليها من هو قادر على ذلك، إنني أحترق من الداخل.

لم أكن أتخيل حجم الألم الذي يحمله أخي ذو التسعة عشر عاماً في قلبه الصغير، احتضنته وهمست له:

- لا تقلق يا حبيبي، سوف يسير كل شيء على ما يرام.

- أتمنى ذلك، هيأ استعدي، فقد اقتربنا من المنزل، يتعين عليك إخبار والداي أنك لم تفلحي في تغيير رأيي.

- أجل، يتعين عليّ فعل ذلك، بالرغم من خوفي على قلب والدتنا من وقع هذا الخبر، لكن يجب علينا الالتزام بالخطة التي وضعها شيرفين.

قبل ساعتين من الآن، وبعد أن أنصت شيرفين لقصة أخي، طلب منه البوح بكل ما يعرفه عن حقيقة أمر درب السلام، كان كلامه غامضاً وناقصاً؛ حيث قال:

- إن سديم قد سمعت من العرّاف أن في ذلك الدرب الذي ينتهي

بحدود مشتركة بيننا وبين المدينة الشمالية، توجد مناجم فحم تحتاج لعمال كثر، وفي ظلّ اتفاقية سرية بين المدينتين، يقوم الناجد والعرّاف المتواطئان معاً بكلّ ندالة بإجبار سكان مدينتنا على العمل في هذه المناجم كالعبيد مقابل أرباح متفق عليها سابقاً، بعد أن يتم تجريّمهم أو اتهامهم بارتكاب ذنوبٍ لا تُغتفر.

قال شيرفين:

- توقعتُ شيئاً من هذا القبيل، لكن اليوم رأينا أنا وشيرو مجموعة جثث تُنقل إلى هناك؟ ماذا يصنعون بها؟ إنها جثث، لا تستطيع أن تعمل.
- لا أعلم، من جهتي أظن أن هناك سرّاً أكبر، لهذا ثار على سديم بهذه الطريقة الوحشية، وقام باحتجازها وتعذيبها؛ ليعرف هل سمعتُ الحقيقة كاملة أم لا.

قُلْتُ له بصوتٍ مرتجف:

- سرٌّ أكبر من الإتجار بنا؟ هذا الأمر فقط مخيف جداً.

قال شيرفين، وهو شارِد الذهن:

- سوف أستجوب صديقنا هذا عندما يصحو، إنه فقدَ دماً كثيراً، ولا أعلم متى سوف يستيقظ، لكنه بالتأكيد يعلم شيئاً ما.
- كيف ستجبره على الكلام؟

ابتسم لي بخبث وقال:

- أنا فنانٌ بذلك يا عزيزتي.. تعال يا مافروس إلى جانبي، سوف تتقدّم بطلب انتساب لأبناء الناجد الأمناء، وسأكلّم بعض وجهاء المدينة؛ ليسرّعوا إجراءات قبولك، لديّ معارف كُثر من التجار وأصحاب الشأن هنا، وعندما يتمّ قبولك ستأتي إليّ لأسلّمك بعضاً من المتعلقات الشخصية الخاصة بهذا الرجل، لقد تلقفتُها من ثيابه قبل أن نحرّقها، عندها

ستطلب مقابلة الناجد أو كبير الحرس شخصياً؛ لتُقَدِّمَ لهما تلك المتعلقات كدليل، وتزوِّدَهما بمواصفات الرجل، وتُخْبِرَهما أنك قد رأيتَه يخرج بصعوبة من ذلك الدرب برفقة شخصٍ ما، وقد حاولتَ تتبَّعَهما، لكنك أضعتهما، وعندما سقطتَ منهما تلك الأشياء، قُمْتَ بالتقاطها، مع إضافتك لبعض الكلام المعسول عن الانتماء والولاء، علينا ضمان تعيينك في قصر الناجد بموضع قريب منه ومن سديم، وبعد ستة أشهر بالتحديد، علينا إتمام مهمتنا وإخراجك مع سديم من هناك خلال احتفالات يوم السماء تحديداً؛ حيث يكون الجميع مشغولاً بالاحتفالات، بما فيهم الناجد وحراسه.

- لكن هذا خطر عظيم يا شيرفين!

- ليس هناك أيُّ حلٍّ آخر يا شيرو.

- مافروس، إن أردت إخبارنا بأيِّ شيءٍ، عليك فقط ترك رسالة عند العم ماهان في متجر الذكريات الذي يقع في نهاية الشارع، وأنا سأفعل الشيء ذاته إذا طرأ أي تغيير على الخطة، فلا أظن أن يشك أحدهم ببائع تحف عجوز.

- حسناً فهمت، الخطة واضحة، ما المطلوب مني فعله خلال هذه الأشهر عندما أصبح داخل القصر أو بالقرب منه؟

- تزويدنا بالمعلومات يا صديقي، أيُّ شيءٍ قد يُفيدنا بإدانة هذا العجوز وأعوانه، وثائق، عينات من البضائع التي يستوردونها، شهود، أيُّ شيءٍ قد ينفَع، أنا أعوّل على فطنتك يا عزيزي، أنا لا أنوي أن نلطح أيدينا بالدماء، أريد فضحهم وتجييش الشعب ضدهم، أو حتى الاستعانة بالمدن المجاورة لمحاكمتهم أو نفيهم.

كعكة البرتقال

لم تتوقف أمي عن البكاء والتوسل، كنتُ عاجزةً أمامها، تمنيتُ لو أنني أستطيع قول شيءٍ لطمانتها، لكن ليس هناك شيءٌ يُقال، ومن الأساس أنا لستُ مطمئنةٌ أيضاً، فقد بات جلياً أن القادم من الأيام لن يكون رحيماً بنا.

جلستُ إلى مكتبي ودونت:

"أهي طريق؟ أم منحدر؟

أم هي هاوية تحملني إلى السماء، أتوجد سماء بالأصل؟

أو أنه جحيم يرفعني إلى جنات النعيم؟

يُخيل لي أنني اتخذتُ منعطفاً يحترق بآمالٍ المستقبل وظلال

الماضي."

لم يراودني النوم تلك الليلة، ذهبتُ إلى حجرة أخي مافروس؛ حيث وجدته يحزم حقيبته، بعد غدٍ سوف يخضع لاختبار القبول، ولا يريد أن يمضي ليلة غدٍ في المنزل؛ تفادياً لدموع أمي قدر الإمكان، لذلك طلب من شيرفين أن يقضي ليلة الغد عنده في شقته، بالطبع شيرفين رحّب بذلك، وقال له:

- سوف أشعر بالأمان لليلةٍ واحدة على الأقل في وجودك.

انتهى الآن من حزم حاجياته، واستلقى على سريره.

- يُجافيك النوم مثلي، أليس كذلك؟

- لا، على العكس، أشعر بارتياح كبير، لقد أزلت حملاً ثقيلاً عن كاهلي اليوم، كنتُ أدوي وأتلوى ألماً تحت وطأته، لكن الآن الأمر مختلف، وحتى إن لم تنجح الخطة، على الأقل أكون قد نلتُ شرف المحاولة، وفعلتُ ما في وسعي أن أفعله، وشاركتُ سرّي مع أحدهم.

- أتفهّمك، ألسْتَ خائفاً؟ أنا بدوري خائفة جداً.

- لماذا الخوف يا شيرو؟ شيرفين لغاية هذه اللحظة لم يشركِ بأيّ شيء، ولم يُملِ عليكِ دورك في هذه اللعبة.

- أجل، أستغرب ذلك، لكنني سأكون عوناً لكما بالتأكد.

- أظن أنه مهتم لأمرِك، لا يرغب بتوريطِك.

توردت وجنتي خجلاً، مافروس وضع يده على كتفي، وأردف قائلاً:

- أنا أرى أن شيرفين فتى جيد.

عدتُ إلى حجرتي، حاولتُ تخيل جميع الاحتمالات الممكنة، فلم أجد بصيص أملٍ في آخر النفق، لا أعلم إن كان ما نفعله تهوّرًا وإلقاءً لنفوسنا في أتون التهلكة، أو هي الخطوة الأولى الصحيحة على طريق إعادة الأمور إلى نصابها القويم، لكنني قررتُ أن أقضي يوم غدٍ بشكلٍ لطيف مع مافروس وشيرفين قبل أن يغادرنا.

خرج مافروس صباحًا بعد أن ودّع والداي، وأنا بدوري ذهبتُ باكراً لجلب الماء من الساقية التي تصبّ بجانب قصر الناّجِد الذي بتُّ أراه كقلعة الأشباح بالرغم من جماله وهيبته، وجميع سكان المدينة يتزوّدون بمياه الشرب من هنا يوميًا بالقدر الكافي لهم، أما مياه التنظيف والاستحمام فهي مياه بحرٍ مُحلاة بغرض اقتصاد مخزون مياه الشرب.

اشتريتُ بعض البرتقال والخبز والدقيق الأسمر، وعُدتُ من جامعتي مساءً للمنزل، وبدأتُ بتحضير كعكة البرتقال التي يُفضّلها مافروس، وبشّرتُ أمي أنني بعد إلحاحٍ شديد وبصعوبة بالغة قد حصلتُ من

الحراس على إذنٍ لرؤية أخي اليوم مساءً، وسوف أقدمُ له الكعكة.
فرحتُ أمي جدًّا، وبدأتُ تجهِّزُ أصنافَ طعامٍ إضافيةٍ لآخذها معي،
لقد أعدتُ طبقًا من الخضار المسلوق مع اللحم بالتوابل، وطبقًا من الأرز،
وأنا انتهيت من تحضير كعكة البرتقال*، وحمّصت الخبز، وأخذت بعض
الفاكهة.

توجهتُ إلى شقة شيرفين الذي بدا سعيدًا برؤية الطعام أكثر من
رؤيتي، قال لي:

- هيّا ادخلي، لقد اكتشفتُ جانبًا فكاهيًا عند أخيك.
مائدة الطعام الفاخر التي جهّزتها كانت توحى أنها وليمة عشاء
لعشرة أشخاص، ولم أنسَ أيضًا طبق الجبن؛ ليجرّبه مافروس الذي قال
عند رؤيته للطبق في يدي:

- أه.. لقد تذوّقتِ هذا الشيء أيضًا؟
- نعم، وأعجبني كثيرًا.
- لقد تذوّقته برفقة سديم، لم يعجبني، إنه يذكّرني بذلك اللعين.
- لا بأس يا مافروس، سوف يعجبك الآن برفقتنا، إنه ممزوّجٌ
بالحب.

وضحك شيرفين.
تناولنا الطعام ببطء على وقع ضحكات شيرفين ودعاباته التي لا
تنتهي، وإشادته الكبيرة بالطعام.
نهض شيرفين يُدندنُ لحنًا، عندما كان يُحضّر لنا قهوة بالحليب،

*كعكة البرتقال: تُحضّر من الدقيق والبيض والزيت النباتي والسكر وعصير البرتقال، يمكن
إضافة بعض المكسرات لها، وتخبز في الفرن لمدة ٤٠ دقيقة.

حينئذٍ طرح على مافروس سؤالاً:

- ماذا أسميت طفلتك؟

- ليس بعد، يُمكننا تسميتها بعد أن نُخرجها من الميتم.

قال شيرفين بحماسة:

- هل تسمح لي باختيار اسم لها؟

- يمكنك رسم مسار حياتها يا صديقي إن أردت، فقط أخرجنا الآن

من هذه الورطة.

- لا تقلق، سوف نخرج منتصرين، وبجعبتنا مغامرة نقصها على

ابنتك الجميلة.. اسمع يا مافروس، عند وصولك إلى القصر اللعين عليك محاولة الوصول إلى أيِّ وثائق قد تُفيدنا في تجييش الشعب ضدهم.

- لكن شعبنا أضعف من أن يثور على وليِّ أمره يا صديقي، أنا

أعرفهم جيداً.

- سوف يثور.

- حسناً سنرى، لكن أرجوك، اعتن بشيرو أثناء غيابي، أعلم أنني لم

أكن قريباً منها بما يكفي، لكن أنت هنا الآن.

لم أُصدّق أن هذا الكلام قد صدر عن أخي مافروس، فقد أثار

مشاعري، تلك اللحظة كانت أول مرة في حياتي أشعر بحنان أخي

الصغير، أخي الذي طالما كان يُصر على إظهار نفسه بشخصية خالية من المشاعر والأحاسيس.

غادرتُ قبل منتصف الليل أحمل رسالةً إلى أمي من مافروس كتبها

شيرفين بالكثير من الحب والكلام المعسول الذي يستحيل أن يُصدّق

أدهم أن هذا كلام أخي، لكن أمي كانت سعيدة جداً، وقبّلت الرسالة

عدة مرات، في حين بدت علامات الشك على وجه أبي، لكن ما عساي أن

أفعل؟ الجميع سوف يفهم قريباً.

قبل أن أخلد للنوم تمنيتُ أن يبقى يوم السماء مُحبباً إلى قلبي، وألاً يحدث به شيءٌ يجعله ذكرى تعيسة للأبد.

الجزء الثاني



شخصيات الجزء الثاني

مولينا: رجلٌ ذو شخصيةٍ مترددةٍ متذبذبة، استغلالية، ضعيفة في آنٍ واحد، شجاعته محدودة جدًا، أو ربّما منعدمة؛ ليضمن بقاءه على قيد الحياة.

ال دراويش: شخصيات من جميع الأعمار والجنسين، أجساد هائلة تسكنها أرواح تائهة لا تدري أيّ دربٍ تسلك.

العزّاف: رجل في عقده السابع، يُظهر الطيبة والتودد تحت حجابٍ من الدهاء والمكر والحذر الشديد، شخصٌ لمّاح سريع البديهة، وصاحب قرارات حازمة.

سديم: شابة تنتمي لعائلة فقيرة، تملك عينين واسعتين خضراوين اللون، وشعرًا كستنائيًا، طيبة المعشر والخلق، ذات ابتسامةٍ دافئةٍ حزينة.

الفصل الأول

"إن القيام بخطوة جديدة أو التلطف بكلمة جديدة هو أكثر ما يخشاه الناس".

- فيودور دوستويفسكي، كاتب وفيلسوف روسي.

خنجر

إذا حلَّق طيرٌ مُغرد فوق سماء مدينتنا سوف يرى المنازل الملونة، بدايةً من الأحياء الشعبية والفقيرة وصولاً إلى أحياء الأثرياء وقصورهم، لكن لن يستطيع رؤية الظلم والحزن والكذب الذي يغطي أرضنا وأبداننا، وينخر في عقولنا، مدينتنا مثال حي لمن يبذخ على نفسه بسخاء؛ ليبدو مظهره الخارجي جميلاً جذاباً، ويُخفي هاوية مظلمة في داخله.

بعد رحيل أخي مافروس، انتظرنا أسبوعاً؛ لتصل لنا رسالة منه تُفيد أنه قد تجاوز الاختبارات، فقد كان يتردد شيرفين على متجر الذكريات أكثر من عشر مرات في اليوم؛ ليتأكد من العم ماهان إذا ما استلم أيَّ رسالةٍ أو علامة من مافروس، بعد أن أوصى به شيرفين أحد التجار الكبار الذين لهم صلة مباشرة بكبار أبناء الناجد الأمناء، في حين بقي الرجل الجريح عند شيرفين بين حالتي الوعي واللاوعي، استيقظ عدة مرات هادياً بكلمات وأسماء ليعود إلى غيبوبته، رأى شيرفين أن هذا الأمر طبيعي، واستبشر خيراً أن هذا الرجل بدأ يستعيد وعيه تدريجياً، في هذه الفترة لم يَكُن شيرفين يخرج من المنزل إلا للضرورة القصوى، وعندما يضطر إلى ذلك يقوم بربط الرجل، والتأكد من إغلاق النوافذ والأبواب بإحكام، وترك رسالة مطمئنة له على المنضدة في حال استيقظ خلال غيابه.

كنتُ ناهبةً إلى شيرفين في صباح اليوم السابع بعد رحيل مافروس، قبل أن أصل سمعت صوت العم ماهان يُناديني، أَلقيتُ التحية عليه وجلستُ بالقرب منه في متجر الذكريات، استفسر مني عن ذلك الرجل إن

استعاد وعيه أم لا، وأردف قائلاً:

- شيو يا ابنتي، أنا أشعر بالخجل من شيرفين، لا أستطيع زيارته في منزله، وهو يبعد عني خطوات قليلة، فأنا لا أريد أن أثير الشبهات حولنا، أرجوك، انقلي له كلامي هذا، أظن أنه شعر بتبردي آخر مرة رأني بها؛ حيث أبيتُ قلقي من احتمالية مراقبة مافروس أثناء تحركاته وإيصاله الرسائل له عبر متجري، لكنني ندمت، أنا معكم.

- بالتأكيد يا عمي، شيرفين يُقدّر مساندتك لنا دائماً.

وهممتُ بالنهوض، لكن العم ماهان طلب مني أن أنتظر قليلاً، ونزل إلى قبو المتجر، وبعد برهة خرج يحمل صندوقاً آخر أكبر حجماً من الذي قدّمه لي سابقاً، صندوق أسود جميل بزخارف محفورة على سطحه.

- خذي هذا الصندوق لشيرفين، فقد يحتاجه.

فتحتُ الصندوق الذي كان يضم ثلاثة خناجر مزخرفة ومرصعة بأحجار كريمة ملونة.

- ما هذا يا عمي؟ لماذا قد يحتاج إلى شيء كهذا؟

- فقط للدفاع عن النفس يا ابنتي.

- حسناً، سوف أوصليه له، شكراً لك.

نُهل شيرفين عند رؤية الخناجر، فهي جميلة جداً، وتبدو غالية الثمن، وقال باندهاش:

- حتماً يزيد عمر هذه الخناجر عن المائة عام، إنها مذهلة، ذلك العم يملك مجموعة رائعة فعلاً.

- لكنك قلتُ مُسبقاً لن نلوث أيدينا بالدماء.

أردتُ تذكيره بهذا الأمر.

- أنا شخصياً إذا قُتلتُ بهكذا خنجر، سوف أكون سعيداً جداً.

هذه الأيام شيرفين يتصرف كالمخمور، فلا يهدر أي فرصة للمزاح أو إلقاء التعليقات والدعابات، نادرًا ما يتحدث بجديّة، لذلك تخطيتُ دعابته السخيفة وسألته:

- هل وصل أيُّ خيرٍ من مافروس؟

- لا، ليس بعد يا حبيبتي.. أتعلمين؟ إنني أفكر باستئجار شقةٍ أُخرى غير هذه.

- لماذا؟

اقترب مني وشعرتُ بأنفاسه على وجهي:

- لكي أنفرد بكِ يا حُلوتي.

تنحج الرجل الجريج، وبدأ يسعل بقوة، هرع إليه شيرفين وحاول إنهاضه.

- استيقظ.. هيأاً أرجوك.

لم يستيقظ، وسقط في نومه مجددًا.

جلسنا على منضدة الطعام، وقال لي:

- سوف نحتاج مالا كثيرًا في المرحلة القادمة، كل الخدمات التي سوف يُقدّمها لنا التجار أو أصحاب الشأن، لها ثمن، لكن لا تقلقي، هذا أمرٌ يسير، ما يشغل تفكيري الآن أننا خلال هذه الفترة علينا نسج فضيحة تودي بسمعة العرّاف إلى الحضيض، تُدمر وجوده في المجتمع، وتُحطّم صورته المثالية القائمة في أذهان الناس.

- بماذا تفكر؟

- أنا أعرف بعض الحقائق عنه، لكن لا أملك أدنى فكرة كيف يُمكنني إيصالها للناس مع عدم وجود دليل مادي بحوزتي.

قاطعته وقلت له:

- قُلْ كيف يمكننا، فأنتَ لست وحدك، أنا معك.

- يا شيرو، الأمر خطير.

- أنا أعلم، وأدرك خطورة الموقف، لكن أنا أريد مساعدتك ومساعدة نفسي، ليس من الإنصاف بشيءٍ أن يُنسب لك الفضل كله بالتخلص من هؤلاء الحثالة أمام أهل مدينتي.

ضحك، وقال:

- ها قد بدأتِ بالتحدّث مثلي، حسنًا فكّري معي بطريقةٍ تُمكننا من نشرِ بعض الأخبار والأقاويل دون إثارة الشبهات حولنا، وعندما يستطيع مافروس تزويدنا بأحد الدلائل الواضحة، سوف نُعلن عنه بكل قوة، يتوجب علينا زرع الشك في نفوسهم، لتتصدّع قناعات العامة، بما آمنوا به دون إعمال للعقل وتقليب لأوجه الرأي؛ ليصلوا إلى قرار مستقل بعيدًا عن أي توجيه أو تلقين.

- نعم.. تجهيز بيئة حاضنة للفضيحة.

- أجل بالضبط، إنها خطوة مهمة جدًا.

- فهمت، لديّ فكرتان..

نهضتُ وجلبت من حقيبتني القارورة التي استوليتُ عليها قبل عشرة أعوام، ضحك عندما رآها شيرفين، وقال:

- كيف وصلت إليك؟

- إنها لم تغب عني لحظة، لقد أخذتها منذ ذاك اليوم.

- آه.. أنتِ خبيثةٌ يا شيرو، لكنكِ تعجبيني جدًا، ويزيد إعجابي بكِ

يومًا بعد يوم، إنها فكرة جيدة لإيصال المنشورات إلى عمال الميناء والأهالي التي تقطن هناك، إذًا ما الطريقة الأخرى؟

قُلْتُ:

- الدراويش.

- إنها فكرةٌ ذهبيةٌ يا حلوتي، أنتِ أذكى مما توقعت!
وضحك بصوتٍ مُرتفعٍ حتى استفاق مرشدنا.

المرشد

فتح عينيه وبدأ ينظر إلينا برويةٍ وبذهنٍ مشتمتٍ، ثم انتقل بنظره متفحصًا المكان جيدًا، وأول شيءٍ نطق به:

- أهنك أحدٌ آخر هنا؟

- لا.. اطمئن، نحن فقط.

أجابه شيرفين بهدوء.

- لا وجود للنأجد وأبنائه؟

- إنهم موجودون خارجًا.

فزع عندما سمع ذلك من شيرفين، وأمسك بيده، وبدأ يتوسل إليه ألا يُسلمه لهم، قال له شيرفين بجديّة؛ ليتلاعب بأعصابه:

- أستطيعُ ببساطةٍ تسليمك لهم، وأستلمُ مكافأتي التي وُعدتُ بها.

بدأت الدموع تسيل على خديه:

- أرجوك يا سيدي لا تفعل.

وضع شيرفين يده على فمه، وقال له:

- اصمت، يُمكنني الإبقاء عليك هنا، وأيضًا يُمكنني إخراجك من حدود هذا الجحيم للأبد، فقط مقابل بعض الخدمات.

- أنا جاهز، أنا طوع أمرك يا سيدي.

- حسنًا، هذا جيد، قبل أن نعقد الاتفاق، عليك معرفة أننا نحن

الاثنان قد شهدنا على ما حصل معك، أنت وزملاؤك عند درب السلام في ذلك اليوم، أنت تتذكر أليس كذلك؟

- نعم، أذكره جيداً.

- إذًا، إن سلّمْتَ بالفعل، فسوف أحظى بمكافأة عظيمة، ألا تتفق معي؟

- أرجوك يا...!

- حسنًا حسنًا، قُلْتُ لكَ لن أفعل في حال وافقت على طلباتي، وأجبت على تساؤلاتي، وأشبعْت فضولي، فأنا لن أستضيفك في منزلي بالمجان.

- احضري له كأسًا من الماء وبعض الطعام.

كان حريصًا على عدم ذكر أسمائنا أمامه.

همَّ الرجل بالأكل، ودموعه تُغرق عينيه، كان يرتجف خوفًا.

- صديقي، في البداية أريد توضيحًا للأحداث التي أوصلتكَ إلى هنا، ولماذا قتلوا زملاءك.

أجاب بتلعثم:

- كانت تلك مجموعة من الحرس الشرقي للناجِد، وأنا المُستجد بينهم، ظننتُ أنني سوف أحظى بالتقدير، إذا ما كشفتُ للناجِد ما الذي يجري خلف ظهره.

- جيد، وخاب ظنك؟!!

- لقد علمتُ أن زملائي قد قاموا بكشفِ بعض الأسرار المُتعلقة بما يوجد في نهاية درب السلام، وبدؤوا بالتخطيط للانقلاب على حكم الناجِد.

صفق شيرفين، وقال:

- هذا رائع لدينا خائن هنا، وثلة من المتمردين الأخيار، أنت تتكلم عن السر المتعلق بعمال المناجم في درب السلام، أليس كذلك؟

أراد شيرفين أن يُبين له أننا نملك معلومات خطيرة، ولسنا كبقية العامة من الشعب المُغيَّب؛ بغية أن يحذر جانبنا.

- أيُّ مناجم؟! -

قال هذا الرجل الغريب مستغربًا، وشحب وجه شيرفين حينذاك،
أكمل ضيفنا قائلًا:

- هناك في نهاية الدرب...

ابتلع ريقه بصعوبة:

- يوجد.. أعني يُقال أنه توجد مقبرة جماعية لمن أُرسِلوا إلى هناك من
مذنبين، جثثهم مدفونة هناك في تلك الحفرة، لكن ليست جميع الجثث
كاملة أو مينة.

قال ذلك، وهو ينظر إلينا بحذر.

تبادلنا النظرات فيما بيننا، بينما شرب هو كأس الماء دفعة واحدة.

- إنهم.. أعني هذا ما قد وصل إلينا، أن تلك الجثث قبل أن تهوي إلى
المقبرة الجماعية، كانت تُقَطَّع، ثم تُسَرَّق أعضاؤها؛ لتباع لمن يرغب.

هويتُ على المقعد من هول الصدمة، نظر إليَّ شيرفين، لم أرهُ هكذا
من قبل، كانت عيناه تطفحان غضبًا، فلقد قرأتُ فيهما قلقه أن يكون
والده وقع ضحية عمليات سلب الأعضاء، فهو لم يستطع رؤية جثته قبل
دفعه حينذاك، كما قال لي.

تغيَّرت نبرة شيرفين بالكلام وباتت أكثر حدَّة:

- لماذا لم يتخلصوا منك؟ وكيف تتم تجارة الأعضاء تلك؟

- كيف يتم الأمر؟ إن كان حقيقياً من الأساس، لا أعلم، لكن بعد أن
وشيتُ بزملائي ونقلتُ الأخبار للناجِد، قال إنه سوف يكافئني على قوة
انتمائي وولائي له، وأن الكلام هذا كله ليس إلا شائعات لا أساس لها من

الصحة، إنها فقط حجة للانقلاب عليه، وواعد أن يمنحني منصباً مرموقاً بعد أن نتخلص منهم، لذلك تم اعتقالهم وتعذيبهم.

- أنتَ شيطان، كيف لك أن تفعل ذلك؟ أنتَ انتهازيٌّ ومنحط!

صرختُ في وجهه، فقاطعني شيرفين:

- عزيزتي، اهدئي قليلاً، لا شأن لنا بأخلاقه ومبادئه الملتوية، نريد منه المعلومات فقط، هيأ أكمل.

- أنا لستُ منحطاً، حينذاك لم أصدقهم، وصدقتُ عالي المقام الذي كان طبيباً جداً معي وودوداً، كما تعلم ذلك الرجل يسكن في أذهان الجميع على إنه تجسيدٌ للخير في أرضنا ومنجدنا من الظلمات منذ نعومة أظفارنا حتى ذلك الصباح، عندما قُتل زملائي، لقد رأيتُ أحداً منهم، وعلى يده علامة ولادة مميزة، تعرّفتُ عليه فوراً، إنه أحد حراس العرّاف، ولا شأن له بالقضية التي حصلت، وقد كان عزيزاً على قلبي لذلك قلت له:

- سيدي، هذا الشاب لا شأن له بخطتهم، لماذا هو هنا؟

حينذاك أجابني بقنوط واستهزاء:

- لا تتدخل فيما لا يعينك يا وضع.

توسلتُ إليه، لم يسمعني، وأمر بقتل الجميع وأنا أنتحب، حاولتُ الكلام، لكنني لا أذكر شيئاً آخر.

- بعد توسلاتك الخائبة، تلقيتَ ضربةً على رأسك من الخلف، بقدم أحد الحراس، هل تعلم ماذا أيضاً؟ سَجَل جسدك إلى داخل درب السلام.

شحب وجه الرجل، وانكمش على نفسه، سأله شيرفين:

- لأيِّ سببٍ تمَّ التخلص من حارس العرّاف الذي تحدثت عنه؟

- لا أعلم، لقد أرادوا تصفيته فحسب، هذا كل ما أعرفه.

أكمل شيرفين قائلاً:

- نحن أخرجناك من هناك، غالبًا اعتقدوا أنك فارقت الحياة أو ما شابه، أنت مدينٌ بحياتك لنا الآن.

ركع أمام شيرفين يبكي ويتوسل:

- أرجوك سوف أفعل ما تشاء، لكن لا تسلمني لهم.

- يكفي توسلاً، أطلب منك أولاً أن تبقى هنا، حتى عندما أغادر المنزل، ليس مسموحًا لك أن تخطو خطوةً واحدةً خارج هذا الباب، وهذا لضمان سلامتك، لا لسلامتي.

- نعم مفهوم، لن أتحرك.

- جيد، يمكنك تناول ما تريد من طعام، لكن لا تلمس أيَّ شيءٍ آخر، مفهوم؟

- مفهوم.

- وأيضًا أرجوك، كُن مزوجًا شجاعًا، فأنا أشعر بالضجر من الجبناء المتشائمين.

التردد

هل نبقى أبرياء عندما نُشارك في قتل أحدهم دون تلوّث أيدينا بدمائهم؟ هل نتحمل مسؤولية أفعالنا عندما ننفذها امتثالاً لرغبة أحدهم؟ إن القرار النابع من قناعة الإنسان نفسه يختلف عمّا ينفذه كتابع لرغبة أحدٍ آخر أو بسبب ظروف معينة، لكن يبقى تحمل وزر الذنب والندم نتيجة حتمية في جميع الأحوال.

التردد قد يستمر أياماً أو ساعات، لكن الندم يبقى ينخر وجداننا لآخر العمر، فقد بقي قرار ذلك الرجل مترنحاً بمساعدتنا من عدمها، وبعد أن طلب منه شيرفين ألا يتحرك من المنزل، أعلن أمامه أننا سوف نبدأ بنشر الحقائق وإثارة الشكوك من خلال قصاصات ورقية ننشرها في المدينة من غير إثارة أي شبهات حولنا، سوف ننشر ما نريد قوله للمتواجدين في الميناء من عاملين وزوّار وتجار عبر القارورات الزجاجية الصغيرة التي وفرها العم ماهان من معارفه، وأيضاً سوف ننشر أخبارنا بين السكان عبر الدراويش، فهم الفئة التي لا تتعرض إلى ضغط من أي أحد، ولا يُجدي نفعاً خضوعهم لأي مساءلة، أو التحقيق معهم.

جلب شيرفين عدة أقلام ملونة، وطلب مني أن أبدأ بكتابة بعض الجمل بخطوط مختلفة بعض الشيء، لكي يظن الناس أن عدداً كبيراً من الأشخاص يعملون على نشر هذه الأخبار. وقف ذلك الرجل الذي لم يصرح عن اسمه بعد، أو بالأحرى لم نتطرق إلى هذا الحديث بعد، نحن نحرص على إبقاء حدود في التعامل بيننا، وقف يتأملنا ويُرَاقب ما نفعل، كنتُ قد شرعت بكتابة الجمل التي دونها شيرفين أمامي بخطٍ غير مفهوم، قلت

له:

- لن يفهم أحدٌ خطك من الأساس يا عزيزي.
- لهذا السبب أنتِ موجودة هنا.
وطبع قبلة على خدي وأكمل:
- فأنا لن أشارك في الكتابة.
اقترب الرجل الغريب مني، وبدأ يراقبني بخوفٍ واضح، وأنا أكتب:
"نرحب بكم في حفل تدشين الميناء الشمالي المفتوح منذ ٦٥ عامًا".
"أدوية العزاف مستوردة من ملاك الموت".
"السيد سام، اليد اليمنى لخاطف الأرواح".
"عليكم تجربة طهي الأرز الأبيض بالحليب المحلى بالسكر الأبيض،
إنه لذيذ جدًا".
"الدررايش ضحايا العم سام الطيب".
"روح الفتاة البيضاء ما زالت بيننا تبحث عن قاتلها".
- لكن هذه الجملة الأخيرة خطيرة جدًا يا رفاق.
قالها بتلعثم ضيفنا المجهول.
- لا تقلق يا صديقي، إنها رنانة جدًا، وتُنعش الذاكرة والضمير،
سوف نشهد أحداثًا مشوقة.
ضحك شيرفين وأكمل قائلاً:
- إنني أبحث عن جملة إضافية يُمكنها أن تصنع الفارق.
ثم أخذ يدور حول نفسه:
- لقد وجدتها! اكتبني يا عزيزتي: "قصرٌ مشيدٌ فوق جثثكم".

- ماذا؟ من أين لك معرفة هكذا معلومة من الأساس؟

- لا أعلم شيئاً، إنها مجرد تخمين مجنون فقط، دونها هياً، سوف نستمتع بالتأكيد، علينا جعل طريقة طرح هذه الأخبار مشوقة، وشديدة الأثر على نفوس السكان.

كررنا كل جملة ما يقارب الخمسين مرة على القصاصات الملونة، وبدأنا بطيها، نظر شيرفين إلى الرجل الغريب، وقال له:

- لا تخف من مشاركتنا، فقط ضع القصاصات داخل القوارير الزجاجية.. هياً، فأنت نجوت بفضلني من الموت بأعجوبة.

وغمز، فبدأ يملأ القارورات على مضض، جلسْتُ بالقرب من شيرفين، وسألته عن كيفية توزيع هذه المنشورات، نظري بحماسة وقال: - علينا وضع القارورات في الميناء، أودُ أن أوكل لك هذه المهمة، تواجدك هناك يُعدُّ طبيعياً، لا أريد أن يراني والدك؛ فقد يتعرف عليّ، ويجنُّ جنونه.

- حسناً، سأفعل.

- لا يهم أين ستضعينها، ألوانها بالتأكيد سوف تُلفت نظر المارة، سوف أتكفل بتوزيع ما تبقى، لا تقلقي، سأخرج بأوقات تخلو فيها المدينة من الزحام، وأضعها أمام المتاجر المغلقة، وفي مناطق تجمُّع الدراويش وتواجههم.

- ما الذي يؤكد لك أن هذه الأخبار سوف تصل للناجِد أو العرَّاف؟
- علينا المحاولة، وإن لم يحدث أيُّ شيء، وتكتَّم الشعب على هذا الأمر، سوف أضيف شيئاً محظوراً على خطوات التنفيذ.

- مثل ماذا؟

- مثل أن أضع بعض الدماء البيضاء في أماكن تواجد القصاصات.

وضحك مجدداً.

- أنت غريب الأطوار! تملك دماغاً يعمل بطريقة غريبة.
- هذا وسام شرفٍ أعتزُّ به، سأكون واضحاً، أنا لا أعوّل على سرعة انتشار الأخبار، سنحتاج وقتاً لافتعال جلية حقيقية، سوف نضطرُّ إلى كشف المزيد من الحقائق في المرات القادمة، ريثما يزودنا مافروس بدليلٍ مادي.

- ماذا لو عثر أبناء الناجد على هذه المناشير أولاً؟
- إنهم أخطر فئة، يصعب كسر إيمانهم بقديسهم، لكن لن يتجرأ أحد في بادئ الأمر على محاولة تصعيد الأمور؛ لئلا يُتَّهم أنه أساس هذه الأخبار المزلة.

عصّ على شفّتيه، واقترب مني أكثر، وقال همساً:
- عليّ الذهابُ بنفسِي، والتأكد من حقيقة ما قاله هذا الرجل عن درب السلام.

شدتُ على يده:

- لا أرجوك، أنت تعرّض نفسك لخطرٍ كبير.
- عليّ التأكد يا حبيبتي.
- التأكد من ماذا؟ من أنهم حثالة؟ إن صحت رواية أخي أو رواية هذا الرجل، فإن الروایتين تؤكدان أنهم حثالة، ويستغلون هذا الشعب المسكين.
- أعلم، لكن يجب علينا معرفة ما يجري، لا أريد أن تنهار خطتنا بسبب إغفالنا بعض الأمور.
- أنا خائفة.

- لا داعي للخوف، إن متُّ، فسوف ترثين جميع ممتلكاتي وثروتي.
ثم ضحك كعادته.

الدرأوئش

استيقظ درأوئش المدينة في أحد الأيام، ووجدوا ألواناً جديدة تكسو شوارع المدينة، على غير ما عهدوا من النفايات المعتادة والرمال المعهودة، فإن الدرأوئش أكثر الناس درايةً بتفاصيل شوارع المدينة وأزقتها؛ حيث يقضون نهارهم هائمين فيها، وفي ليلهم يلتحفون بردها وقسوتها.

التقط أحد الدرأوئش قصاصةً حمراء، وبدأ يتجول بها في المدينة مبتسماً، مرَّ على عدة متاجر كعادته ليأخذ بعض الخبز المغمس بالشفقة، ووصل إلى متجر يُعدُّم عصائر باردة، فقد كان ذلك النهار شديد الحرارة، دخل هائماً في مشيته، ابتسم له البائع وقال له:

- تعال، سوف أقدم لك عصير الليمون البارد الذي لم أستطع بيعه بالأمس.

جلس الدرأوئش يشرب العصير سيئ الطعم، وأخذ البائع الورقة من يده فضولاً، وقرأ ما بداخلها.

وهكذا، انتشرت أخبار شيرفين في المدينة التي عجت بآراء الناس المستنكرة لهذه الأخبار، ولا يخلو الأمر من ارتفاع معدل الخوف في نفوسهم.

في أول يوم بدأت فيه بتنفيذ الخطة، رأيت عدة قصاصات ملونة في شوارع المدينة، وأنا في طريقي إلى الميناء بحقيبة مملوءة بالحقائق والقارورات، لقد بذل شيرفين جهداً كبيراً، فقد انتشرت الأوراق بشكل كبير جداً، ولحت بعض الناس يتجادلون فيما بينهم وبأيديهم ما كتبت في

الأمس، حاولتُ تخيّل ردة فعل من سوف يقرأ جملة "قصرٌ مشيدٌ فوق جثثكم"، إنها الشائعة الأخطر.

وصلت الميناء، واستقبلني العمال هناك بودّ كعادتهم، توجهتُ إلى مكتب والدي، ولحّت ورقة صفراء اللون على مكتبه قد التقطها في طريقه إلى هنا بالتأكيد، شعرتُ بالحزن لأنني قد أكون تسببتُ في زعره وقلقه، لكنني لا أضمن ردة فعله إن بحثُ له ما لدي من معلومات؛ فقد أوضح لي شيرفين أنه متأكد أن العرّاف في ذاك اليوم منذ عشرة أعوام قد هدّد أبي بموضوع عدم السماح لي بلقائه مرةً أخرى.

دخل أبي إلى المكتب وعانقني وأخفى تلك القصاصة في جيبه، إنه يعي أنها خطيرة، ولا يرغب أن أرى ما في داخلها.

ساعدته ببعض التقارير الأسبوعية لأغراض الجرد والحسابات، وانتظرتُ ساعة الاستراحة التي يذهب الجميع خلالها لتناول بعض الطعام، وأخذ قسطٍ من الراحة، إما خارج الميناء أو في المكاتب والمستودعات.

قال لي أبي أنه سوف يذهب لتناول بعض الطعام قبل أن يعود إلى العمل، وأخبرته بدوري أنني راحلة، فلديّ موعدٌ مع صديقتي؛ لنُكمل بعض الواجبات الدراسية.

انتظرتُ خروجه من المكتب، وقادني فضولي لأرى ما كُتِبَ داخل تلك القصاصة، كانت تحوي على جملة "نرحب بكم في حفل تدشين الميناء الشمالي المفتوح منذ ٦٥ عامًا".

فرغَ رصيف الميناء، ووزعتُ بهدوءٍ بعض القوارير على حافة الميناء والمقاعد، ووضعتُ البعض داخل صناديق البضائع التي سوف تُفتش قبل أن تدخل إلى المستودعات، شعرتُ أنني أخون أرضي وشعبي، لكنني أسعى لمصلحتهم، ليتهم يعلمون أنهم يعيشون في ذلٍّ ووهم.

أنهيت مهمتي، وذهبت لمقابلة شيرفين الذي كان سعيدًا جدًا بما فعلناه اليوم، كان يقصُّ على الرجل الغريب، كيف كان يراقب أحد المارة الذي التقط ورقة زرقاء من الأرض، وعندما قرأ ما في داخلها، هرع مسرعًا إلى دورة المياه العمومية.

- كان منظرًا مضحكًا جدًا، لا أعلم إن ذهب لكي يبكي، أو ليفرغ خوفه، لبتك رأيتك لتعلم أن هناك شخصًا يُقاسي الخوف أكثر منك في هذا العالم.

ضحك شيرفين مِلء شذقيه عندما أخبرته أنني أتممتُ ما توجب عليّ فعله، فصفق لي وقال:

- أشعر أننا نشاهد مسرحية بطلها ساعي بريد ينشر إشاعات مخيفة.

هنا توقف عن الكلام، والتفت إليّ وسأل:

- كيف تستلمون الرسائل من الخارج؟ هل عندكم مكتب للبريد، أو ثمة من يقوم بهذا الأمر؟

- هناك وسيط واحد يجلب بعض الرسائل من خارج المدينة للتجار وغيرهم، ويوصلها إلى منازلهم.

هكذا رد الرجل على سؤال شيرفين.

- حسنًا رائع، دُلّني عليه، أعتقد أننا سوف نستفيد منه لاحقًا.

- إنه يستقبل الرسائل من خارج المدينة، وليس من داخلها.

- لا تقلق، لديّ أساليبي يا صديقي؛ فأنا لديّ علاقات كثيرة خارج حدود هذه المدينة، حتى يمكنني أن أرتب لك طريقة للسفر خارج هذه المدينة.

- هل أنت جاد؟ يُمكنك مساعدتي على الهروب من هذا الجحيم؟

- أجل، سهل جدًا، أو ليس سهل جدًا، لكنني أستطيع!

- مقابل ماذا؟ ما الذي يمكنني فعله لك لكي تساعدني على الخروج من هذه الأرض اللعينة؟

- أنا من عليّ أن أسأل الآن، هل أنت جاد؟

- نعم، كل الجدية.

نظر إليه شيرفين بمكر قائلاً:

- لقد قُلتَ أن هناك مقبرة جماعية في آخر درب السلام، أليس كذلك؟

- نعم.

- أريد رؤيتها.

جفل خوفاً، وقال مرتجفاً:

- لا يُمكن ذلك، فقط بعض المقربين من الناجد يُمكنهم الذهاب إلى هناك، والمذنبين بالطبع.

- أعلم هذا، منذ أن أنقذتك لم يسأل عنك أحد، ولم يتم الإعلان عن أيّ حالةٍ فقدٍ أو وفاة، لذلك أغلب الظن، أنت في عداد الموتى بنظرهم الآن، ولا يودون إثارة أي جلبة حول هذا الأمر، لهذا السبب من يتواجد في ذلك المكان غالباً لا يعلم بما جرى، يُمكنك التسلل إلى هناك بصفتك أحد أبناء الناجد الأمناء، كما هي حقيقتك.

قُلت له:

- لكننا أحرقتنا ثيابه.

- أه.. نعم، لقد غَفَلتُ عن هذا الأمر يا عزيزتي.

- هل تضمن لي الخروج من هنا، إن لَبِيتُ طلبك؟

- فوراً، في ذات الليلة.

- إذا، احضر لي البزة، وبعض النقود للسفر.

رسالة

شعرتُ بخوفٍ كبيرٍ بعد الحوار الذي دار بين شيرفين وذلك الرجل الذي كان جاهزاً لفعلِ أيِّ شيءٍ للخروج من المدينة، وعلى العموم بات الخوف رفيق دربي على الدوام هذه الأيام.

قرر شيرفين كتابة رسالة يطلب فيها البزة من مافروس، وأودعها عند العم ماهان، وللتمويه وقّع باسم "فارس الظلام"، وقد غُشي عليه من الضحك.

عند عودتي للمنزل وجدتُ أبي جالساً وحيداً، وعلى منضدة الطعام يوجد ما يزيد عن عشر قارورات فارغة من القصاصات الملونة، لم أٌبدي أيّ ردة فعل، وألبستُ ملامح وجهي الغباء والفضول، حملتُ إحداهما، وسألته:

- بابا، ما هذا؟

- أهلاً يا حبيبتي، تعالي هنا إلى جانبي، لا أعلم لقد وجدتُها في الميناء، في داخلها خرائط كنز، أظن أن بعض الأولاد يلعبون.

ابتسمتُ، وقلتُ له:

- تبدو لعبةً مُسلية جداً.

لا يريد أن يبوح لي بقلقه البادي على محياه.

وخلال اليومين التاليين، كثّف شيرفين نشر الأخبار، وبدأت تعلو أصوات الشكوك والاعتراضات، حتى قد خُيّل لي أنني سمعتُ إحدى

السيدات تقول لصديقتها:

- في الأمس اجتحاني فضولٌ عارمٌ لكي أجرب الحليب، قُمتُ بأخذ القليل من حليب بقرة جارنا الهرم ومزجته مع السكر الأبيض الذي حصلتُ عليه بصعوبةٍ أيضًا، إنه لذيذٌ جدًّا، انظري، إنني بصحة جيدة؛ بل على العكس، أصبحتُ أشعرُ أنني أكثر حيوية.

- نحن هكذا، فضول السيدات دائمًا يقود إلى أحداث كبيرة.

ضحك شيرفين عندما سمع كلامي هذا.

- فضول السيدات دائمًا يقود إلى كوارث كبيرة يا حلوتي.

قالها لي بينما كنا جالسين عند سفح الجبل، فقد طلبتُ منه أن نلتقي بمفردنا بعيدًا عن مخططاته الجهنمية؛ لننقذ مخططًا صغيرًا في أحضان الطبيعة، وبمناسبة الحديث عن الفضول، فقد أخبرتُ شيرفين عن قصاصة الورق التي قرأها أبي عن الميناء الشمالي، وقلتُ له:

- إنني شعرتُ بالحزن عليه، هذا الأمر تحديداً قد يمسه من الداخل، فهو لديه انتماء كبير للميناء الذي يعمل فيه.

رفع شيرفين حاجبيه وقال:

- أعدك يا حبيبتي إن أصبحتُ حاكم هذه المدينة، سوف أعينُ والدك مديرًا على كليهما.

عند عودتنا وجدنا العم ماهان في انتظارنا، مدَّ يده ليُلقي التحية عليّ، وشعرتُ بشيءٍ ما، فقد كان يضع ورقةً في كف يدي، إنه ردٌّ مافروس بالتأكيد.

ابتسم شيرفين عندما قرأ ما كتبه مافروس.

- انظري إنه يدعمنا بشكلٍ كامل.

كتب في الرسالة جملة واحدة فقط:

"فارس الظلام هذا مجنون، ولكنني أحب المجانين.. بعد يومين".

إنه حذرٌ جدًّا، لم يكتب شيئًا واضحًا، لكن على الأقل، نعلم الآن أنه ما زال بخير، التفت شيرفين لضيفنا، وقال له:

- استعد أيُّها البطل، سوف نحصل لك على بزة جديدة تتباهى بها أمامنا، لكن علينا رسم خطة لهذه المغامرة.

جلس الرجل على منضدة الطعام، وأحضر ورقة وقلمًا، رسم دربًا طويلًا، ووضع دائرة كبيرة في آخره.

- هذا المكان الذي يتعين علينا الوصول إليه، ما أعرفه أن الأسلاك الشائكة تتوقف هنا.

وأشار إلى نقطةٍ محددة من نهاية الدرب:

- توجد كتيبة حراس تابعة للمدينة الشمالية وليست للنَّاجِد، قبل أن يتم اعتقال زملائي...

قاطعته شيرفين، وقال مبتسمًا:

- بعد وشايتك بهم بالتأكيد.

تنحى الرجل، وقال:

- أجل بعد وشايتي بهم، كانوا يعملون على خطة لتجيش الشعب للانقلاب على النَّاجِد بعد أن يكشفوا حقيقة هذا المكان بالذات.

وأشار على آخر الدرب:

- كما علمتُ، هناك أحد الحراس الذي يناوب بعد الثالثة فجرًا، يكون وحيدًا لمدة ساعة واحدة فقط خلال انتظاره وصول الآخرين من الجهة الأخرى، فهم يتناوبون على حراسة ذلك المكان.

- إذًا.. أصدقاؤك كانوا يعملون على خطةٍ ما، والشعب كان جزءًا كبيرًا منها؟

قال شيرفين ذلك.

- بالتأكيد، إن أبناء الناجد الأمناء ينقسمون لثلاث فئات، فئة تعرف كل شيء، لكنها تُفضّل التمتع بالامتيازات التي يُمكن الحصول عليها عند الوصول لمناصب السلطة، هؤلاء يشبهونني، لكنهم جبناء.. مثلي أيضًا، وقلة قليلة من يبقى ضميرهم حيًّا بعد أن يعرفوا الحقيقة، أما الأكثرية؛ فهم المتيمون تمامًا في غرام الناجد، تابعون له بشكلٍ أعمى، ولا يُمكنك إقناعهم أبدًا أنه ظالم، فهو يُخفي سواد شره تحت رداءه الأبيض اللعين.

- إذا لدينا ساعة واحدة للدخول إلى هناك.

- نحتاج قرابة الأربع ساعات سيرًا على الأقدام للوصول إلى هناك عن طريق الغابة، سوف ندخل بحجة أن الناجد قد طلب منا بشكلٍ عاجل إحضار أو إيصال شيء ما إلى هناك على وجه السرعة.

قال شيرفين:

- لا، سنقول إننا مرسلون من قبل العرّاف.

- لماذا؟

- سوف أشرح لاحقًا، لكنك للأسف سوف تكون على الجهة الأخرى، ولن تعرف السبب.

- أنا لا أهتم، افعل ما شئت، أريد الرحيل فقط.. لكن عليك التظاهر أنك أعمى عندما نذهب إلى هناك، عليك يا شيرفين ارتداء ملابس رثة؛ لأنني سأدعي أنك درويش، مهم جدًا تغيير مظهرنا قدر الإمكان.

بحماسة كبيرة قال شيرفين:

- رائع.. عليّ التدريب على هذا الدور المعقد، درويش وأعمى! مذهل.

خلال الأيام التالية التي سوف نفتقد هدوءها، لم يتوقف شيرفين عن نشر الأوراق الملونة، وأنا بدوري نشرتُ أكبر عددٍ مُمكن من القارورات

الزجاجية، فكما التقطتُ قارورة زجاجية قبل عشر سنوات، وغيّرت مسار حياتي للأبد، ستُغيّر هذه القارورات حاضر وتاريخ مدينتنا للأبد.

لم نتلقَ أيَّ رسائل جديدة من مافروس، فاعتري القلق شيرفين، وبدأ يُفكر في خطةٍ بديلة، لكن بعد عشرة أيام من رسالة مافروس الأخيرة، وجدنا البزة المطلوبة عند العم ماهان، في داخلها رسالة أخبرنا بها مافروس أنه يُريد هذه البزة غدًا صباحًا، فهي تخصّ سديم، وأنه قد تم قبوله في الاختبار، وأصبح رسميًا من أبناء الناجد الأمناء، بالطبع كتب هذه الرسالة بطريقة مختصرة غير واضحة، ووجدنا رسالةً أخرى موجهة لأمي من مافروس يُطمئننا بها على نفسه.

- هيا.. جهّز نفسك يا بطل، أحضرنا لك البزة.

- أنتَ من عليه تجهيز نفسه.

الفصل الثاني

"إن في الحياة فترات انتقالية لا يُمكن اجتيازها، دون أن يموت شيءٌ ما
بداخلنا".

- شمس الدين التبريزي، شاعر متصوف.

حفرة في السماء

أوصلتُ رسالةً مافروس لأمي، كانت سعيدة جدًا بتلقيها رسالة من ابنها العزيز، لكنها لم تستطع كتم دموعها وحسرتها، بينما أنا كنتُ شاردة الذهن وخائفة بعد أن قرر شيرفين وذلك الرجل أن يخرجنا غدًا لرؤية ذلك المكان اللعين.

لم أعرف ما جرى إلا بعد مرور أسبوع تقريبًا؛ لأن شيرفين عاد مكسور النفس والقلب ورفض نطق أيِّ كلمةٍ بشكل قاطع، وفي هذه الفترة توقفنا عن نشر الأخبار.

كنت تائهة في أفكارٍ، أحاول رسم نهاية عادلة أو جيدة لما نقوم به، لكن في جميع الاتجاهات أرى الدماء، لم يراودني النوم تلك الليلة، فقد سمعتُ حديثًا دار بين والديّ بصوتٍ خفيض؛ حيث قال أبي لأمي:
- أتمنى لو أنني أستطيع النوم سنة كاملة؛ لأستيقظ على واقع مختلف، المدينة زاهية لمنحني سيئاً يا عزيزتي، ولا أعلم نتائجه.

كنت أعلم أنه يتكلم هكذا بسبب الأخبار التي نشرناها، وكان إحساس أبي في محله.

في اليوم التالي لم أخرج صباحًا، بقيتُ في حجرتي شاردة، أخبرتُ والدي أننا سوف نذهب في رحلة تخييم سنُنظمها الجامعة اليوم في سفح الجبال، وسأعود غدًا في الصباح الباكر.

ذهبتُ إلى منزل شيرفين، ولأول مرة رأيتُه بهيئةٍ لم أره بها سابقًا، ارتدى قميصًا رماديًا مهترًا، وبنطالًا أسود فيه تشققات كثيرة، وانتعل

فردتي حذاء مختلفتين، قال لي عندما فتح باب شقته:

- للأسف.. لا أستطيع رؤيتك، فأنا أعمى.

وضحك متباهياً:

- ما رأيك بهذه الحلة؟

- تبدو درويشاً مجنوناً، وليس أعمى.

أخبرته أنني سوف أنتظره هنا، وبعد اعتراضات وجدالات بقيت صامدةً أمامها، استسلم وغادر شيرفين برفقة ذلك الرجل الذي ارتدى معطف العم ماهان الأسود؛ ليغطي البزة الزرقاء، متسلحاً بخنجرٍ من أحد الخناجر من ذلك الصندوق الجميل؛ بغية الدفاع عن نفسه، إن حدث أيُّ أمرٍ طارئٍ.

أمضيتُ تلك الساعات متجولةً في شقة شيرفين، متفقدةً ملبسه وأشياءه العجيبة المبهرجة.

عاد شيرفين ظهر اليوم التالي بعد أن غادرتُ شقته دون تمكُّني من رؤيته، لم أستطع التأخر بالعودة للمنزل؛ تفادياً لإثارة شكوك والداي، وفيما بعد أخبرني العم ماهان أنه عاد بمفرده منهك الجسد والأعصاب، بعد أن سهّل هروب ذلك الرجل من خلال حدود المدينة الشرقية، وبيده الخنجر ذاته الذي أخذه الرجل، بقي نظيفاً وغير مستعمل.

لأسبوع كامل كان خائفاً غير قادر على النوم بمفرده، لذلك تطوَّع العم ماهان بالمكوث عنده، وقال لي أنه في كلِّ ليلةٍ يستيقظ بعد أن يرى ذات الكابوس، حفرة في السماء تنهمر منها جثث.

في تلك الليلة وصلا إلى المكان المقصود، كان هناك حارس واحد يتسكع حول المدخل الجانبي، أخبره الرجل أن العرَّاف أرسله لإحضار بعض الأشياء الضرورية من الداخل على وجه السرعة، اعترض الحارس، وقال:

- لم يصلني أي أمرٍ بإدخال أحدٍ الليلة.

قال له الرجل:

- أعلم هذا، إنه أمرٌ طارئ، أحتاج دقيقتين فقط، سوف نغادر قبل قدوم زملائك إلى هنا، لقد أخبرني العرفان أنني سوف أجدك هنا على رأس عمك في هذا الوقت.

- ومن هذا الذي تصحبه معك؟

- إنه أحد الدراويش، سوف يحمل الأغراض بدلاً عني، وأشار على الحقيبة التي يحملها شيرفين، لا تقلق إنه أعمى.

- هل تثق به؟

- أنا لا أعرفه، هو من طرف العرفان، فقط قيل لي أنه أعمى لكي أقوده في الطريق.

- حسناً معك خمس دقائق فقط، هيأً افعل ما شئت، أنا أريد أن أنام فقط.

قال لي شيرفين بينما كان شارداً ذهن، والحزن يخيم على وجهه:

- أول شيءٍ التقطته عندما خطوت داخل ذاك المكان، كانت الرائحة، رائحةٌ تحللٍ وفسخٍ جثثٍ لا أحدٍ يمكنه تحملها أو تجاهلها، فقد بعثت في نفسي شعوراً مخزياً جعلني أتجمد في مكاني، لكن مولينا اقتداني عنوةً، لقد قال لي اسمه قبل أن ندخل كعربون ثقة، وعند الحدود اختلقت له اسماً آخرٍ للتعريف عن نفسه، لكنني نسيته الآن، كادت الرائحة أن تكتم أنفاسي بحق، فهي نذيرٌ بالموت القريب جداً، اقتربنا من مكانٍ أشبه ما يكون بحفرةٍ عميقةٍ لا يُمكن رؤية قاعها؛ لأنها مملوءةٌ بأشباه الجثث، أشلاء بشريةٍ في كل مكان، أذرع، أقدام، بقايا شعر، جثث بلا عيون أو مفتوحة الصدر، أقسم أنني قد رأيتُ إحدى الجثث تتحرك هناك بلا قدمين، الحارس لم ينتبه إلى الخوف والرعب الذي اعتراني، فكدتُ أفقد

الوعي، لكن مولينا كان أشدَّ بأسًا مني، سمعتُ أصواتًا بشرية كالعواء، حاولتُ النظر ناحية مصدر الصوت، لكنني لم أرَ شيئًا، باستثناء أشخاص بأجساد هزيلة جدًّا، هياكل عظمية مرتدية ثيابًا رثة، مقيدة على الحائط، ولم تكن تُصدر أيَّ صوت، لم أستطع أن أُميّز ذلك الصوت إن كان حقيقيًّا، أم أنه فقط من نسج مخاوفي، شعرتُ برغبةٍ جامحة في التقيؤ والهرب، ركع مولينا أمامي، وشدّني إلى الأسفل وهمس في أذني "أرجوك، تماسك قليلًا"، وأخذ الحقيبة وتظاهر أنه يأخذ شيئًا ما من الحفرة، لكنه وضع فيها ترابًا فقط، كان ترابًا مخلوطًا بالدم، وأعاد الحقيبة إلى ظهري مجددًا، وجرّني كالأعمى تمامًا للمخرج بعد أن شكر الحارس بكلامٍ معسول، كنتُ أمشي خلفه ولا أرى شيئًا، لم أكنُ أتظاهر بالعمى، الخوف أفقدني إحساسي بما حولي، حينها تمنيتُ لو كنت أعمى فعلاً.

بعد أن ابتعدنا مسافةً جيدة عن ذاك المسلخ، سقط مولينا أرضًا يلهث، والدموع تتساقط من عينيه بينما ينتحب ويقول إنهم هناك، إنهم هناك لقد رأيتهم، أصدقائي الذين قُتلوا بسببي، خلع البزة وأخذ الحقيبة وأفرغها من التراب، وضع البزة في داخلها، وقال لي:

- لا تنسَ إعادتها، إن وجدها أحد بحوزتك سوف تموت.

بعدها لا أذكر كيف وصلنا للحدود الشرقية، ومن ساعدنا على الدخول إلى هناك؛ فقد كنت أعمى الذهن والبصيرة، أذكر فقط أنه سألني قبل أن يغادر ما اسمك؟ فقلت له:

- أنا شيرفين ابن القبطان دياز ضحية الناجد والعرّاف.

بعد أن انتهى شيرفين من كلامه، تملّكني خوف وحقد رهيبان، ولوهلة شعرتُ أنني لم أفهم شيئًا، لكنني لم أثقل على شيرفين أكثر بأبيّ أسئلةٍ أخرى، فقد كان في حالةٍ يرثى لها، لم يكن يلقى أيّ دعابات أو يتفوه بتعليقات ساخرة، ناهيك عن أنه لم يبتسم حتى عندما رأني في

اليوم الذي تلا عودته؛ حيث لم يرفع عينيه عن موضع قدميه، فارتدى على الأريكة التي بات ينام عليها هذه الأيام.

أكمل قائلاً:

- يتهياً لي أن مولينا قال شيئاً بعد أن عرف اسمي، لكنني لا أذكره الآن، ولا أذكر هل سلمت البزة للعم ماهان أم لا.

- لقد عادت إلى صاحبها الآن، أخذها مافروس من العم ماهان في صباح اليوم التالي لعودتك.

- أكاد أفقد عقلي يا شيرو، منذ ذلك اليوم يراودني ذات الكابوس، حفرة في السماء تنهمر منها جثث على رأسي، وأنا أقف عاجزاً.

- حبيبي..

أخذتُ رأسه إلى حضني، وأسندته بالقرب من موضع قلبي قدر الإمكان.

- أنا معكَ و بجانبكَ بأيِّ قرار تتخذه، لكن إن أردت الرحيل وترك كل هذه الأمور خلفك، يُمكنك فعل ذلك، أنت لست مجبراً على تعريض نفسك لهذا الخطر الجسيم، وخصوصاً بعدما كشفت حقيقة قباحتهم، وما يستطيعون القيام به، أنت لست مضطراً...

قاطعني بحدّةٍ وقلت من بين يدي:

- لا لن أرحل، قُلت سابقاً لن ألوث يديّ بالدم، أما الآن، فأنا أرغب بسفك دمائهم القذرة! أريد رميهم في تلك الحفرة، يا شيرو! أتعلمين لماذا طلبتُ من مولينا أن نذكر أننا من طرف العرّاف؟ حتى أتأكد من أنه متواطئ مع العجوز اللعين بكل شيء، ليس فقط في قضية تجارة المواد المشبوهة فحسب، إنهم شياطين تحكم المدينة بناسها الأحياء والأموات أيضاً.

جثم الخوف الشديد على صدري، فهذه أول مرة يتكلم شيرفين هكذا،
لقد رأيتُ رغبةً الانتقام مُشتعلةً في عينيه، بُحثُ له بصوتٍ خفيض:

- لكنني خائفة.

- إن كنتِ خائفةً أو نادمة على مشاركتي ومساعدتي، انظري إلى ذاك
الباب افتحيه واخرجي، ولا تعودي أبداً، الأمر سهل وبسيط، أليس كذلك؟

جرح قلبي كلامه القاسي، لكنني كنتُ متأكدةً أنه لا يعي ما يقول، لم
أقل شيئاً، بقينا جالسين فترة من الزمن في صمتٍ تامٍّ حتى نطق شيرفين
وقال والدموع تنهمر من عينيه:

- الرائحة لا تفارقني، إنها عالقة في ثيابي وجلدي وشعري، تلك
العيون كانت تنظر إلى روحي! نظراتهم لا تُفارق مخيلتي!

بكى حتى راوده النوم في حضني، نام لأول مرةٍ بلا كوابيس بعد
رؤيته ذلك الجحيم.

الأمل

الجراح العميقة تأتي فقط من الأمل الكاذب، أو ما يمكننا تسميته الأمل الزائف أو السراب، وكما اتضح بالتجربة والبرهان أن رفع سقف الأحلام قد يؤدي إلى السقوط في منحدر خطير جدًا.

بعد أن أفصح شيرفين لي عمّا رآه في نهاية درب السلام، بات باهت الأحاسيس وشاحب الملامح، يعمل بصمت تام في نشر الأخبار، يطلب مني كتابة جمل جديدة محرّضة؛ حيث كانت أكثر حدّة ووضوح هذه المرة.

"الثورة مشروعة لشعبٍ موهوم".

"أنتم تُنجبون أبناءكم للجحيم".

"تعيشون بلا روح وبلا عقل تحت أمرهم".

"المدينة الشمالية شريكة في قتل حياتكم واستلاب أبنائكم".

"علمكم ملطخ بالدماء".

بينما أنا أدوّن الجمل رحّت أتأمله، لقد انطفأ شيءٌ ما في داخله منذ ذلك اليوم، لم يعد يتصرف على طبيعته، لم يعد يرغب بالطعام كسابق عهده، حتى الأطباق التي أعدّها له، يجاملني ويأكل مقدارًا بسيطًا جدًا، وعندما أعددتُ له مجددًا فطيرة التفاح التي أحبها، قال لي بعد أول لقمة:

- أنا آسف، لا أستطيع تناولها، أعلم أنها لذيذة، لكنني أشعر بطعم مرارة في فمي عند تناول أي شيء، لا أستطيع التقاط مذاقها.

وأرسل الفطيرة للميتم لعلها تبعث بعض الحلاوة في أيام الأطفال

المساكين.

اقتربتُ منه وطبعتُ قبلةً على جبينه:

- حبيبي لا تنسَ، مافروس اجتاز الاختبار، والآن ينتظر منا إشارة.

- آه، أجل، كدت أنسى.. اكتبني له في رسالة، ما الذي يتوجب عليه فعله، أنتِ تعلمين ماذا عليه أن يفعل، سوف أعطيك شيئاً.

نهض بتثاقل وأحضر منديلاً وقلادة، ثم قال:

- إنهم لمولينا، دعيه يسلمهما للنَّاجِد، ويقول إنه قد رآه يخرج من الغابة من جهةِ درب السلام مع شخصٍ أو شخصين، لا فرق.

كان يتكلم بلا روح، نَفَذْتُ ما طلبه مني، وسألته إن كان يعلم شيئاً عن عائلة مولينا، فلا أريد توريطها في هذا الأمر، من المؤكد أنهم سوف يرسلون رجالهم للبحث عنه في منزل عائلته في بادئ الأمر.

قال شيرفين بلامبالاة:

- لا أعلم، لم أسأله.

- كان عليك سؤاله يا عزيزي.

نظر إليّ بطريقةٍ غريبة، كأنه يقول لي أنا لا أهتم بعد الآن.

بالفعل، لقد افتقدتُ شيرفين القديم، صاحب الدعايات السخيفة والتعليقات الساخرة، لم أعد أرى بريق عينيه، الذي استعاده بأشنع طريقة ممكنة لاحقاً.

سلمتُ العم ماهان أشياء مولينا والرسالة، وعدت أدراسي للمنزل، جلستُ إلى مكتبي ودونت:

"إن كان لك حزنٌ، فلي قلبٌ يحتضنك

ويدان تشدُّ عزمك، وكتفان يستندُ عليهما رأسك

وروحٌ تسافر عبر المدن والبحار لأجلك
منتظرةً منك فرصةً لأكون أقرب لك من وريدك
فأناجيك ليل نهار؛ لأخفف عنك تعبك.

في اليوم التالي، أخبرني العم ماهان أن مافروس جاء على عجل وأخذ الرسالة وتلك الأشياء، وسلّمه مبلغاً من النقود، لكنه لم يقل شيئاً حيال هذا الأمر، فهمتُ أن هذه النقود يجب أن تصل إلى طفلته في الميتم.

عند رؤيتها شعرتُ بطعم المرارة الذي ذكره شيرفين في فمي، سألتني المربية إن كنت والدة الطفلة، فنفيت، فلم تسمح لي بقضاء الوقت معها، كانت تحملها، وذراع الطفلة الهزيل يُحيط رقبة المربية، عيناها خضراوان، فمها وأنفها نسخة مصغرة عن مافروس، حاولتُ إخفاء مشاعري فلا أريد أن يُفصح أمرنا. سلمتها النقود وأخبرتها أنني صديقة ذلك الشاب الذي وجد الطفلة، فقط لا غير.

عانقني شيرفين عندما عدتُ من الميتم؛ حيث كان يراقبني من شرفته، هذا العناق خفف حزني قليلاً، قدّم لي مفتاح الشقة وقال:

- شيرو، سوف أغيب عدة أيام، عليّ الذهاب إلى مدينتي.
- لماذا الآن؟

شعرتُ أنه يرغب بالانسحاب، وكأنه قرأ أفكارِي، فقال:

- لن أنسحب، أنا ذاهبٌ لهنالك؛ لأعود مستعداً للحرب، عليك مواصلة نشر الأخبار، لديك تفويض كامل بكتابة أيّ شيءٍ قد يخدم غايتنا، ابقي على تواصل مع مافروس، فهو بوضع حساس الآن، لن يطول غيابي، أعدك، لكن عليّ إحضار شيء ما من مدينتي.

- ما هذا الشيء؟

- ألسنة نار تحرقهم.

في ذات اليوم الذي غادر به شيرفين إلى المدينة الجنوبية، كان مافروس صباحًا قد بدأ بتنفيذ الخطة، وعلمت ما حصل بعد يومين من انضمامه إلى كتبية حراس قصر الناجد؛ حيث كتب لي في رسالته:

"لقد تظاهرتُ أنني رأيتُ لصًا يهرب ناحية الجبال وانطلقت أركض؛ لألقي القبض عليه، عند عودتي ذهبت مباشرة إلى القصر، وطلبتُ التحدث مع كبير الحرس، وبعد مجادلة طويلة وانتظار لمدة ساعتين قابلته وشرحت له أنني كنت أطارد لصًا، لكن استوقفني منظر رجلٍ جريح بحالةٍ يرثى لها، ويساعده على المشي أحد الأشخاص الذي وصفت مظهره بشكلٍ عام، كانا آتيين من جهة الشمال، المثير بالأمر أن الرجل الجريح كان يرتدي بزة أبناء الناجد الأمناء، ويبدو عليه الذعر، حاولتُ تتبعهما دون أن أثير الانتباه، لكنهما اختفيا بين الأشجار، تبعتهما حتى وجدتُ المنديل والقلادة، وحين سمع كبير الحرس هذا الكلام، قال لي إنه لا يمكنه تحمّل مسؤولية أي قرار بشأن هذا الموضوع، وأخذني إلى الناجد فورًا، كررتُ عليه قولِي بينما كنتُ جاثيًا أمام عرشه، لقد عرفوا لمن تعود تلك القلادة، فقد رأيتُ ذلك في وجوههم، شكرني شخصيًا، وطلب مني أن أفخر بنفسِي.. و أنا اليوم في كتبية حراس قصره .

ملاحظة، سوف يمنحونني قريبًا يومًا كاملًا لأزور عائلتي تقديرًا لجهودي، كوني طبيعية".

تسارعت دقات قلبي، لقد مضى على انضمام مافروس قرابة الشهر، ولدينا الآن خمسة أشهر لإكمال الخطة، وإخراجه برفقة سديم من القصر.

بعد أسبوع من رسالة مافروس جاءنا صباحًا، كانت سعادة أمي لا توصف، فمن المتعارف عليه أن قبل مضي مدة ستة أشهر على انضمام

المنتسب الجديد إلى أبناء الناجد الأمانة لا يُؤذن له بأي إجازة، قصّ عليهم فعله البطولي، فظهرت علامات الفخر والسعادة على وجه أبي، وأعدت أمي أصناف الطعام التي يُفضّلها أخي.

أمضينا طيلة اليوم في المنزل كعائلة سعيدة، ولكي نبعد الشكوك عنا أيضاً، فمن غير المنطقي خروجه من المنزل في يوم إجازته الاستثنائي، فقد وضعنا في عين الاعتبار أننا مراقبون.

قبل أن يخلد للنوم، جاء إلى حجرتي واستفسر عن شيرفين وسير خطته، لم أخبره عن زيارته لدرب السلام، فأنا لا أريد إثارة خوفه، أخبرته ألا يقلق بشأن ذلك الرجل، لن يجده، فقد هرب خارج المدينة.

قال بسخرية:

- تلك الأوراق الملونة اللعينة من فعلكم، أليس كذلك؟

- نعم، هل وصل شيءٌ منها للقصر؟

- وصل الكثير، الجميع يتناقل الأخبار، لكن لغاية الآن لا أحد يأخذها على محمل الجد، باستثناء موضوع الميناء الشمالي، فقد ذهب جمعٌ من زملائي إلى هناك، وتأكدوا من وجود الميناء، إنها بادرة شكٌّ يا شيرو.

- عظيم.. هذا ما حدث معي بالضبط، بدأتُ من نفس النقطة.

- نعم، الشك بداية اكتشاف طريق الحقيقة.

- وماذا حصل بعدها؟

- إنهم خائفون، لكنها بداية جيدة.

- هل ما زلت متحمساً، أم داهمك الخوف؟

- على العكس، أنا متحمس جداً، وأنتظر الفرصة المناسبة لمحاولة الحصول على بعض الدلائل.

- جيد، بالمناسبة يا أخي، كيف حال سديم؟

- إنها تقاوم.

- قل لها أن هناك بصيص أمل، وأنها ليست وحيدة.

- لم لا تقولين لها هذا الكلام بنفسك؟ اكتبني لها رسالة.

كتبْتُ لها رسالة أخبرْتُها أنني أتحرَّق شوقاً لرؤية الفتاة التي احتلت قلب أخي، وطمأنْتُها عن ابنتها بشكلٍ مُبالغ فيه، فأنا لم أزرها إلا مرة واحدة، وكتبْتُ بكامل مشاعري وأحاسيسي؛ لعلني أستطيع أن أوصل لها بعض الأمان والسكينة.

علمتُ فيما بعد من مافروس، أنها قرأت الرسالة مراراً، وفي كل مرة تنهمر دموعها على حبري وكلماتي، إنها روح مسكينة مكسورة.

لم أرَ سديم قبلاً، ولن أراها مستقبلاً، لذلك أنا لا أستطيع أن أصف مظهرها وملامحها، فلم أحظْ بتلك الفرصة، فقط أعرفها من خلال أعين مافروس التي بقيت ترنو إليها، وأعلم أنها جميلة جداً بكل تأكيد.

ابن القبطان دياز

مضت عشرة أيام على غياب شيرفين، كنت أتردد فيها على شقته، ولم ينفك العم ماهان بسؤالي عن شيرفين في كل مرة يراني فيها، وأنا لا أسلك سوى سبيل التهرّب من إجابته.

في اليوم الحادي عشر من غياب شيرفين استيقظت المدينة على خبر صادم، السيد سام عرّاف مدينتنا المّبجل قد فارق الحياة بعد صراعه مع مرض لا علاج له، هكذا أعلن كبير حرس قصر النّاجد في ساحة المدينة، وطلب من جميع السكان إغلاق متاجرهم وإيقاف أعمالهم للمشاركة في جنازة العرّاف، وأعلن الحداد بشكل رسمي.

خلال الجنازة، سمعتُ أقاويل هنا وهناك، أن موت العرّاف في هذا التوقيت ليس عادياً، ومن كانوا يقومون بنشر تلك الأخبار، هم أنفسهم من قتلوه، وسمعتُ كذلك بعض الاعتراضات التي لم تشكك في صدق حكومتنا، وخصوصاً أن الجميع يعلم أن السيد سام كان مريضاً جداً، وطريح الفراش منذ عدة أشهر خلت.

كنت بين جموع الناس في الجنازة أبحث عن شيرفين، أنا على يقين تام أن شيرفين له يد في هذا الأمر، إن لم يكن هو القاتل، حاولتُ تجنب التفكير في هذا الخيار، لكن كل ما حدث كان يقودني إلى تلك النتيجة بشكلٍ حتمي، وهذا ما ألمني بشدّة.

أشعر أنني طرف ثالث في خطتك يا شيرفين، قلتُ له ذلك عندما قابلته في شقته بعد ثلاثة أيام من جنازة العرّاف، كان سعيداً جداً،

ويرتدي ثياباً مبهرجة كما عهدته سابقاً، ويدندن لحناً ما. عاد كما أعرفه
مرحاً مزوحاً، ما أثار شكوكي أكثر، إنه كان محطماً تماماً عندما قابلته
آخر مرة، فسألته بحذر:

- ماذا فعلتَ؟

- لا شيء، مساعدة صغيرة لملاك الموت.

وراح يلهو بخصلات شعره الجميل.

- أأنتَ قتلته؟

تمايل بمشيته أمامي وجلس على الأريكة:

- نعم ولا، اقتربي مني.

وسرد لي ما جرى.

علمتُ أنه عاد إلى المدينة منذ أسبوع، لكن من أجل أن يضمن نجاح
خطته لم يأتِ إلى الشقة؛ بل كان متواجداً على سفح الجبل، مراقباً منزل
العزّاف لعدة أيام؛ حيث قال لي:

- وبعد أن تأكدتُ من وقتِ تبديل الحراس، تسللتُ إلى منزله عبر
النافذة الخلفية التي كسرتُ قفلها بخنجري الجميل، ذاك اللعين تعرف
عليّ فور دخولي منزله، كيف يقول العم ماهان أنني لا أشبه أبي؟ هذا
عجيب!

لقد سألني بقمة اللامبالاة:

- هل جئتُ لنتنقم؟

قلت له:

- لا، جئتُ لنتحدث فقط.

وجلستُ بجانبه على السرير؛ فهو لا يقوى على الحركة، وسألته:

- من كان السبب الرئيسي لمقتل والدي؟

اعترف أنه كان السبب المباشر، والحجة التي قيلت أن أبي قد أفشى سرهم لاثنين من معارفه، كانت هي ذريعة للقتل فقط، وليس لها أساس من الصحة.

قلت له ببرود:

- ولكن أتعلم؟! لقد أصببتم، بالفعل هناك شخصان غير أبي يعلمان الحقيقة، بالطبع باستثنائك أنت والناجِد.

قال لي:

- أنت ومن؟ صديقتك شقيقة مافروس؟

فُزِعْتُ عندما قال ذلك، تعمَّد ذكرنا أنا ومافروس بغرض إخافة وتهديد شيرفين، ولكي يُبين له أنه يعرف عنه الكثير.

أكمل شيرفين قائلاً:

- لا يا سيادة العرَّاف، شخصٌ لا تعرفه، لكن لا يهم.

نهضتُ واقتربت من وجهه، وقلتُ له:

- إن صوتك مزعجٌ جداً، سوف أخرسك.

وحرقتُ له فمه.

وجلب شيرفين معه سائلاً شفافاً، قال إنه خطير جداً، يمكنه إذابة

الجلد واللحم والعظام.

أصبح منظر فمه مقرقاً جداً على الفور، فقد احترق الجلد وظهرت عظامه، والألم كان كبيراً جداً وراح يئنُّ ألماً، حاول إمساكي وغرس أظفاره بذراعي، لكنني أسقطت بعض قطرات على أصابعه وحنجرته، قلت له:

- لا أريد قتلك، فأنا لست حثالة مثلك، فقط أريد تعذيبك وعندما

تذهب للجحيم، سوف أتفرغ لصديقك العجوز.

وسكبتُ المتبقي من المادة على قدميه؛ لأضمن أكبر خراب ممكن في جسده العفن، وأقسم لك، إلى حين لحظة خروجي من منزله كان لا يزال حيًّا.

ليس هناك كلام يصف ما شعرتُ به لحظتها، هل أصبح شيرفين قاتلاً؟ أم ما فعله كان حقاً مشروعاً له؟ أعلم أنه لم يقتل أحداً بيديه، لكنه قد ساهم بشكل كبير في موته، وما أثار دهشتي أن بعد هذه الحادثة عاد شيرفين سعيداً كما كان، واستعاد بريق عينيه، هل أصبحت سعادته مرتبطة بتحقيق انتقامه؟ لا أستطيع مجاهرته بأفكاري، على الرغم من أنني متأكدة أنه يقرأ ما يدور في رأسي، ويشعر بأي اتجاه أفكر.

لذتُ بالصمت وابتعدت عنه قليلاً، دنا مني، وقد بدت ملامح الحزن على وجهه.

- حبيبتي شيرو، أعلم أن ما فعلته قاس، لكن أقسم لك أن كل الأضرار التي تسببتُ بها له لا تساوي شيئاً مُقابل ما فعله بجميع من لجأ إليه، وقرر أن يستغله أو يتلاعب به، انظري إلى الدراويش في الشوارع، إنهم ضحايا ذلك الرجل، من الأطفال الذين قتلوا بأمرٍ منه، إلى المحكومين في ذلك المكان اللعين.

قاطعته وقلت له:

- يكفي شيرفين، أنا أقدر أسبابك، وأستطيع فهم دوافعك لفعل هذا الشيء، لكن ليس من المنطقي تصحيح الخطأ بخطأ، الشر بالشر، هكذا نصبح نسخة عمّن نحاربهم.

- يمكنك الانسحاب يا شيرو، أنا لن أتراجع، منذ بداية خطتي لم أطلب منك لعب أي دور فعلي، كما أنني أعلم أنه الآن في الوقت الحالي، فقط أنا ومافروس لدينا أسباب حقيقية تدفعنا لفعل ما نريد فعله، لكن أضمن لك أن بعد أشهر قليلة سوف يصبح لكل شخص يعيش على أرض

هذه المدينة دافعٌ لتقطيع أولئك الحثالة إربًا إربًا.. أنا لا أبرر أفعالي، أعلم أن ما فعلته كان شيئًا شنيعًا، وفي حال تمت محاسبتي قانونيًا، فسوف أُعاقب بالموت، لكن في مكانٍ لا سلطة للقانون فيه، تكون القوة هي القانون.

- نعم القوة، وليس الظلم والتعدي على الآخرين.

صدرت منه ضحكة مججلة:

- هذا قصاص يا حبيبي، وليس ظلمًا.. الحياةُ تدور بنا، وكلُّ منا يحصد ما زرع.

قلت له:

- بسبب هذا القانون بالذات يا حبيبي، عليك أن تخاف.

وغادرتُ.

الفضيحة

في طريق عودتي للمنزل بخطوات ثابتة وقلبٍ مُتردد، شعرتُ أن كلامي قد سبّب شرْحاً في علاقتي مع شيرفين، وقد اكتسح قلبي الندم على ما قلته قبل قليل، لكنني لم أستطع لجم ضميري، وحتى لو كان من نتحدث عنه شخصاً مجرماً، لم أكمل التمتع بندمي، حتى تناهى إلى مسامعي صوت شيرفين، ظننتُ أنني أتخيل ذلك، لكنه كان يجري خلفي لاهتاً.

- توقفي أرجوك، لا أريدك أن تظني بي سوءاً، أنا أحبكِ، أنتِ عائلتي وحببتي وصديقتي وضميري الحي، لن أقدم مبررات لفعلي، أعترف أن العواطف قادتني وأعمت بصيرتي، لكن أعدكِ أنني سوف ألتزم بعهدي بعدم تلوّث أيدينا بالدماء، فقط ابقِي بجانبِي، كوني صوت ضميري عندما يغيب عني.

- شيرفين، أنا أحبكِ أيضاً، ولا أقوى على خسارتك، ولا أُرغب أن أراك مجرماً، أو أن ترى نفسك كذلك.

عانقني وقال لي:

- هل يُمكنكِ المكوث عِندي الليلة؟

- لا آسفة، عائلتي سوف تقلب المدينة رأساً على عقب بحثاً عني.
فقبّلني، وعاد أدراجَه.

في الأيام التي تلت إعلان وفاة العرّاف وتشيع جنازته، شعرنا بحركة غريبة في المدينة، أبناء النّاجد ليسوا على عاداتهم، وانتشر الحراس في كل مكان، لم نستطع نشر الأخبار كما يجب، وبدأ شيرفين يُفكّر في الاحتمالات الممكنة، هل هناك أي شكوك حوله؟ كنت خائفة جدًّا من هذا الاحتمال، وحاولنا فهم ما يجري، لكن بقيت الأمور غامضة.

بعد يومين جاء شيرفين إلى متجر العم ماهان؛ حيث كنت أنتظره، كانت ملامح وجهه غريبة لم يفلح العم ماهان في فهمها، تحركاتنا أصبحت حذرة أكثر، لا ندخل أيّ مكان معًا، حتى شقته، كان يتوجب عليّ الانتظار للتأكد من أنه لا أحد يراقبنا ثم أصدع إليه.

بعد أن تأكّدت من خلو الشارع صعدت إلى شقته.

- ماذا يجري؟ لماذا تبدو شاردًا ومتوترًا؟

- لقد كنتُ في الميناء الشمالي، أخبرني أحد الملاحين أن حكومة المدينة الشمالية عندما علمت بنبأ وفاة العرّاف أرسلت وفدًا رسميًا للنّاجد.

- هل سيتم التحقيق بالأمر من قبلهم؟

- لا أعلم، لكن الوضع غير مستقر، كوني هادئة ولا تقلقي، لم أترك أي أثر خلفي، لكنني قلق بشأن زيارتنا إلى ذلك المسلخ، قد يتم التحقيق مع الحارس.

- لكنك كنت تبدو بهيئة مختلفة تمامًا، ومولينا خارج حدود البلاد الآن.

لم يعلق شيرفين على ما قلت، فقط بدا قلقًا ومتوترًا، وأنا كدتُ أموت خوفًا، ثم قال:

- علينا متابعة عملنا، وكأن شيئًا لم يكن، سوف أكتب رسالة لمافروس أطلب منه أن يحاول تزويدي بأي معلومات متاحة لديه، فأنا بأمس الحاجة لمعرفة ما يجري.

كتب رسالته لمافروس، ثم ذهب للعم ماهان؛ ليخبره أن يسلمها لمافروس فقط إن جاء خالي اليبدين، أما إن حدث غير ذلك، فلا حاجة لتسليمه هذه الرسالة.

مضى أسبوع دون أي لقاء بين العم ماهان ومافروس، أما نحن، فقد أكملنا عملنا بهدوء ودون لقاءات كثيرة؛ حيث أخبرني شيرفين أنه يتوجب عليه الالتفات أيضًا لأعماله التجارية لتحصيل بعض النقود لتسيير أمورنا في الفترة القادمة.

لم يشك به أحد من سكان المدينة أو التجار، فالجميع كان مشغولًا بقضية موت العرّاف، فقد بدأت العامة بمطالبة النّاجد بالإفصاح عن سبب موت العرّاف بشكل واضح، وحتى لو كان ذلك بسبب المرض، على النّاجد الخروج بخطبة رسمية كعادته، وترافقت شكوك الأهالي مع أخبارنا التي نشرناها، ونواصل نشرها، وما زاد الحالة سوءًا، أنه عندما خرجت الجنازة، لم تتح الفرصة لأحد بتوديع العرّاف ضمن الطقوس المعهودة والعتادات المتبعة عند موت أحد الشخصيات المهمة، فلم يرَ أحد جثته أبدًا قبل دفنه، لكن إحدى القضايا المهمة التي يجب حلّها الآن، من سيكون خليفة العرّاف؟ نحن بحاجة، وحتى إن لم نكن بحاجة ماسة إليه، فهو يبقى رمزًا للمدينة، وكانت الفوضى عارمة، أبناء النّاجد الأمناء بدوا في مأزق أمام الشعب الغاضب.

استغل هذا الموقف شيرفين، وكتب جملة واحدة فقط طلب مني نشرها في أوسع نطاق ممكن، فقط هذه الجملة:

"فتشوا منزل العرّاف".

- لم أفهم، ما فائدة هذا الأمر؟ الشعب هنا يا حبيبي لا يستطيع أن يميز إن كان داخل هذا المنزل مواد علاجية أم ضارة كما أخبرتني سابقًا.
- أنا لا أعني ذلك، سوف يجدون أشياء حساسة جدًّا، استمتعي

بمشاهدة ما سيحصل في الأيام القادمة.

مضى شهران الآن بالضبط على انضمام مافروس لأبناء الناجد الأمناء، وما زلنا ننتظر منه معلومات، لكن بسبب الأجواء المتوترة يعتقد شيرفين أنه من الطبيعي أن يتأخر في الرد علينا، فلا بأس.

انتشرت الجملة المحرّضة كالنار بالهشيم، بعد عدة أيام من نشرها تجمهر عدد كبير من الشعب أمام منزل العرف الذي لا يزال تحت حراسة أبناء الناجد، حتى بعد وفاته، لكنهم فقدوا السيطرة على الحشد الغاضب أمامهم، واستمر الوضع هكذا لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، وهذا ما علمناه من صديق أبي في الميناء، وبالتأكيد نحن لم نتواجد في ذلك الاعتصام، وأبي لم يجرؤ على الذهاب.

روى لنا صديق أبي أنه بعد تأزم الوضع، قامت الجموع باقتحام المنزل، فرأت الكثير من الأعشاب والأصناف الغريبة من مواد مطحونة وسوائل غريبة لم يقربوها ولم يألّفوها أيضاً، لكن ما أثار غضبهم، وجود الكثير من المال، الكثير جداً لحدّ الاستغراب، بل والاستنكار أيضاً، فالعرف لم يكن يطلب أجراً ممّن كان يقصده للعلاج.

يتابع صديق أبي سرد مشاهداته:

- في هذه اللحظة وصل عالي المقام مع أربعة من حراسه الشخصيين، كم شعرت بالسعادة والفخر عندما رأيت ابنك مافروس كحارس شرقي لناجِدنا العظيم الذي طلب من الجموع الهدوء، ودخل منزل العرف وحده، وطلب من الجميع الخروج، ثم فرّقهم الحرس زاعمين أن الناجد سوف يخرج علينا بخطبة قريباً؛ ليشرح لنا كل شيء كعادته.

بطل

الالتفاف حول المصيبة فنَّ لا يُتقنه إلا من كان صاحب دهاء وذكاء،
وخبرة في كيفية تسيير الأمور لمصلحته، ناهيك عن تمرسه في استغلال
المصائب؛ لجعلها تبدو هبة إلهية.

فقد بدا شيرفين غاضباً جداً بعد سماعه لخطبة الناجد التي خرج
علينا بها منذ ثلاثة أيام، بعد أن دخل منزل العرّاف أمام الجموع
الغاضبة من شعبنا.

- هذا غير متوقع، لقد استهنتُ بهم يا شيرو، علينا التفكير وإعادة
ترتيب أمورنا من جديد، أنا كنت أجهّز لفضيحة وليس لانتصار.

أعلن الناجد صاحب المقام العالي في خطبته بكثير من التأثر والحزن
العميق أن ظنّه قد خاب، ويشعر أنه قد عُدر به من قبل العرّاف، الذي
وصفه بالمحتال.

"يا شعبي العزيز، لقد وثقتُ به كما وثقتم به، أنا لا أبرئ نفسي
لكنه كان محتالاً وغداراً، فقد كذب علينا جميعاً واستغل ثقتي به، كان
يتاجر بمحاصيلكم مع المدينة الشمالية التي لا تدخر أي جهد، ولا تهدر
أي فرصة لإيذائنا.

انظروا إلى هذه الوثائق، إنها صفقات مشبوهة لا علم لي بها مع
هؤلاء البربريين، لقد درّت عليه مكاسب مادية ضخمة، بالإضافة إلى
استغلاله معرفته الواسعة بالأعشاب، فلا أستبعد أنه تلاعب بعقول بعض
الضعفاء؛ ليكونوا عوناً له لتنفيذ مخططاته، لذا أرجو من الجميع عدم

الاقتراب من تلك الأعشاب في منزله لضمان سلامتكم.

أنا عاجزٌ عن وصف ما أشعر به من أسف وحزن، فقد تعرّضنا للخيانة جميعنا، وأخشى ما أخشاه أن يكون هو من تسبب لي بالعقم، هل لاحظتم أنه حتى شبح الموت لم يقبض روحه بشكل طبيعي؟! لأنه كان رجلاً ظالماً، فقد عُدّب على يد أحدهم وقُتل، فهو لم يمِت بسبب مرضه.

إن من خلّصنا من هذا البلاء هو بطل، أحد الأبطال من أبنائي الأعراف، فقد اعترف لي بما كشفه عن العرّاف المحتال، وكيف تصرف بسرعة وحكمة قبل فوات الأوان، فأوصل لي هذه الوثائق التي تدين العرّاف بشكلٍ قاطع؛ ليكشف حقيقته أمام الجميع، وقد طلب مني عدم كشف هويته، فهو يهدف فقط لخدمة شعبه ولا يبتغي أي شيءٍ آخر، بوركت عائلته التي أنشأته على هذه الصفات الفضيلة.

لذلك علينا أن نعمل يدًا بيدٍ على ضمان أمن مدينتنا من جميع من كان يتعامل معهم ذلك الوغد، إنني أعلن لكم أنه لن يُدفن في أرض مدينتنا المباركة، فلقد أمرتُ بنقل جثته لمكانٍ آخر، أنا لا أطيق وجوده بيننا حتى بعد مماته، وسوف يتم حرق منزله بما فيه من سموم وشرور".

ظهرت الدهشة على جميع وجوه الحاضرين، تعالت الهتافات والتصفيق "يعيش الناجد العظيم .. يعيش" فقد صحت شكوك بعضهم حول موت العراف غير الطبيعي وتواطئه مع من ينشر الأخبار الملوغمة، وعندما همَّ الناجد بمغادرة ساحة المدينة تقدّم أحد العامة وسأله:

- ماذا عن الميناء الشمالي يا سيدي؟

حلَّ الصمت المُطبق فجأة، رد الناجد بكل هدوء:

- كما تعلمون، نحن لا نملك ميناءً في الشمال، وصلتني الشائعات

التي تغزو مدينتنا، ونحن نعمل على معرفة مصدر هذه الأكاذيب والأوهام، أنا متأكد أن المدينة الشمالية أرسلت لنا من يززع استقرارنا وأمننا.. إن كل ما يُنشر ليس له أساس من الصحة، وأكرر .. لا نمك ميناء في الشمال، يمكنكم تمشيط ساحل المدينة كاملاً، أو حتى نبش رمال الشاطئ، لعل ذلك الميناء كامن تحت ذاك الرمل، ومن يجده فليخبرني.

عندما انتهت الخطبة، رأينا بعض الأشخاص مجتمعين يتحدثون عن شيء ما، قال لي شيرفين:

- أقسم أنهم يتحدثون بشأن الميناء، ما هذا الكذب والتزوير الصريح يا شيرو؟ أنا تائه، كيف يقول لا وجود للميناء، لقد كنت هناك قبل عدة أيام، إنه يتلاعب بنا.

- هناك مكيدة أو خديعة ما، هل تظن أنهم أغلقوا الميناء كفعل احترازي؟

- إغلاقه لا يكفي لكي يقنع الشعب بعدم وجوده، على كلِّ حال علينا الذهاب والتأكد، اسبقيني إلى الطريق المؤدي إلى الشمال، وسوف أتبعك، هياً.

- لقد أُزيل بالكامل!

هذا ما قاله شيرفين للعم ماهان عند عودتنا، فقبل عدة ساعات عندما وصلنا لموضع الميناء الشمالي برفقة عدد كبير من الشعب الذي قاده فضوله إلى هناك، وجدنا ركاباً فقط من حطام وبقايا حديد وحجارة وسفن قديمة مركونة هناك، لا شيء غير الحطام والأطلال.

تنهد العم ماهان، الذي لا يعرف شيء عن زيارة شيرفين للعرّاف وقال:

- هؤلاء الأشخاص مستعدون لحرق مدينة بأكملها لضمان سلامتهم والتغطية على أفعالهم، كما فعلوا وأحرقوا منزل العرّاف، لقد تمت

تصفيته ببساطة.

كاد شيرفين أن يُجَنَّ بعد سماعه ملابسات قصة هدم الميناء، فقد ذهب عقب يوم الخطبة إلى أحد التجار الذين كان يتعامل معهم، فأخبره الأخير أن قبل يومين فقط صدر أمر عاجل بإخلاء الميناء، وأبلغ شيرفين أيضًا، أن هناك على ما يبدو أزمة حقيقية هذه المرة بين المدينتين، فقد أغلقت المعابر البحرية التي تربطهما بالكامل.

شعرتُ أن كل ما كنا نخطط له قد انهار في لحظة، ازدادت ثقة الشعب بالنَّاجِدِ أضعافًا مُضاعفة، وما زاد الوضع تعقيدًا في الأسبوع التالي، إعلان كبير حراس القصر أن كل ما وُجِدَ في منزل العراف من أموال كانت مزورة، وأردف كبير الحراس قائلاً:

- لقد نال ذلك الحقير جزاءه، غدر بنا فغدروا به، فاستحق العقاب الذي لحق به، وما حصل معه كان طبيعيًا، فإن من يتعامل مع المدينة الشمالية بالتأكيد سوف تكون عاقبته وخيمة، وهذا ما حدث مع سام.

- أنا أقسم يا شيرو أنهم أخذوا الأموال كي لا يُطالب بها الشعب، اللعنة! لقد استغلوا الموقف بشتى السبل وعلى جميع الأصعدة بشكلٍ ممتاز لمصلحتهم!

- إذا.. ماذا علينا أن نفعل الآن؟

- لا أعلم، لا أعلم.. نحن الآن في مأزق، إنهم يعرفون جيدًا أن هناك أحدًا دخل لمنزل العرَّاف قبل موته، هم يقولون أنه من المدينة الشمالية لتهدئة الشعب فقط، لكنهم يعلمون تمامًا أنه فرد من هذه المدينة، وسوف يباشرون البحث عنه في الأيام القادمة، أنا متأكدٌ من ذلك، وبخصوص تدمير الميناء الشمالي، عليَّ إكمال عملي من خلال ميناء الجنوب، وهذا ما قد يُعرِّضني لمواقف أنا بغنى عنها.

- هل تقصد مقابلة أبي؟

- نعم.

ولم نكنْ نعلم حينذاك أن أبي سوف يسألني عن شيرفين في تلك
الليلة تحديداً.

الفصل الثالث

"نأتي من هاوية مظلمة وننتهي إلى مثيلتها، أما المسافة المضيئة بين
الهاويتين، نسميها حياة".

- نيكوس كازانتزاكيس، كاتب وفيلسوف يوناني.

الحقيقة

عند مغادرتي لشقة شيرفين رأيتُ العم ماهان قادمًا نحوي، ناداني:
- يا ابنتي قبل عشر دقائق مافروس كان هنا، وسلمني هذه الرسالة.
- عمي، أيمكنك إيصالها بنفسك إلى شيرفين؟ عليّ العودة للمنزل
بسرعة.

لم أكنُ أرغب بمعرفة محتوى الرسالة، يكفي ما حصل اليوم، فأنا
أشعر أن رأسي سينفجر، وقلبي سوف يفلت مني.

خلال طريق عودتي كنتُ أفكر كيف سيدخل شيرفين للميناء دون
لفت انتباه أبي، وماذا قد يحدث لو رآه هناك؟ سوف يعلم أنني كنت
أكذب عليه طيلة هذه المدة، وأنني قد أخلفت بوعدني له، بالتأكد حينها
سيكون عائقًا كبيرًا، كنت مشوشة الذهن، لم أستطع الوصول إلى حل أو
طريق واضح.

دخلت المنزل، وليست لي أي رغبة بسماع أي شيء أو التحدث مع أي
أحد، لكن أبي طلب مني أن أجلس إلى جانبه لمناقشة شيء ما؛ حيث كان
يبدو أنه قد انتظر قدومي عمدًا.

- بابا.. أنا متعبة، أيمكننا تأجيل الأمر للغد؟

- لا يا حبيبتي، إنه أمرٌ مُلحٌ.

أقلقني كلامه، وقفزت لمخيلتي عدة احتمالات، وافقتُ على مضض،
وجلستُ بجانبه شاردة الذهن أفكر بما قد يبوح به لي.

- حبيبتى، عليّ إخبارك بشيءٍ مُهم للغاية، وأود أن تسامحني على ذلك.

- ماذا هناك يا أبى؟ هل أنت بخير؟

فقد بدا متوترًا وتائهًا، وتظهر عليه علامات التعب.

- أنا بخير، شيرو، أنا أعرف أنك ما زلتِ تُقابلين شيرفين...

تسارعت نبضات قلبي وجحظت عيني فور سماعي كلامه، حاولت قول شيء، لكنه أومأ لي كي لا أتفوه بأي شيء.

- اسمعيني فقط.. لقد شاهدتكما معًا عدة مرات خلال هذه الأسابيع، لستُ غاضبًا منك، إنى أتفهم ذلك.

على الفور تذكرتُ ردة فعله عندما ذكرتُ أمامه اسم شيرفين حين تقابلنا مجددًا، وشعرتُ بالحيرة:

- لم أفهم لماذا لم تردعني أو تصارحني بالأمر؟

تنهد أبى:

- سأعود إلى بداية القصة، هل تذكرين ذلك اليوم قبل عشر سنوات عندما قابلتِ شيرفين في الميناء خلال استلامنا شحنة خاصة بالعرّاف؟

- نعم، أتذكره جيدًا.

- في ذلك اليوم جاء إليّ العرّاف، وطلب مني الابتعاد عن القبطان دياز وابنه، ولح لي أنه لا يُحبذ رؤيتك مع شيرفين، حاولتُ الاستفسار عن السبب، لكنه لم يجبني بشكل واضح، وجّه كلامه إليّ بطريقة الأمر الواجب تنفيذه؛ لذلك عندما أخبرتني أن شيرفين في المدينة وطلبتُ منك عدم مقابلته، كنتُ حادًا جدًّا في ردة فعلي، أعلم ذلك، لكن كنتُ خائفًا عليك.

- من شيرفين؟

- لا، أنا كنتُ أحب والده وأحترمه؛ فهو شخصٌ جيد، ولكن تملّكني الخوف عليكِ من العرّاف، لقد راودني القلق عما يُمكن أن يفعله إن رآكما ثانيةً؛ لذلك حاولت منعكِ.

- وبعدهما عرفتُ أنني ما زلتُ على تواصلٍ معه، لماذا لم توقفني؟
- لأنني لا أصدق العرّاف، منذ البداية لم آخذ طلبه على محمل الجد، وأظن أنه قد تكلم مع دياز بخصوص الأمر نفسه أيضًا.
- نعم، لقد فعل.

- توقعت ذلك، بعد موته الآن وكشف حقيقته المخزية أمام الجميع، علمتُ أن إحساسي كان صحيحًا.. دياز وابنه ليسا أناسًا سيئين، لكن العرّاف كان قلقًا حيال افتضاح أمره إن تقربتُ من القبطان دياز.
- أبي، أنا آسفة.

- لا تعتذري، أنا لم أكن واضحًا معكِ منذ البداية، الآن قولي لي كيف حال السيد دياز؟
- لقد توفي.

لم أقل له أنه قد قُتل.

- يا إلهي، متى؟

- العام الفائت.

- للأسف.. لقد كان رجلًا طيبًا، ليتني استطعتُ رؤيته قبل وفاته وتوديعه، وشيرفين ماذا يفعل هنا؟

- جاء لإكمال عمل أبيه في التجارة.

- رائع، إنه شابٌ مُجدِّ، هل يقطن هنا بمفرده؟

- شعرتُ أن السؤال ملغوم، كذبتُ وقلتُ له:

- لا، يَقطن مع شخصٍ يُدعى ماهان، يمتلك متجرًا لبيع التحف والنوادر يُدعى متجر الذكريات؛ حيث قال لي أنه كان يعمل ملاحًا بجانب أبيه.

- مهلاً.. ماهان؟! نعم، إنني أتذكره جيدًا.. أخبرني شيرفين أن يأتي إلى الميناء، سوف أكون سعيدًا بمقابلته مجددًا، لعلني أستطيع مساعدته في عمله.

- حسنًا، سوف أخبره، شكرًا لك يا أبي، أنا آسفة على إخفاء الأمر عنك، لكنك دائمًا أذكى مني.

ضحك أبي وقبّلني، وخذل للنوم.

صدقت توقعات شيرفين عندما قال لي أنه متأكد أن العرّاف قد تكلم مع أبي بخصوصه في ذاك اليوم عندما رأنا في الميناء، يا له من ماكر وخبيث، لقد أصبح مكروهًا من قبل الجميع، على الرغم من عدم كشف جميع الحقائق لغاية الآن.

أبي شخص طيب وضعيف القلب، ولم أكن أرغب بتوريثه بما يحصل، وحتى بعد أن أسرّ لي أنه لم يكن يثق بالعرّاف، لكن يبقى حاله كحال بقية أهل المدينة، يحرصون على عدم التورط بأيّ مشكلة؛ ليحافظوا على سير الحياة كما هي بلوها ومرّها.

شعرت بالسعادة والراحة، الآن يستطيع شيرفين تسيير أعماله دون قلق وبمساعدة أبي، لقد حلّت المشكلة التي أشغلتني خلال طريق عودتي للمنزل اليوم، وغرقت في نوم عميق بعد مصارحة أبي واعتذاره لي، ولم أكن أعلم بما حملت رسالة مافروس من خطر ومصائب.

توت أحمر

عندما استيقظتُ صباحاً ذهبْتُ من فوري لأخبر شيرفين بما حدث ليلة أمس، وصلت إلى ساحة المدينة واشترت من أحد الباعة توتاً أحمر، هذا اللون المفضل لشيرفين، سوف يُسعد بالتوت والأخبار.

عندما طرقتُ باب شقته، فتح لي العم ماهان، ما الأمر؟ لقد أثار دهشتي، فليس من العادة أن يتواجد هنا باستثناء إن حدث شيء يتطلب وجوده، قال لي:

- شيرفين مضطرب، ابقِ جانبه، عليّ المغادرة.

شكرته على عنايته بشيرفين، والنفتُ إليه قائلة:

- لقد أحضرت لك خبراً جيداً وتوتاً أحمر.

- جيد.. على الأقل سوف أتناول شيئاً أحبه قبل أن ينتهي أمري.

- حبيبي، هل حدث شيءٌ خطير؟

جلستُ بجانبه، ويدي على كتفه، فلم يُقل شيئاً، فقط وضع رسالة مافروس في يدي.

إلى فارس الظلام:

"أعتذرُ عن تأخري في الرد، فقد كان ولا يزال الوضع غير مستقر، إنهم باستنفار كامل بسبب ما حدث، يبحثون عن شخصٍ ما، هم متأكدون أن هناك مكيدة ما وليست حالة طبيعية، وتم اعتقال عدة أشخاص ينتمون إلى مجموعات معارضة بلا أي دليل أو سبب، وسوف

تستمر هذه الاعتقالات ليصلوا إلى مبتغاهم، الخبر وقع عليهم كالصاعقة، والشائعات المنتشرة نخرت عظامهم.

أجروا تفتيشًا وتحقيقًا مع جميع الأفراد هنا، وصولًا إلى العاملين في درب السلام؛ حيث أقرَّ أحد الحراس أنه قابل شخصين غربيين دخلا إلى ذلك المكان عن طريق الحدود الخلفية، وقيل إن أحدهم كان من الدراويش، إنهم يدرسون إمكانية إصدار قرار إبادة جميع المجموعات المعارضة في المدينة، تم تمشيط الغابة كاملة بعد أن دُمِّر الميناء الشمالي لغرض إخماد أي فتنة ممكنة.

إنهم مستنفرون في عملهم، هول المفاجأة أفقدهم زمام المبادرة، فقد ألقى الرعب في قلوبهم، وأضرمت نيران الشك في نفوسهم، فهم يعتقدون أن شركاءهم في الشمال متورطون في موت العرّاف، والعكس صحيح أيضًا، العجوز يريد طفلًا بأي ثمن، مهما حدث للأُم، يريد به بشدة.

نظرتُ إليه متفاجئة، لم أبح له بالخوف الذي انتابني، يبدو أن الوضع خطير، والشكوك القائمة قد توصلهم إلينا في نهاية المطاف.

- أنا لا أريد أن أكون السبب في عذاب هؤلاء الناس والتشكيك بهم، وربما اعتقالهم بسببي، لقد جعلوا كل ما حدث يصبُّ في مصلحتهم، اللعنة! إنهم منتشرون في كل مكان، والحراسة مشددة.

- شيرفين حبيبي، أنت لم تفعل كل هذا، نحن نتعامل مع أناس بلا رحمة، أقل حدث أو خبر يزعجهم سوف يدفعهم لممارسة الظلم على الضعفاء؛ لكي يصلوا إلى هدفهم، عليك التفكير فقط كيف يمكننا إنهاء هذا الأمر بأسرع وقت ممكن، نحن لا نستطيع الانسحاب الآن.

- أقرُّ لك أنه قد فاجأني كيف استغنوا عن العرّاف، وعملوا على تشويه سمعته حتى بعد مماته، وإلقاء كل اللوم عليه وإدانته، وحتى قطع علاقاتهم مع حلفائهم، هذا يُعدُّ جبروتًا كبيرًا.

لكني أظن أن العلاقات قد قُطعتُ تمامًا، وأن هناك فتنة واتهامات بينهم ليتقاسموا هذا الخراب، لكن الذي يخيفني، كيف وصلوا في التحقيق إلى درب السلام؟ ما الذي أثار مخاوفهم؟ لا أفهم الرابط بين موت العَرَاف وهذا الأمر.

ضغطتُ على يده:

- هل أنت خائف؟

- بالتأكيد، لكن كلمة تائه مناسبة أكثر لحالتي.. رؤيتي للأمور الآن ضبابية مضطربة، إني كالغيمة التي تتلاعب بها الرياح، تتردد بين الشمس والقمر، فلا هي شمسٌ تضيء، ولا قمرٌ ينير، ولا سحابةٌ مثقلةٌ بالغيثِ ينتظر منها الناس الخير، فتقذفها الرياح، دون ذكرٍ ولا أثرٍ ولا تأثير.

- حسنًا، سوف ننتظر القادم من الأيام ونرى ما يُمكننا فعله، لكن لديّ طلبٌ واحد فقط.. أرجوك إن شعرت بأي خطر محقق حولك، اهرب، وحتى إن كانت العودة مستحيلة، فقط احرص على أن تكون بخير.

عانقني بشدة، وقال لي:

- أنا أحبكِ جدًّا، ما الخبر الجيد الذي أحضرتَه مع التوت الأحمر؟

ابتسمتُ لأطمئنهُ:

- إنه أبي، يريد لقاءك ومساعدتك في أمور التجارة.

صفرَ وضحك:

- كيف ذلك؟

دائمًا يفاجئني بقدرته على تبدل مزاجه بسرعة هائلة، أخبرته ما حصل ليلة أمس وأطعمته بعض التوت الذي لطح شفثيه وأصابعي، وعندما انتهيتُ كان متحمسًا جدًّا، وذهب ليبدل ثيابه وقال لي بصوت مرتفع:

- هيا، خذيني إليه.

وصلنا إلى الميناء، وكان شيرفين يرتدي ثياباً رسمية بعض الشيء لا توائم ذوقه الصاحب المعتاد.

دخل إلى مكتب أبي متبخرًا، والذي رحب به بحرارة، واعتذر منه عما حصل سابقًا، ضحك شيرفين وقال:

- لكل شيءٍ وقته، وبدأ يتحدث بأمر التجارة.

خرجتُ وجلستُ على مصطبة الميناء كسابق عهدي، وجاء شيرفين بعد ساعة تقريبا، وجلس بجانبني، فسألته:

- ماذا حدث؟

قال:

- لقد طلبتِكِ منه للزواج، فوافق.

- يكفي مزاحًا، هل وافق على مساعدتك؟

- بالتأكيد وافق، وبكل حب، شيرو، والدك شخص طيب، أخبرني أنه منذ البداية لا يحب العزاف ولا يصدِّقه، وما حصل من سوء فهم أو شرخ بيننا على حد تعبيره كان بسببه، لكنه يرى أن الناجد رمز العدالة هنا، وهو فخور جدًا بالمكانة التي حظي بها مافروس، وبالطبع حاولتُ مجاراته، لكنه منغمس جدًا في هذه الأحاسيس.

- أعلم هذا، لا بأس، سوف يتضح له كل شيء لاحقًا.

- لقد دعاني والدك إلى العشاء نهاية الأسبوع القادم أنا والعم ماهان الذي أقطن عنده.

في ذلك اليوم عدنا إلى شقته، تناولنا المتبقي من التوت الأحمر مع الجبن، واتسخت ثياب شيرفين باللون الأحمر الذي بقي عالقًا في مخيلتي مدى الحياة، ولكن ليس بسبب التوت.

العاصفة

بذور الحزن تُزرع في القلب ثم تنمو جذوره وتتمدد، بعد أن تتشرب خيبتنا وانكساراتنا المتتالية حتى تُغطي القلب بشكل كامل، أو تُشكّل هوة يسقط فيها بعض الأشخاص غير القادرين على مقاومة هذا الشعور الجامح؛ لذلك قُدِّر لهم اختيار أحد الطرق المتاحة، إما مواجهة هذا الحزن بقوةٍ لا أعلم من أين يتم الاستعانة بها، أو التعايش معه والرضوخ له كالمحتل الغاشم، أو إنهاء كل شيء والتخلي عن خيار الاستمرارية في هذه الحياة.

مضى ذاك الأسبوع بهدوء بعد لقاء أبي بشيرفين؛ حيث بدأ شيرفين يتواجد في الميناء بشكلٍ مستمر، وينشر دعاياته هنا وهناك، لقد امتلأ رصيف الميناء بدعايات شيرفين وضحكاته أكثر من الأخبار التي نعمل على نشرها.

لم نحظْ بأي خبر جديد من مافروس، ولم نَرَ أي حركة غريبة تحدث بين السكان باستثناء بعض التحركات البطيئة في الخفاء من التجار؛ لإعادة إحياء التجارة مع المدينة الشمالية تحت غطاء قبول ورضا السلطة والمسؤولين ذوي أصحاب المصالح.

كمنازل مدينتنا الملونة، بدأ يتلون شيرفين مع هذا وذاك، ويوسع علاقاته أكثر فأكثر، وأصبح يجني مبالغ جيدة من أعماله التجارية وخدماته الأخرى التي يبرع في تقديمها، فقد بدأ يفسر لكل من يخطو في هذه المدينة معنى اسمه، ويتحدث معه عن سفراته واكتشافاته العديدة.

أنا بالفعل لا أستطيع أن أفهم كيف يفكر هذا الشاب، إنه ينتقل من حالة الى أخرى بسرعة كبيرة، باستثناء حالات الحزن التي تصيب قلبه بعمق، وتجعله يعتزل نفسه والعالم لفترة طويلة.

أخبر العم ماهان بالدعوة التي قدّمها أبي لهما، وطلب منه تجهيز الملابس المناسبة ليرتديها.

وأعدت أمي أصنافاً متنوعة من الطعام؛ حيث طلبت من أبي إحضار كل الخيرات التي يوجد بها البحر علينا لطهوها اليوم مع الأرز والخضار المشوي، وأنا أعددتُ بعض الحلويات التي يُفضّلها شيرفين تحديداً.

حرصتُ في هذه الليلة على ارتداء ثياب جميلة حمراء اللون كما يُفضّل شيرفين، بعد تردد وحيرة ارتديتُ ذات الثوب الأحمر الذي أشاد به من قبل عندما تقابلنا حينذاك، وبينما كنت منشغلة بترتيب مائدة العشاء، لمحتُ والدتي تتحدث مع أبي بصوتٍ منخفض، وكانت تبدو سعيدة جداً ومتحمسة لهذه الدعوة، ما أثار شكوكي أن يكون أبي قد أخبرها أو لمّح لها بشكوكه حول علاقتي بشيرفين، لم أبالي بهذا الأمر، كل ما يهمني الآن، هو أن تمضي هذه الشهور بخير حسب مسار الخطة؛ حتى ننجح في لمّ شملنا مع مافروس وسديم وطفلتها الجميلة، فور تفكيري بها، أنّبتُ نفسي على عدم زيارتها مؤخراً، وعزمتُ على رؤيتها يوم غد.

وصل شيرفين بكامل هندامه الذي كان وقوراً أكثر من اللازم؛ حيث كان يرتدي بزّة رسمية رمادية اللون وقميصاً بلون السماء، أما العم ماهان فقد كان يحمل هدية لأبي عبارة عن لوحة يظهر فيها مشهد سفينة كبيرة تمخر عُباب البحر ضمن أجواء عاصفة تشبه طقس اليوم، فقد كان شعر شيرفين يتطاير حول وجهه الجميل بسبب العاصفة والأمطار.

رحب والدائيّ بهما بحرارة وجلسنا على مائدة الطعام، وكان شيرفين

يتكلم ويضحك كأنه جزء من هذه العائلة، عندما انتهينا من الطعام اقترب مني وهمس لي:

- والدتك جميلة يا شيرو.. لم ترثي منها الكثير.

وابتسم بغرض أن يستفزني.

وبينما كنتُ أُحَضِّرُ الحلويات، فوجئنا بطرق على باب المنزل في هذا الوقت، خلف الباب كان هناك خمسة من أبناء الناجِدِ الأُمْناء، ألقوا التحية على أبي بفتور وقالوا له:

- نريد التحدث معك بشأنِ مُهم.

سمعتُ أبي يقول:

- تفضلوا، أهلاً وسهلاً بكم.

دخلوا، ونظراتهم تمشط وجوهنا بحذر، قال أحدهم:

- نأسف على مقاطعة أمسيتكم الجميلة يا سادة، لكن نود أن نسأل؛ هل مافروس هنا؟

ارتجف شيرفين، والتقطتُ خوفه على الفور، ظهرت علامات التعجب على ملامح أبي، وقال:

- لا يا بُني، يُفترض أن يكون في خدمته، وعلى رأس عمله الآن.

- حسناً، شكراً لك.

وهمَّ بالخروج، لكن استوقفته والدتي، وقالت:

- هل أصاب ابني أيُّ مكروه؟

قال الرجل بهدوء:

- لا، ليس بعد.

وغادروا.

جفل شيرفين وطلب الذهاب إلى المرحاض، أمي كتمت دموعها أمام العم ماهان الذي بدا مرتبكا وعاجزا عن نطق أي كلمة، حتى أنقذه صوت شيرفين الذي قال:

- علينا المغادرة يا عمي، فأنا أشعر بتوَعك.

اعتذر أبي، واعتذر العم ماهان أيضًا، ولا أعلم كم اعتذار سوف يفني بالغرض في الأيام القادمة لإعادة مسار الأمور إلى مجراها الطبيعي.

نظر إليَّ شيرفين قبل أن يغادر، وفهمتُ ما يجول في رأسه، ومن نافذة حجرتي، رأيته يخلع حذاءه ومعطف البزة الثقيل، ويركض كعداءٍ محترف، بينما تهطل الأمطار بغزارة وتُغرق طرقات المدينة، في حين بقي العم ماهان جالسًا على حافة الطريق مطأطئ الرأس، وقطرات المطر تتساقط من شعره وأنفه بحزن.

راقبتُ شيرفين حتى اختفى عن نظري، وبعد تلك الليلة غاب عني ثلاثة أيام كاملة.

جلس أبي يحاول تهدئة أمي التي أغرقت الدموع وجهها، على الرغم من خوفه الذي حاول إخفائه أمامنا، فقد كان مرتبكا جدًا، يخرج الكلام من فمه قبل أن يتفكّر به، شعرتُ أنه يهذي فقط لا غير، وبعد ساعة نهض وقال لي:

- سوف أخرج، وأحاول معرفة ما الذي يجري.

- لا يا أبي ارجوك، ليس من الصواب فعل هذا، فقد يكون في مهمة سرية، أنت تعلم لقد أصبح من حراس الناجد الشرفيين، وهذا المنصب حساس جدًا.

- أجل أنت محقّة يا حبيبتي، لا خوف عليه، ما فروس شجاع ولا خوف عليه.

- نعم، لا خوف على ما فروس، الخوف علينا مما سوف يحدث معنا

في الأيام القادمة التي أعدها أسوأ فترات حياتي.

أمضيتُ تلك الليلة جالسةً على مائدة الطعام برفقة الحلويات التي لم تُمسُّ أفكر بجميع الاحتمالات الواردة، كنت أواسي نفسي؛ ليهدأ قلبي، وكلي ثقة أن شيرفين سوف يحسن التصرف أيًا كانت المصيبة التي تورط بها مافروس.

مافروس

اهرب يا مافروس، اهرب، اركض ولا تلتفت إلى الخلف، لا شيء ينتظرك هنا، اركض بأقصى سرعة؛ لعل الزمن يتوقف وتصل إلى حافة الكون، أو لعل الإله يُشفق عليك وينبت لك أجنحة، فأنت بطيء جداً، عليك التحليق والإسراع بالخروج من هذا المكان، عليك أن تنجو بريشك، وحتى إن لم تكن تملك ريشاً.. أنت البطل والجاني والضحية، فلا تتوقف هنا.

في الليلة الثالثة بعد مغادرة شيرفين منزلنا على عجل تحت وقع الأمطار الغزيرة، كنت أتأمل نجوم السماء من نافذتي، محاولة التعايش مع قلقي الذي بدأ يزداد شيئاً فشيئاً، فلقد هاجمتني هواجسي بكل ما أوتيت من قوة، فبتُّ في حيرةٍ من أمري، هل سوف أسمع نبأً سيئاً عن أخي الصغير قريباً، أم عليّ الوثوق بتدابير شيرفين؟ وبينما أنا غارقةٌ في أفكاري السوداء شعرتُ بحركة غريبة بالقرب من نافذتي، هناك شخص يتحرك بريبة وتردد، وعندما اقترب رأيتُ عينيَّ شيرفين، قفز قلبي من مكانه، وارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهي، أصبح قريباً جداً من نافذتي، ومن دون أن يلتفت إليّ، رمى لي شيئاً، ثم اختفى في جنح الظلام.

كانت قارورة زجاجية بداخلها ورقة، كتب فيها:

"لديّ أخبارٌ جيدة، سوف نلتقي غداً صباحاً في مكاننا المعهود".

اجتاحني فرحةٌ غامرة، وبتُّ أحصي الدقائق لتشرق شمس الغد.

- حبيبتي شيرو اشتقتُ لكِ.

عانقني بشدة، وكان لا يزال يرتدي ذات الثياب التي جاء فيها إلى
أمسية العشاء، وعلامات التعب والإنهاك واضحةً عليه، جلسنا على جذع
شجرة وأسندتُ رأسي على كتفه.

- حبيبتي، كما قُلْتُ لكِ لديَّ أخبارٌ جيدة، لكن لا يخلو الأمر من
بعض التعقيدات.

- حسنًا، ماذا حصل؟ أخبرني، لقد داهمني القلق والخوف منذ تلك
الليلة، ولكنني أثق بك.

- الأخبار الجيدة أن مافروس بخير، وهو الآن في أمان خارج المدينة.
نظرتُ إليه مستفسرة، فأكمل قائلاً:

- تلك الليلة، عندما جاء أولئك الأوغاد وأفسدوا أمسيتنا، فهمتُ على
الفور أن مافروس قد فرَّ هاربًا، وعلى الأرجح سوف يذهب إلى منزلي
تحديدًا، وصلتُ إلى شقتي لاهتًا ومبلاً بشكل كامل بسبب الأمطار، لم
أجده أمام شقتي، فكرتُ في جميع الاحتمالات، إلى أين يُمكن أن يتوجه؟
وإلى من سوف يلجأ؟ لا أعلم كيف خطر لي أن أتفقد قبو المبنى، وجدته
هناك في الزاوية يرتجف بردًا، في يده خنجر يقطر دمًا.

شدتُ على يده، ورأى الخوف في عيني، أكمل شيرفين قائلاً:

- في تلك اللحظة لم أدري ماذا عليَّ أن أفعل، فقط طلبتُ منه أن يهدأ؛
لأنني لم أكن أفهم أي كلمة يقولها، فقد كانت كلماته مختلطة بالدموع
والخوف، دخلنا إلى المطبخ، المكان الوحيد في شقتي الذي يحوي نافذة
تطل على الشارع الخلفي ويُمكن القفز منها، سهلة جدًا تلك القفزة على
شخص مثل مافروس.

سوف أحاول تلخيص ما قاله لي مافروس، بعد كل الأحداث التي
سبقت وتلت موت العرَّاف، ازداد قلق الناجد وشكّه، وكانت دائرة الشك

تضييق حول سديم، فقد ظن الناجد أنها هي من تقوم بتسريب الأخبار إلى الخارج بغية الانتقام منه، بدأ باستجوابها دون اللجوء للتعذيب، ولم يصل إلى أي نتيجة، وبعد عدة أيام علم الناجد، أو قد بدأ يشك أن هناك علاقة بين سديم ومافروس، لكنه لم يمانع، فهو ينتظر طفلاً بفارغ الصبر، وبأي طريقة ممكنة، في تلك الليلة قبل هروبه وصلت للناجد الشائعة التي نشرناها، "قصر مشيدٌ فوق جثثكم"، جُنَّ جنونه وذهب لـحجرة سديم وعنفها، ورغم صوت بكائها وتوسلاتها التي وصلت إلى خارج القصر، لم يستطع مافروس الوصول إليها أو إيقاف عذابها.

- يا له من مسكين، لقد تحمّل الكثير من الألم والذل.

- أجل، كان يبكي أمامي بحرقّة شديدة، بعد أن غادر الناجد جاءت سديم إلى حجرته، وسلّمته بعض الوثائق المهمة وطلبت منه أن يهرب، وقالت له:

- في هذا المكان لن تجد إلا الموت، عليك أن تعيش من أجل ابنتنا.

وعندما خرجت من حجرته رآها كبير الحرس الذي لم يجد مبرراً لوجودها في ذلك المكان سوى محاولة نسج مكيدة أو إعداد خيانة ما، وأطلق أوامره للحراس باعتقالها واعتقال مافروس، بينما كانت هي تصرخ:

- اهرب، أرجوك اهرب!

وخيلٌ لمافروس أنها نطقت بكلمات أخرى، لكنه لم يتذكرها ليبوح بها لي.

قبل أن ينجحوا بتحطيم باب حجرته، قفز من النافذة وبيده الوثائق والخنجر، اشتبك مع عدة حراس أثناء هروبه، لكنه أجبرهم على التنحي عن طريقه بالعنف، وقال لي:

- لا أعلم إن قتلتُ أحدًا منهم أم لا، كانت هناك دماء كثيرة تتبعني!

خرج من حديقة القصر الخلفية إلى الغابة، والتف حول المدينة؛
ليضل الحراس في حال لحقوا به، والغريب بالأمر أنه لم يرَ أحدًا يتبعه.
- لا أخفيك يا شيرو أنه كان مئخن الجراح، مكسور القلب، مدمر
الفؤاد، لكنه لا يشعر بأي ألم من شدة الخوف، كان فقط قلقًا على سديم،
وأسفًا على توريطي.

العاصفة كانت قوية جدًّا، والأمطار غزيرة، أزلنا كل أثر خلفناه من
دماء ودموع عندما خرجنا من منزلي قبل ساعة الفجر بعد أن خلع بزته
الزرقاء، كنت أعلم أن هناك سفينة تجارية سوف تنطلق صباحًا إلى
مدينتي، ذهبنا إلى الميناء؛ حيث دخلت بشكل طبيعي، ومافروس سبح من
بداية رصيف الميناء إلى موضع السفينة الجاثمة فوق صفحة الماء،
وأخبرت طاقم السفينة أنني سوف أسافر معهم، وأن القبطان يعلم بذلك،
وبالطبع استخدمتُ صيت والدي وذكره لإقناعهم، ساعدتُ مافروس في
الصعود إلى السفينة، وأخفيته في أحد الصناديق التجارية.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وقال لي شيرفين:

- لماذا تبكين؟ صدقيني إنه بأمان الآن، بعد وصولنا إلى مدينتي
أخذته إلى منزلي؛ حيث كان بحاجة ماسة للاستحمام وارتداء ملابس
جديدة، لكنه غرق في نوم عميق ليوم كامل، وبعد أن استيقظ من غيبوبته،
سافر إلى المدينة الشرقية بعد أن تحدثتُ مع أحد أصدقاء أبي القدماء؛
لكي يسهل لنا الأمر.

- شكرًا لك يا شيرفين، أنت شخص رائع! أنا سعيدة بسماع هذه
الأخبار الجيدة.

- لكن يا شيرو، علينا الحذر، الأيام القادمة سوف تكون صعبة،
مافروس بأمان، أما نحن فلا.

- أجل أتفهّم ذلك، شيرفين لطالما وددتُ أن أسألك، من أين لك هذه

المعرفة الواسعة بالطرق البرية وسُبل السفر غير المشروعة؟

راح يعبث بخصلات شعره وقال:

- الفضلُ يعود لأبي، لا أستطيع الجزم أنه اكتفى بالأجر الذي كان يتقاضاه مقابل عمله وعدم فضح أمر الناجد والعزّاف، فقد كان يضطر أحياناً للتعامل مع بعض التجار والمسؤولين الذين لا يرغبون بالظهور بشكلٍ علني في بعض تجارتهم لأسباب معينة، لذلك أنا على علمٍ بأغلب الطرق غير المراقبة، فقد كانت أغلب هذه الأعمال تتم من خلالها.

نظرتُ له بريية، فقد فاجأني كلامه، ثم أردف قائلاً بعد أن قرأ

أفكاري:

- أنا لا أبرئُ أبي تماماً من أعمال التجارة غير القانونية، لكنه لم يَكُن يستحق هذه النهاية.. هو لم يؤذِ أحداً، فقط استخدم نفوذه ومعارفه لتسيير أعماله وتحسين ظروفنا المعيشية، وأنا أعدك يا حبيبتي أنني لن أسلك ذات الطرق الملتوية مهما حدث، فلا يروق لي أن أنتهي كضحيةٍ مغلوبٍ على أمرها في صراع لا شأن لي به.

الفاجعة

الفاجعة لا تأتي بشكل مباشر؛ بل تأتي بخطوات ثابتة وتتسلل ببطء إلى أجسادنا حتى نتجمد تحت وطأتها كما ينتشر السم في الجسد، لتتوقف مقاومتنا بشكل كامل، وعندما تقع الفاجعة تُصدر صوتاً مدياً يثقب الآذان، وتجعل صرخاتنا مكتومة محترقة.

كان من الجيد معرفة أن مافروس قد وصل إلى برِّ الأمان في مكان بعيد عن مملكة الظلام هذه، وعلمتُ من شيرفين أنه طلب من مافروس أخذ الوثائق معه، فقد قال لي:

- من الأفضل لنا أن يتم فضح بعض الأمور من الخارج، إن خطتي تنص على أن يقدم مافروس نفسه على أنه لاجئ في تلك المدينة، وعندما يكشف ما لديه من أوراق ومعلومات سوف يتم نشرها علناً؛ ل يتم التدخل في حلّ هذه القضية من قبل اللجنة الأمنية العليا، حينها لا يمكن للناجِد أن يعترض أو يتهم أحداً من سكان المدينة.

في اليوم التالي، أعلن الناجِد أن لديه ما يقوله لنا، كنتُ بصحبة شيرفين في متجر العم ماهان، الذي علم أن مافروس أصبح خارج المدينة دون أي تفاصيل أخرى.

عندما سمعنا نبأ الخطبة، جفل شيرفين، وقال العم ماهان:

- بالتأكيد إنها بشأن مافروس، لكن لن يذكر أي تفاصيل لحفظ كرامته وهيبته أمام العامة.

ذهبنا إلى الساحة أمام محكمة الشعب في وقتِ الظهر، وجدنا

النَّاجِدِ واقفًا بين حراسه، عند موضع قدميه جسدٌ مُلقى على الأرض، ممدد ومغطى بالكامل، كان والدايَّ قد وصلا وألقيا التحية على شيرفين والعم ماهان، بدأ النَّاجِدِ خطبته بالكلام المعسول كعادته، وأردف قائلاً:

"أنا آسف لنقلي لكم هذه الأخبار، لكن ليلة أمس تعرضنا لخيانة جديدة، أحد المنتسبين الجُدد قد فرَّ هاربًا بعد أن التجأت إليَّ فتاةٌ مسكينة، واشتكت لي أن ذلك الوغد قد اعتدى عليها وعنفها، لكن حدس ذلك الوضع قد قاده لفعلٍ شنيع، فبعد فراره من القصر ذهب على الفور إلى منزل هذه الفتاة البريئة وقتلها، بعد أن اعتدى عليها مجددًا".

سقط العم ماهان أرضًا، فقد فهم أن المعني بالأمر هو أخي، وشيرفين همس لي:

- علينا الانسحاب.

بيد أن صوت النَّاجِدِ جمّد الدم في عروقنا عندما أعلن اسم أخي بشكل صريح، وطلب من أبي المثل أمامه، بدأت أمي تنوح وتبكي، شق طريقه أبي مطأطأ الرأس أمام سيل شتائم العامة التي أخرجها النَّاجِدِ عندما قال:

- التزموا الصمت، هذا الرجل الطيب لا علاقة له بابنه العاق، هيّا اقترب أكثر.

اقترب أبي من النَّاجِدِ، وبدأ يتوسل له بكلامٍ غير مفهوم، قال كبير الحرس:

- لا بأس، نحن نعلم أن لا شأن لك بما حدث، لكن أخبرنا أين مافروس؟ علينا محاكمته.

قال أبي:

- لا أعرف، صدّقني، لم أره منذ أن جاء إلى زيارتنا بعد تعيينه في القصر.

لم يحاول أبي التبرير أو الشفاعة لابنه، فهو يعرف جيداً أن هذا لن يفيد، وتحرك أحد الحراس وكشف الغطاء عن ذلك الجسد، قبضت على يد شيرفين بقوة، وببيدي الأخرى كتمتُ صرختي عندما رأيتُ ذلك الجسد المشوه، كان الوجه محترقاً بالكامل، إنها سديم! عرفتها على الفور فقد كانت ترتدي قلادة أخي مافروس،

لا أعلم إن لاحظ أحدٌ غيري تلك القلادة، فقد كان والدي يتلوى المأً وخزياً تحت وطأة الناَجِد ونظرات العامة، وأمي تنتحب وتردد بصوت متقطع "هذا لا يمكن، ابني بريء".

شعرتُ بدمي يغلي، فقد وجهوا له تهمةً سوف تلتصق بعائلتنا أبد الدهر وقتلوا سديم، حتى إنني لم أحظُ برؤية وجهها!
قال كبير الحرس:

- سوف نصدِّقك، شرط أن تُقسم الآن لناَجِدنا العظيم أمام الجميع أنك سوف تسلم لنا مافروس في حال رأيتَه، أو علمت أين يختبئ، عليك مساعدتنا في إيجادَه.

هزَّ أبي رأسه إيجاباً، وأقسم بتسليم ابنه لهؤلاء الظلام، وعاد إلينا صاحبَ الوجه، وأعلن كبير الحرس أمام الجميع أنه يتوجب على أيِّ أحدٍ من سكان المدينة لديه معلومة قد توصل إلى مافروس، أن يُدلي بها على الفور.

تكلّم الناَجِد قائلاً:

- كلُّ شيءٍ سوف يكون تحت السيطرة كالمعتاد، أنا لا أود أن يدب الخوف في قلوبكم، مدينتنا آمنة وسوف تبقى كذلك أبد الدهر بتكاتفتنا جميعنا ضد المجرمين والمنتمردين، أما هذه الفتاة المسكينة سوف ندفنها في مكان قريب من القصر تكريماً لها، ولأُكفِّر عن ذنبي بعدم قدرتي على حمايتها من ذاك الوغد المتوحش.

حمل أحد أبناء النَّاجِدِ الأَمْناءِ جِثْمانِ سديمِ على كَتفه وذهبَ بها
خلف النَّاجِدِ وعصابته، وساعدتُ أُمِّي على المشي فقد كانت منهاراً تماماً،
وَحُيِّلَ لي أنني لمحتُ النَّاجِدِ ينظرُ إلينا ويبتسم بخبث، فقال لي شيرفين:
- اللعنة.. لن نستطيع معرفة مكان مدفنها!

وتكفَّلَ بأخذ العم ماهان الذي كان حاله ليس أفضل من حال والدتي
بكثير.

ليتني أستطيع أن أطمئن والدائي وأبوح لهما بأن مافروس في أمان
خارج حدود هذه المدينة اللعينة، لكن هذا الأمر قد يجعل أبي في موقف
حرج أو قد يضعف تحت أي ظرف ممكن، لم أرغب بتخيُّل أن يحدث
شيء يُجبر أبي على أن يعترف لهم بالحقيقة، لذلك التزمت الصمت التام،
كان حزني عميقاً على أخي، إنه بعيد عن أرضه وعائلته، وقد فقدَ حبيبته،
ويُنمَّت ابنته.

ذرفتُ الدمع حتى جفت عيني، خارت قواي تحت وطأة ما حدث
اليوم، مظهر الجثة الخارجي كان يوحي أنها تعرضت لتعذيب هائل
لتعترف أين مافروس قبل أن تفارق الحياة تحت أنظارهم، عملوا على
طمس وحرق ملامحها لإخفاء هويتها؛ كي لا يتعرف عليها أحد من سكان
المدينة أو عائلتها، فهي تعد ميته منذ زمن في سجلات المدينة.

ما حصل اليوم أثار الرعب والخوف في نفوس سكان مدينتنا، كما
قال شيرفين:

- إن النَّاجِدِ ومن معه قادرون على جعل أسوأ الأمور تصبَّ في
مصلحتهم وتأويل شرورهم إلى أمجاد.

لم أرَ شيرفين بعد تلك الحادثة، فقد بقيتُ بجوار والدتي طريحة
الفرش ثلاثة أيام كاملة، ووالدي لازم المنزل طيلة هذه الفترة ولم يذهب
إلى الميناء، فقد كان متوتراً جداً وبحالة سيئة.

إن الموت والحياة في مدينتنا شيئان مترابطان جدًّا كالظل والنور،
ومن يُحالفه الحظ بحياة وموت كريمين، فقد حظيَ بهبةٍ من السماء،
وهذا ما لم تحصل عليه سديم، لم تعش بكرامة، ولم تَمُتْ بكرامة أيضًا،
فأرقت الحياة عن عمرٍ ناهز ستة وعشرين عامًا، لن أقول ربيعًا؛ لأنها
بالتأكيد لم تشهد أي ربيع طيلة حياتها التي قاست فيها عذابًا دام لعشرة
أعوامٍ عجاف بلا أي ذنب. وتركت خلفها طفلة رضيعة بلا أم وبلا أب
وبلا اسم.

ظلام دامس

بعد تحسُّن حالة أُمِّي قليلاً، وتحت جناح الظلام، خرجتُ هائمةً على وجهي بلا هدف حتى وجدتُ نفسي أمام مسكن شيرفين، كان الوقت متأخراً جداً والشوارع خالية، صعدتُ شقته، وطرقتُ الباب بحذرٍ وهدوء، ففتح لي شيرفين، وبدا كأنه لم ينم منذ أيام.

- ادخلي؛ فالنوم يجافيني.

- أريد الذهاب إلى الجبل، جدران هذه المدينة تخنقني.

- حسناً.. اذهبي وسوف أتبعك.

بعد مسير قرابة الساعة وصلنا إلى بقعةٍ هادئةٍ بالقرب من أحد الوديان في سفح الجبل، جلستُ بجانب الوادي وانتظرتُ شيرفين، فقد ذهب يتجول في الأرجاء؛ ليتأكد من عدم وجود أحد يراقبنا أو يتبعنا.

عاد بعد وقتٍ وجيزٍ وقال لي:

- ليس هناك شيء يُثير الريبة، لكنني متأكد أننا مراقبون بشكلٍ ما، وبالأخص أنتِ يا حبيبتي، فمن يبحثون عنه يكون أخوك، أنتِ وعائلتكِ أول المشتبه بهم في هذه الحالة.

- أعلم، لكن علينا التحدث قليلاً وإعادة ترتيب أفكارنا، أنا أشعر أنني تائهة وخائفة، متى سوف يتحرك مافروس، ويفصح عما لديه من معلومات؟

- لقد أخبرته أن يبدأ بهذه الخطة عند اقتراب موعد يوم السماء.

- يا إلهي، ثلاثة أشهر! هذا وقت طويل جدًا، لن يتركونا وشأننا طيلة هذه المدة.

- نعم، لم أتوقع أن تنجرف الأمور لهذا المسار، ولا أستطيع إخبار مافروس بما حدث، فقد يجنُّ جنونه، ويتصرف بتهور واندفاع غير مدروس، فقط يمكنني إيصال رسالة له، أن يتعجّل بفعل ما اتفقنا عليه، لكنني أيضًا متوجسُّ من أن الوقت غير مناسب الآن، فقد يستعملون حجة قتل سديم لإدائته وتكذيب أقواله والطعن فيها.

- ما الحل إذا؟

- لا أعلم، أنا أحاول إيجاد مخرج، لكنني ما زلتُ عاجزًا عن ذلك.

عند عودتي، كان لا يزال الظلام الدامس يعم الأرجاء، دخلتُ إلى المنزل برويةٍ وزهبتُ إلى سريري، لكن هذا الظلام يأبى أن يبقى خارج منزلنا.

بعد عدة دقائق من عودتي، سمعنا صوت طرقي عنيف على باب منزلنا، جفلت للحظة فقد خطر لي أنهم كانوا خلفي وجاءوا للقبض عليّ، وربما قبضوا على شيرفين أيضًا لكن بعد عدة ثوانٍ اتضح الأمر، اعتقلوا أبي وسط بكاءٍ وصراخٍ أمي واعتراضاتي، أربعة رجال من حراس الناجد أخذوا أبي عنوةٍ وقيدوه.

لجمتُ غضبي، وطلبتُ من جارتنا أن تبقى بجانب أمي ريثما أعود، تبتعتُ العربية التي كانت متجهة إلى قصر الناجد مباشرة، ووصلت إلى بوابة القصر التي أغلقت بعد دخول العربية وبدأتُ أتوسل للحراس لكي يسمحوا لي بالدخول، وعندما لم تُجدِ توسلاتي نفعًا، قلتُ لهم أنا باقية هنا ولن أغادر، أنا من عامة الشعب، ويحقُّ لي مقابلة الناجد، لن أتحرك من هنا قبل رؤيته والتحدث معه.

أشرقَت الشمس، وأنا جالسةٌ أمام قصر الناجِدِ بكل عناد، والخوف في داخلي يكاد ينهش قلبي.

أقبل كبير الحرس نحوي، وسأل الحراس:

- ماذا يجري هنا؟

وسمحو لي بالدخول.

جلستُ في حجرةٍ كبيرةٍ جدًّا تتسع لجميع العاملين في الميناء، سقفاها بعلوِّ باخرة، لكنها خالية من الأثاث بشكلٍ غريبٍ باستثناء مكتب كبير الحرس المتعجرف.

قال كبير الحرس:

- أنتِ الآنسة شيرو شقيقة مافروس، طالبة في الجامعة، تترادين كلية الآداب، وجئتِ إلى هنا بعد ما حدث ليلة أمس.

- نعم سيدي، أنت محق.

قلتُ ذلك بينما أحاول تمالك أعصابي.

- حسنًا، ما الذي تريدينه؟ أنا هنا لحلِّ مشكلتكِ، وفي حال لم أستطع مساعدتكِ سوف أوصل طلباتكِ للناجِد.

وابتسم لي.

- رجالك اعتقلوا أبي منذ ساعات قليلة، وأريد معرفة...

قاطعني قائلاً:

- لم نعتقله، إنه فقط في ضيافتنا لغاية تفيدنا وتفيدكم يا عزيزتي.

شددتُ على قبضة يدي محاولةً السيطرة على نفسي:

- هل يُمكنني معرفة هذه الغاية؟

- بالتأكيد، هذا من حَقكِ، أنتِ بالتأكيد قد علمتِ بقضية هروب أخيك

وتعرّضه للفتاة المسكينة.

تملكني شعور رهيب، ورغبة جامحة في الإجهاز عليه حالاً، لكنني أومأت له أنني موافقة فقط، ثم أكمل قائلاً:

- لقد تلقينا أوامر تقضي باستضافة والدكِ فترةً من الزمن؛ لعل هذا الأمر يؤثر على أخيك مافروس، ويُسلّم نفسه مقابل أن نُطلق سراح والده.

- إذا أنتم تحاولون استدراج مافروس؟

- نعم، لذلك جعلنا الأمر يبدو كالاقتال، أردنا أن يرانا أكبر عدد ممكن من السكان، لعل أحدهم على صلةٍ أو معرفةً بمكان مافروس، وغداً سوف نُعلن أنه تم اعتقال والدكِ بشكلٍ رسمي؛ لكي نضمن أن يصل الخبر إليه، في هذه المرحلة بالذات نحن نريد مساعدتكم، أرجوكِ أبلغني والدتكِ تحياتنا، وأخبريها حقيقة ما يجري، واعتذري منها نيابةً عنا.

حاولتُ رسم علامات الاقتناع على وجهي، وقلّلت له:

- هل سيطول هذا الأمر يا سيدي؟ فأنت تعلم أن أبي هو معيل أسرتنا الوحيد، وليس لدينا أي مصدر دخلٍ غير عمله.

- نعم بالتأكيد أعلم، لا داعي للقلق، مهما امتدت المدة التي سيبقى فيها والدكِ هنا، لن يتوقف صرف راتبه أبداً.. لقد تدبّرنا هذا الأمر مسبقاً.

شعرتُ بالسوء، هذا يعني أن أبي سوف يبقى حبيساً عندهم لمدة طويلة!

- حسناً فقط سؤال آخر، هل يمكننا رؤيته؟

- بالتأكيد، على الرحب والسعة دائماً.

كتمتُ حقدِي وهممتُ لأخرج، لكنه قال بنبرةٍ لؤم:

- يا آنسة شيرو، هل أنتِ جاهزةٌ للتعاون معنا؟ فقد شعرتُ من نبرةٍ

صوتكِ وحديثكِ معي الآن أنكِ غير مصدّقةٍ لكلامي.

التفت إليه ببرود وابتسمت له قائلة:

- لا يا سيدي ليس كذلك، بالتأكيد أنا جاهزة للتعاون في أي شيء يصب في مصلحة بلدنا، لكن ما يُثير استغرابي أن مافروس كان من أشد المناصرين لسيدي الناجد عالي المقام، ومولعاً بشدة به وبكل ما يتعلق بأبناء الناجد الأُمماء، على الرغم من أن أمي لم تكن ترغب أن ينضم إليكم، وقد عرضت عليه أن تزوجه رغم صغر سنه لعله يُغيّر رأيه، فهو أخي الوحيد، لكنه رفض بشكلٍ قاطع.. لذا أنا أتساءل ما الذي دفعه ليعتدي على تلك الفتاة؟ كما تعلم، هو منتسب جديد، هل يُعقل أنه تعرّف على تلك الفتاة خلال فترة خدمته القصيرة هذه؟ هذا مستحيل بالطبع! وإن كان على معرفةٍ بها من قبل، لماذا لم يُخبر والدتي عنها كي تزوجه إياها؛ بل فضّل الانتساب لكم رغم ذلك؟

نظر إليّ بحقدٍ دفين في عينيه وقال:

- إذا لماذا فعل ذلك برأيك؟

اقتربت منه بشدة وهمست له:

- أظن أنه كان تحت تأثير أعشاب العرّاف اللعين، بعد موت ذاك الوغد علمنا أنه كان قادرًا على التلاعب بعقول الناس، أليس هذا صحيحًا؟ فإن صحّ هذا الأمر، فإن مافروس ضحية وليس مجرمًا.

رأيتُ في عينيه نظرات تستشيط غضبًا، فقد بنيتُ حجتي على كذبتهم، لكنه لم يُظهر لي أي ردة فعل صريحة، فقط قال لي:

- أجل هذا ممكن، شكرًا لك، يمكنك الانصراف الآن.

بالطبع لم أصدق أي شيء مما قاله، نعم إنهم يحاولون استدراج مافروس، لكن أبي معتقل وبظروف سيئة، وليس ضيفًا مكرمًا، ولا أعلم الآن كيف حاله.

أشعر بالعجز والندم، فأنا أعتبر نفسي أحد أسباب إقحام أبي في هذا

الوضع، لا أستطيع فعل شيء الآن، لكن سوف أحاول مواصلة أمني على الأقل بقصة الضيف والمضياف.

الندم

كما قال كبير الحرس في اليوم الذي عقب اعتقال أبي، أعلنوا عن ذلك بشكلٍ رسمي للعامة وسمعتُ شتائم وإهانات من جميع الحاضرين، باستثناء بعض الأصدقاء، أخبرتُ شيرفين بما جرى ليلةً أمس عن طريق رسالةٍ أوصلها له العم ماهان، فقد كنتُ قلقةً من احتمال أن أكون مراقبة. أكملتُ عملي بنشر الأخبار من غير أن أستشير شيرفين، فقد أصبح هدفي تعكير صفو أيامهم، لكن بعد يومين فوجئتُ برسالةٍ لي من شيرفين، دونَ فيها:

"أنا آسف، أنا سبب كلِّ الألم".

اجتاحني رغبة عارمة لأعانقه وأقول له أنني لستُ غاضبةً منه ولا نادمة على مساعدتي له، في المقابل أنا من ألوم نفسي على ما جرى بعائلتي.

في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى الميناء، وجدتُ شيرفين هناك يسيرُ أعماله التجارية، همستُ له "سوف نتقابل بعد ساعة عند الوادي".

- شيرفين حبيبي، ماذا يدور في رأسك؟

ومسدتُ شعره الذي كان في حجري.

قال بصوتٍ متقطع:

- أنا كنتُ سبب فقدانك أخيك، موت سديم، اعتقال والدك، ولا أعلم ما الذي ينتظرنا في الأيام القادمة.

ضحكتُ وقُلْتُ له:

- وجودك هو من ساعد أخي على الفرار، أعلم أننا فشلنا في حماية
سديم.

وشددتُ على استخدام صيغة الجمع لأقول له:

- إننا في كفةٍ واحدة، لولا وجودك بجانبني، أخي كان سيُقتل بجانبها،
ومن يعلم، ربما كنتُ فقدتُ أمي وأبي حزناً على موت أخي، أرجوك
توقف عن هذا التفكير، أنا أثق بك.

- لديك خيالٌ واسع، ورغم كلامك، أنا أشعر بالذنب ولا أعلم كيف
يتوجّب عليّ تكفيره، لكن مبدئياً علينا الاستمرار بمسيرتنا في نشر
الشائعات، بدوري سوف أرسل رسالةً لمافروس ليبدأ بكشف أوراقه، أظن
أن الرسالة قد تحتاج أسبوعاً لتصله، عليكِ ملاحظة رجال الناجد، يجب أن
تبقي مُصرّةً على رؤية والدك باستمرار؛ لكي نتأكد أنه لا يتعرض
للتعذيب أو لمعاملة سيئة.

- نعم، هذا ما يقلقني بالفعل.

- أنا آسف يا شيرو، لا أملك أيّ حلٍ الآن لإخراج والدك.

فشلت جميع محاولاتي في تخفيف شعور الندم الذي سيطر على
شيرفين في تلك اللحظة، والذي بدأ بالتزايد بعد شهر من لقائنا هذا.

زرتُ أبي خمس مرات خلال الأسابيع الثلاثة التالية، كان يبدو بحالة
جيدة، أخبرني أنه نزيل في حجرة عادية وليست زنانة، ويأكل بشكل جيد
مرتين في اليوم، فضلاً عن أنه لم يتعرض لأيّ تعذيب أو تحقيق حتى الآن،
كان تعيساً، قال لي:

- لم أتخيّل يوماً ما أن مافروس سوف يكون لعنة في حياتي، أنا لا
أستحق هذا العذاب، أمضيتُ جُلَّ عمري خائفاً وقلقاً عليه، ولم أكن أتوقع
أنه سوف يورطنا هكذا.

كنتُ أشعر بالأسى بعد كل زيارة لأبي، إن كل ما يحدث ليس بسبب مافروس فقط، أنا وشيرفين شريكان في هذا الأسى، لكنني لم أنقل له شعوري بالطبع، يكتفيه ما يشعر به من تأنيب ضمير تجاهي أنا وعائلتي.

في الأسبوع الرابع من اعتقال أبي، ذهبْتُ للحراس لأطلب موعد زيارة كعادتي، لكنني جُيهُتُ بالرفض هذه المرة، لم أفهم سبب رفض الزيارة، وطلبتُ التحدث مع كبير الحرس، وأيضاً رفض رؤيتي! احترتُ في أمري، وبدأ يتعاضم قلقي أكثر فأكثر، وحاولتُ معرفة أيّ معلومة عن إذا ما تم نقل مكان حجز والدي، أو ما شابه ذلك، لكن لم أجد أي إجابة.

خلال هذه الفترة تحديداً، وصلت رسالة شيرفين لمافروس؛ ليبدأ بالكشف عمّا يملك من وثائق، واختار مافروس أن يبدأ بفضح قضية المواد التي كان يدّعي العرّاف أنه يستوردها لأغراض العلاج، فقد جاءت لجنة تفتيشية من المدينة الشرقية منذ أسبوعين، لكن النّاجد لم يعلن أيّ شيء عن ذلك، وكانت الأمور في المدينة غير واضحة، فقد ازدادت فرق المراقبة والحواجز الأمنية لمحاولة إيجاد من يُسرّب هذه الأخبار.

بعد مرور خمسة وأربعين يوماً على اعتقال والدي، خرج علينا كبير الحرس الذي صرّح لنا بأمر من النّاجد، أنهم قد تأكّدوا من مصادرهم الخاصة أن مافروس هو من ينشر الأخبار والشائعات؛ لتشويه صورة النّاجد وأبنائه وزعزعة أمن واستقرار المدينة؛ حيث يعمل على اختلاق الأكاذيب لتحقيق غايته والضرر بمن يحمي المدينة وسكانها؛ لذلك ولمحاولة تطويقه وإغلاق جميع السبل في دربه، أُعلن عن حظر للتجول بدءاً من السابعة مساءً.

ارتفعت أصوات اعتراضات العامة، وبالأخص أصحاب الأعمال والتجار الذين يزدهر عملهم ليلاً، لكن الرد جاء بشكلٍ قطعي أن هذا الحظر سوف يكون أمراً مؤقتاً، وستعود الحياة إلى طبيعتها في المدينة بعد القبض على مافروس ومعاقبته أمام الجميع، على اعتبار أن هذا الحظر

سيعوق نشاطه ويشلّ تحرّكه في المدينة، وبالتأكيد سيرتكب خطأ ما يكشف مكانه.

قابلتُ شيرفين في الميناء على عجلٍ بعد إعلان أمر حظر التجول، وضحك عندما أخبرته بما جرى وقال لي:

- من الواضح أنهم يتخبّطون، ويحاولون فعل أي شيء ممكن قبل أن يُقدم مافروس على فضح جرائمهم؛ لأنهم بالتأكيد يدركون أهمية وخطورة الوثائق التي بحوزته.. حسناً سوف نتوقف عن نشر الأخبار، بينما مافروس سيستمر، سوف يُصاب الناجد بالجنون وكبير الحرس بالشلل الدماغي، الأوراق والشائعات ستختفي، لكن الفضائح ستوالى تباعاً.

- حسناً فهمت، وماذا بشأن أبي؟ كيف لي أن أصل إليه، أنا قلقة جداً عليه.

نظر إليّ بحسرة، ولم ينطق بأي شيء.

حظر التجول كان صارماً جداً، فتعذرت عليّ رؤية شيرفين إلا فيما ندر، لكنه طمأنني أنه سيواصل العمل على تجارته، وأيضاً التواصل مع مافروس الذي فضح قضية الميناء الشمالي والتجارة غير المشروعة من خلاله، وتدمير الميناء بعد موت العرّاف وكشف أمره، فقد جاء وفد رسمي من المدينة الشرقية لزيارة المكان ومعاينته، وبدأوا بالضغط على السلطة هنا.

بعد مرور شهرين من اعتقال والدي، في إحدى الليالي، وبينما الظلام يعم أرجاء المدينة، والنوم يجافي بعضنا، سمعتُ صوت شيء سقط بقوة أمام باب منزلنا، استيقظتُ أمي على أثر هذا الصوت مذعورة ترتجف خوفاً، فقد خسرت جزءاً كبيراً من وزنها خلال هذه الفترة، وبدت هزيلة ضعيفة جداً، وعندما فتحتُ الباب، رأيتُ أبي كما لم أعهد رؤيته، كان مُكوّماً أمام عتبة المنزل، بيدٍ واحدة فقط!

الجزء الثالث



شخصيات الجزء الثالث

والد شيرو: رجل في عقده الخامس، ينتمي لعائلة متوسطة الحال، ودود ورقيق القلب، لديه ذاكرة قوية جدًا، يعشق البحر بلا حدود.

والدة شيرو: سيدة في نهاية عقدها الرابع، تنتمي لعائلة متوسطة الحال، حساسة وصاحبة قلب كبير، لطيفة وطيبة الخلق والمعشر.

ماتياس: شاب ينتمي إلى عائلة ثرية ذات نفوذ، متهور متسرع وكثير الغضب، صاحب شخصية قوية وقيادية، مخلص وشهم، يعتبر نفسه الركيزة الأساسية لعائلته وأصدقائه.

جازان: شاب ينتمي إلى عائلة ثرية جدًا، وذات سلطة واسعة، قليل الحيلة وخوفه يسبق خطواته، مرهف القلب وهادئ الطباع ومرن، دائمًا متواجد لمساعدة من يجب.

هافال: رجل في عقده الخامس، ينتمي إلى عائلة ثرية جدًا وذات سلطة واسعة هو أحد أسبابها، حاد الطباع وماكر، ولا يتهاون مع من أساء إليه، كريم جدًا عندما يصبُّ الأمر لمصلحته.

كيران: رجل طاعن في السن، ينتمي إلى عائلة فقيرة، وما تبقى من صفاته فهي بحُكم الجهول عنه.

الفصل الأول

"الجحيم شيء تحمله معك، وليس مكاناً تذهب إليه".

- نيل غايمن، كاتب بريطاني.

خوف أعمى

الخوف والشجاعة وجهان لعملة واحدة، وعندما يداهم الخوف قلب أحدنا، أو تدب الشجاعة بأوصالنا، نتصرف بشكلٍ متهور وغير مدروس، كما لو أننا فقدنا البصر والبصيرة.

رأيتُ أبي ملقىً أمام منزلنا الذي شيده جدي قبل سبعين عامًا، كان ينزف، ويده مبتورة بطريقةٍ وحشية والجرح لم يلتئم بعد، صرخت أُمِّي واحتشد الجيران حولنا وأدخلوا أبي إلى حجرتي، استلقى على سريري، يئنُّ ألمًا، يتصبب عرقًا، وكانت أُمِّي أكثر تماسكًا مني هذه المرة، لا أعلم كيف كتمت دموعها، وطلبت بكل لطف من أحد أبناء الجيران أن يذهب لإحضار المعالج الذي يقطن بالقرب من منزلنا، على الأرجح أنها قد استشعرت هالة الغضب التي تشع من عيني، همست في أذني:

- أرجوكِ يا حبيبتي اهدئي، لا أقوى على تحمل خسارتكِ أيضًا.

- اللعنة! لقد أوقفوا زياراتي له؛ لأنه كان تحت التعذيب، الآن عندما يأتي المعالج سوف نرى هول العذاب الذي ذاقه، هؤلاء الأندال قد غدروا بنا! أريد أن أواجه كبير الحرس المجرم ذاك.

هممتُ بالنهوض لكن أُمِّي أمسكت يدي بقوة قائلةً:

- شيرو، لا تتهورِي، لقد خسرتُ مافروس، وانظري لحالة والدكِ، لستُ مستعدةٌ لخسارتكِ أيضًا!

وكانت الدموع تنهمر من عينيها بصمت.

جاء المعالج وطلب منا الخروج من الحجرة، شكرتُ الجيران وعادوا إلى منازلهم مع مجموعة من الأحاسيس المختلفة، الخوف، الشفقة، القلق من وضع ذراعه المبتورة، فقد أخبرنا أنها مقطوعة منذ وقت وجيز بواسطة أداة حادة، وهناك مؤشرات لبداية التهاب من تلوث الجرح، قاطعه شيرفين قائلاً أنه يدرس الطب بشكلٍ علمي، ويمكنه متابعة حالة أبي والاهتمام به.

غادر المعالج بعد أن أعطى شيرفين بعض المراهم التي يجب على أبي المواظبة عليها لكي يُشفى تمامًا، وأوصانا بتغذيته بشكلٍ جيد، ولم يسأل عن سبب حالته أبدًا، فقد فهم من تلقاء نفسه ماذا حدث وأين.

في اليوم التالي أُعلن عن خطبة جديدة للنَّاجِد، لم نحضرها أنا ووالدتي؛ كون أبي يحتاج لاهتمام بالغ، وعرفنا لاحقًا ما قيل بالخطبة من شيرفين الذي جاء لزيارتنا محضراً معه بعض الفاكهة والخضار، الخطبة كانت لغاية إخبار العامة أن والدي عاد إلينا بعد أن فشلت خطتهم في استدراج مافروس، فأطلقوا سراحه؛ لعله يستطيع إفادتهم، وهو حرٌّ طليق، لكنهم قد أمهلوه شهرًا واحدًا فقط لتسليم مافروس إليهم، وإلا سُيعتبر خائنًا مثل ابنه.

لم يتوقف سيل الدموع من عيني والدي؛ فهي لا تُصدق أن مافروس فعل كل تلك التهم، ولا تعرف أين هو أيضًا، ونحن لا نستطيع إخبارها أي شيء.

عندما ذهبت إلى حجرتي لتُطعم والدي الذي استيقظ دون أن ينبس ببنت شفة، اقترب مني شيرفين وقال لي:

- ليس لدينا وقت كافٍ، سوف أكتب شيئًا واحدًا محددًا لمافروس؛ ليرسله إلى هنا لعنوان محدد أيضًا، ونحن من الداخل سوف نركز على نشر هذا الخبر فقط لا غير في الأيام القادمة، علينا إنهاء مهمتنا قبل يوم السماء، الخطر محدد.. يبدو قريبًا جدًا الآن يا شيرو، خطبة النَّاجِد تدل

على أنه يحبك شراً لكم، وليس فقط لوالدك.

- ما الخبر الذي سوف ننشره؟

- حقيقة درب السلام، هذا الشيء الوحيد الذي سوف يضمن انقلاب العامة على الناجد وحكومته، فبمجرد أن يرى سكان المدينة ماذا يوجد هناك في آخر ذاك الدرب اللعين، سوف يحتجون، أو يقفون أمام الناجد مطالبين بتفسير لهذا الأمر، أنا أعول على الضمائر الحية وتهيج عواطف العامة، أو قد تؤول الأمور للأسوأ.

- ماذا تعني بالأسوأ؟

- دماء كثيرة وضحايا بريئة.

كنت أتأمل كلامه، بينما أشد على قبضة يدي من فرط الغضب وطعم الذل والهوان الذي يقض مضجعي، وقلت له:

- شرفين، هل تذكر عندما قلت لك ليس صحيحاً إصلاح الخطأ بخطأ، ولا أريد تلويث أيدينا بالدماء؟

- نعم، أذكر بالتأكيد.

- أنا أريد أن أشرب من دمائهم الآن.

- لا يا شيرو، لن يحدث هذا، لن أسمح لك بتوريط نفسك بأي شيء خطير قد يكلفك حياتك، أو يجعلك تندمين للأبد، دعينا نعمل معاً بحذر، وأنا متأكد أننا سوف نصل إلى حل ما.

- هل كنت تستطيع قول هذا الكلام لنفسك عندما اقتحمت منزل العراف انتقاماً لوالدك؟

لاذ بالصمت وعانقني بشدة، كان قلبه ينبض بعنف.

- حبيبتي، أنا لست مثاليًا، ولا أحد منا يمكنه أن يكون كذلك، ولا يحق لي أن أطلب منك شيئاً عجزت عن فعله؛ حيث لم أستطع السيطرة

على عواطفِي حينذاك، لكن على الأقل دعيني أحاول، قولي لي، لو علمتِ ذاك الوقت بنيتي قبل أن أقدم على فعلتي، هل كنتِ سوف تشجعيني على الأمر؟ أنا متأكدٌ أنكِ كنتِ ستبذلين قصار جهديكِ لتمنعيني؛ لذا دعينا نتمهل أرجوكِ، فأنا لا أعلم ما النتائج المحتملة لأي عمل طائش أو متهور قد نُقدم عليه دون حساب طريق العودة لبرّ الأمان.

ضحك صاخب

في اليوم الذي تلا خطبة الناجد، ذهب شيرفين للبريد، وأرسل رسالةً إلى مافروس من عدة عناوين مختلفة للتمويه، كان من كبير حظنا أن شيرفين استطاع إرسال الرسالة قبل حظر إرسال الرسائل إلى خارج المدينة، وإغلاق طرق تصدير البضائع، ومنع السفر خارج المدينة لمدة ثلاثة أسابيع قابلة للتمديد بعد عودة أبي بثلاثة أيام، لكنهم لم يمنعوا الاستيراد واستلام الرسائل من الخارج لسببين، أولهما مراقبة حركة تداول الرسائل؛ لعلهم يتمكنوا من إمساك طرف خيط يوصلهم إلى مافروس المتهم بنشر جميع هذه الأخبار المشينة الكاذبة، وثانيهما الخوف من مواجهة مشكلة نقص الموارد الغذائية والسلع الأساسية في هذه الظروف العصيبة.

تكررت لقاءاتنا أنا وشيرفين في منزل عائلتي بحجة أنه يتابع حالة أبي الصحية، وأصبحت والدتي تشعر بالأمان أكثر بوجوده معنا، ما أسعدني جدًا.

في أحد الأيام أخبرني أنه استلم رسالةً من مافروس، لكنه لم يقرأها بعد، وبينما كانت أمي تساعد أبي على الاستحمام، قرأنا رسالة مافروس التي كانت تبدو أنها مرسلة من عائلة شيرفين، فقد نبّه مافروس على هذه النقطة كي لا يتم كشف أمره، في البداية يرسلها لعائلة شيرفين الذين بدورهم يعيدون إرسالها إلى هنا، وجاء فيها:

"بعد السلام أود أن أطمئنكم على نفسي، فأنا بأفضل حالٍ

وصحتي جيدة، هنا حيث أقطن قدمتُ جميع أوراقِي الثبوتية لمفوضية اللاجئين والدعم العام، وسار الأمر بشكل سلس دون متاعب، تعرفتُ على بعض التجار والمسؤولين من خلال شخص وسيط بيننا يعمل على الحدود، قال لي إنه لديه إحساس أنه يعرفني، لكنه غير متأكد من ذلك.

أخباركم تصلنا بشكل مكثف، فما يحصل عندكم يؤثر على نطاق العلاقات الدولية، لقد اقتنصتُ فرصتي وكشفتُ عن القضيتين بشكلٍ أولي، وساعدني ذلك الشخص لإيصالها للمعنيين بالأمر، لكن أواجه بعض المساءلات والتحقيقات بشأن ذلك.

إنهم يجهزون لجنة لمناقشة الأمر بشكلٍ علني ولبدء المحاكمة الميدانية، فهناك عدة شخصيات من هنا وهناك متهمه أيضًا بالتواطؤ".

- هل تعتقد أن هذا الرجل الذي يساعد أخي هو مولينا؟

- ربما، لست متأكدًا.. بغض النظر، لكن من الواضح أن الأخبار تصل منقوصة وغير واضحة لمافروس، وهذا جيد، أنا لا أريده أن يعلم بما يحصل هنا بالتفصيل، فقد يفقد السيطرة على نفسه، ويتهور بفعل شيء ما خارج عن المنطق.

الرسالة التي أرسلتها إليه سوف تستغرق أسبوعًا لتصل، خذي هذا الآن، أخرج شيرفين من جيبه أحد خناجر العم ماهان وسلمه لي قائلاً:

- عليك حماية نفسك عند الضرورة، وحماية عائلتك أيضًا.

- أنا لا أستطيع حتى حمّله يا شيرفين، لا تُخفني.

- حبيبتي، عليك أن تكوني قويةً ولا تُبالي بحياة أحدٍ أمام سلامتك وسلامة عائلتك، عليك تحمّل هذا الوضع لشهر واحد فقط، ثم سنخرج من هذه الدوامة، فقدنا سديم، ومافروس بعيد عنا، انظري لحالة والدك، نحن لا نستطيع أن نحمي أنفسنا بأيدينا وكلماتنا فقط، لقد قلتُ سابقًا

أنك تريد أن تشربي من دمائهم، ما بك الآن ترتجفين خوفاً من مجرد خنجر جميل؟!

لمس الخنجر فقط كان كفيلاً لإخافتي، لكنني تماكنت نفسي، ودسسته بسرعة في حقيبتي التي تلازمني دائماً خارج المنزل.

في صباح اليوم التالي، انتشر خبر أن حكومة الناجد أكدت على أن مافروس لا يعمل وحيداً؛ بل هناك مجموعة حوله تساعد، تلك الجماعة تتكون من أتباع العزاف، الذين غدروا به، والآن يعملون على زعزعة أمننا، هذه المعلومات انتشرت بين الناس كما ننشر أخبارنا بشكل غير رسمي، ليس من خلال خطبة على مسامع الجميع كعادتهم، إنما بحرب نفسية قذرة أدواتها الشائعات المغرضة، أهدافها تبرير ما يزعمون فعله من مؤامرات شيطانية، وتسويق شعارات تبرأ الناجد من أي إدانة محتملة، من خلال اللعب على وتر الوطن والوطنية.

بعد يومين من انتشار الشائعات اعتقلوا مجموعة كبيرة من التجار، وتم التحقيق معهم لأسبوع كامل للتحري إن كانت لهم علاقة بالعزاف أو بمافروس، وكان شيرفين من ضمن المعتقلين.

بعد زيارته الأخيرة لنا، غاب بشكل مُريب ولم يأت لزيارتنا مجدداً، لذلك قررت الذهاب إليه؛ حيث لم أجد أحداً في شقته، وفي طريقي لأغادر من الحي رأني العم ماهان، وأخبرني أن مجموعة من أبناء الناجد أخذوا شيرفين ليلة أمس.

لأسبوع كامل كنت أتردد برفقة خوفي العارم إلى متجر العم ماهان لتقصي أخبار شيرفين.

في اليوم الذي أطلقوا سراح شيرفين كنتُ جالسة في متجر العم ماهان وسمعتُ صوت ضحك صاحب، كانت ضحكة أعرفها جيداً، أشرق وجه العم ماهان، وقال لي:

- انظري، إنه شيرفين، لكنه ليس وحيداً.

التفتُ إليه، رأيته برفقة مجموعة من الرجال من مختلف الأعمار، أعرف وجوه بعضهم، فهم تجار معروفون في مدينتنا، كان يتبخر ويضحك ملء شذقيه، تؤكد لي دائماً تصرفاته عجزي عن فهمه بشكل واضح، فهو في أقسى وأسوأ لحظاته يملأ الدنيا بضحكاته ودعاباته.

ودّعهم وجاء إلينا، وقبّل جبيني، افتتح حديثه قائلاً:

- هذا الأسبوع في المعتقل هو أجمل أيام حياتي!

وضحك بصوت مرتفع.

كان الشارع مزدحمًا، وشيرفين يلقي تحياته على العاملين والتجار، وأثناء ذلك طلب مني أن أذهب إلى منزلي، وسوف يأتي لزيارتنا غدًا بشكل طبيعي.

وددتُ لو بإمكانني الاطمئنان عليه أكثر ومعانقته، لكنه أكمل طريقه نحو أحد المتاجر، ليسترسل لاحقًا في الكلام مع صاحب المتجر.

درب السلام

في اليوم التالي، زارنا شيرفين بشكل اعتيادي، واعتذر لأمي عن غيابه هذا الأسبوع بحجة أنه كان مشغولاً بأعماله، قام بالاطمئنان على صحة أبي الذي ما زال يُلازم الفراش ويأبى الكلام، وإن صحَّ التعبير، نحن لم نسأله عما حدث داخل المعتقل، لا نريد إعادة إحياء تلك اللحظات في مخيلته.

- حبيبتي، أنا بخير وبصحة جيدة، لا تقلقي عليّ، لم أكن محور الحدث في المعتقل، فقد كان جميع المعتقلين من التجار وأصحاب رؤوس الأموال، لذلك لم نُعامل معاملة سيئة، لكنني قد لاحظتُ أن هناك مجموعة من الرجال يبدون أنهم بمستوى أعلى من غيرهم، وكما تعلمين هذه فرصة كبيرة كان عليّ استغلالها لتوطيد علاقاتي، وعندما عرّفتُ عن نفسي قال أحدهم:

- هذا الشاب كان يؤمّن لنا شحنات الأرز الذهبي، وهو ابن القبطان دياز الذي كان يورّد لنا جميع السلع الأساسية من المدينة الجنوبية.

في المعتقل سمعتُ الأحاديث تدور هنا وهناك حول الأخبار التي ننشرها، وكانت هناك ثلة من المعتقلين يُصرحون أنهم يصدّقون هذه الإشاعات، ويرون أن النّاجد أكبر كاذب في البلد.

بالتأكيد تقرّبتُ من هؤلاء الشبان الذي قال لي أحدهم:

- عائلة النّاجد تُسيطر على الحكم منذ مائة عام، وبسبب هذا الخُرف العقيم سوف يخسرون السلطة، لتعود مجدداً لعائلتي؛ لأننا من أعرق

العائلات، وأبي كان تاجرًا كبيرًا كما كان جدي كذلك، أنا أنتمي لعائلة تُسيطر على تجارة الأسمدة منذ أهد الدهر، وذلك العجوز وعائلته الدخيلة كانوا السبب بحرمان جدي الأول من تولي زمام الأمور.

- من هذا؟ هل سألته عن اسمه؟

- أجل، دونتُ كل شيء فور خروجي من هناك، هذه الأمور سوف تُفيدنا.

- حسنًا، جيد، قل لي هل حققوا معك؟

- أجل بالطبع، أنكرتُ معرفتي بأي شيء، وبرعتُ في تمثيل دور الغبي الساذج، سجلاتي نظيفة.. نوعًا ما، يعلمون أنني دخلت المدينة منذ خمسة أشهر بغرض التجارة، ولا شيء سوى ذلك.

- ألم يشكّ بك أحد باعتبارك ابن القبطان دياز؟ ربما أنت مراقب.

- ربما أنا مراقب، هذا احتمال وارد لأي فرد في هذه المدينة وليس أنا فقط، أما بشأن قضية والدي، لا أحد يعلم أنني شهدتُ مقتل أبي، ولا أظن أن مجموعة الحراس التي حققت معنا تعرف بقضية أبي من الأساس.. شيرو، الأهم من هذا كله، علينا الاتفاق على نشر الخبر الأخير الآن قبل أن تنتهي والدتك من تحضير الطعام، على الرغم من أنني أتصور جوعًا وبدأتُ أفقد تركيزي، لكن لا بأس سوف أتماسك فلا أملك فرصة أخرى.

وضحك كعادته.

- من المفترض أن تصل رسالتي إلى مافروس اليوم أو غدًا، وسوف يُبأشر في التنفيذ فور استلامها.

- أنت قلتُ لي سابقًا أننا سوف ننشر الخبر هنا داخل المدينة، لماذا تريد من مافروس أن يوجّه الرسالة إلى هنا أيضًا؟ ألا يكفي ما ننشره نحن؟

- أريد إيصالها إلى عنوان كبير الحرس، ولم أجد أي طريقة أخرى،
فإن استلام الرسائل لم يُحظر بعد كما تعلمين، ليس لدينا وقت كافٍ،
سوف تصل رسالة إلى كبير الحرس مدون فيها:

" اذهبوا إلى درب السلام، فهو حفرة في قعر الجحيم، يحتضن أجساد
أبنائكم وأبائكم الحية والميتة، اذهبوا وأنقذوا ما تبقى من أرواحهم
البريئة".

نظرتُ إليه بحيرةٍ والتقطتُ خوفي، عانقني وقال لي:

- لم أكن أرغب في توريطكم، ولو أنني وجدت وسيلة لإبعادكم عن
هذا الشر لم أكن لأدخرها...

- شيرفين أرجوك لا تكمل، أنا معك، أنا خائفة فقط من هذه الخطوة،
فهي تبدو أخطر من سابقتها.

- أعلم، لكن هذا هو الوقت المناسب، لقد رأيتُ حجم الشك والكره في
صدور العامة الآن، وبالأخص التجار الذين بدأوا بخسارة أموالهم، أعز ما
يملكون، سوف يفعلون أي شيء لإنهاء هذا الوضع.

باشرتُ بكتابة الخبر بعد أن أخبرني شيرفين أنه لن نستطيع اتباع
الطريقة المعتادة بنشر هذا الخبر بسبب حظر التجول المفروض ليلاً، لكنه
سوف يدس الأوراق في جميع الشحنات وصناديق البضائع التي سوف
تُوزَّع على التجار غدًا.

- درب السلام، سوف يكون حديث المدينة غدًا، قد يحاول بعض
الأفراد التأكيد بأنفسهم، سوف نخلق فوضى عارمة، تبقى عشرون يومًا
على يوم السماء، وسوف نستمر في نشر هذا الخبر تحديداً؛ لنصل إلى
مبتغانا.

- هل تظن أننا سوف ننجح بالخروج من هذا الكابوس؟

- لم يعد كابوساً، إنه الجحيم بعينه، ويحتضن كل أهالي هذه المدينة،

وعلينا إخراج الجميع منه، أنا أشفق على هذا الشعب المسكين الذي يعيش على أمل أن يحيا بهدوء، ولا يعلم الفرد منهم أن نهايته محددة قبل ولادته، إما أن ينتهي عبداً للناجِد وعقائده، أو جثة هامة منسية في درب السلام.. يراودني شعور أن هناك عدة أطراف من داخل أو خارج المدينة متواطئة مع حكومة الناجِد لإذلال الشعب وكسر كرامته، ليس من المعقول أن جميع من يعيش في هذه المدينة يجهل كل تلك الحقائق، وإن صحَّ ظني، سوف يتوجب علينا مواجهة جميع أطراف اللعبة.

غادر شيرفين قبل موعد حظر التجول وأنا جلستُ إلى مكتبي في حجرتي ودونت:

"كم من خطيئةٍ نحملها عبر أجيال؟

كم من زلزالٍ ضرب نفوس أجدادنا؟

وامتد ليكسر فينا ما نجا منهم،

كم من ذنبٍ نحملة من أسلافنا،

يطوقنا ويتعايش معنا،

ويبني حولنا جدراناً تخيفنا وتخفيها عن نواتنا؟!

إن امتداد الألم النفسي لا ينفصل عن الامتداد العرقي."

حرب باردة

في ذلك الصّباح، استلم تجار مدينتنا صناديق بضاعتهم المستوردة من الخارج، تدمر الجميع بسبب قلة الإيرادات التي هزّت أركان أعمالهم بعد إيقاف حركة التصدير، بالإضافة إلى تعفن وتلف بعض المواد في المستودعات.

ساور الشك أحد التجار الذي وجد مناشير ورقية بين بضاعته مدوّن فيها خبر قد يُنهي حياته إن ظن الناس أنه مصدر ذلك الخبر؛ لذلك تكتم على الأمر خوفاً من إثارة الشبهات حوله، لكن خوفه لم يدم بعد أن علم من جاره أيضاً أنه وجد ذات المناشير في صناديق بضاعته بالرغم من اختلاف مصادر الموردين لهما، وبالتأكيد وصلت ذات الرسالة إلى منزل كبير الحرس، رسالة مرسلة له من عدة عناوين من عدة مدن مختلفة، لم نسمع أو نرى أي ردة فعل تُذكر في أول يومين، لكن في اليوم الثالث، أُعتقلت مجموعة كبيرة من أبناء الناجد الأمناء، وقد أعلن كبير الحرس بشكل رسمي في ساحة المدينة أنهم يعملون على غربة المنتسبين، والتأكد من براءة أبناء الناجد الأمناء من هذه الجرائم كما أسماها.

اعترض بعض العامة الذين طالبوا بزيارة درب السلام بالفعل وإنهاء هذا الجدل، لكنهم كانوا قلة قليلة، لذلك لم يُول كبير الحرس لهم اهتماماً حقيقياً، لكنه أضاف:

- إن علينا الوثوق بحكمة الناجد والدستور، والصمود أمام هذا البلاء العظيم.

ورفع الرسالة التي وصلتة وأثارت غضبه قائلاً:

- أنا متأكدٌ أن هذه الشائعة كُتبت بيد حاقِدٍ بهدف زعزعة أمننا وتخریب حياتنا.

- ما قاله كان صحيحًا، فإن يدي حاقدة عليهم بما يكفي لأنتقم لبراءة أخي، وقتل سديم، والعذاب والألم الذي سببوه لوالدي.

بعد اعتقال أبناء الناجِد، تجمّعت الحشود أمام قصره مثيرة ضوضاء عظيمة دعت كبير الحرس للخروج لاستقصاء الأمر؛ حيث عمل شيرفين وبعض المشككين بحكمة الناجِد من غير تخطيط مسبق خلال الأيام التي مضت على تجييش العامة؛ للوقوف على محاكمة المذنبين بشكلٍ عادل وأمام الجميع من غير عنف وتعذيب، فطرحوا هذا المطلب أمام كبير الحرس الذي أعرب عن استغرابه قائلاً:

- أنتم تشككون بحكمة الناجِد وأمانة أفراد الأمن!

ردّ عليه أحد وجهاء المدينة:

- نحن نريد أن نكون جزءًا فعّالًا في تقرير مصيرنا ومصير مدينتنا العزيزة، نحن لن نعترض على أيِّ حُكم يصدر، لكننا نريد تحقيقًا علنيًا عادلًا يضمن سلامة أبنائنا من التعذيب والإهانة، فهم ركيزة أمننا، ومن يسهرون للدفاع عنا عند الضرورة.

استشاط كبير الحرس غضبًا، ورأيتُ شيرفين يبتسم بمكر؛ حيث كان واقفًا مع مجموعة رجال يبدو عليهم الثراء الفاحش. اعترض كبير الحرس قائلاً:

- هذا ليس من عاداتنا، التحقيقات وتقصي الحقائق وحفظ الأمن من واجبات السلطة وليس الشعب.

صرخ أحد العامة:

- إذا أعيدوا لنا أبناءنا، ولن نتدخل في شؤونكم.

وقال آخر:

- لا نريد هذا الأمان الزائف بينما أبنائنا يقبعون في سجونكم.

ارتفعت الهتافات والاعتراضات على كلام كبير الحرس الذي عاد أدراجه إلى داخل قصر الناجد.

بعد قرابة النصف ساعة، خرج الناجد علينا بابتسامة عريضة، وألقى التحية بكل حب، وقف على مقربة من الشعب الغاضب وقال:

"لقد نقل لي كبير الحرس طلباتكم، وأنا أوافقكم الرأي، هذا حق مشروع لكم، فهم أبنائكم وأهلكم، وسوف يتم التحقيق معهم بحضوركم، ليس فقط لأثبت لكم حسن معاملتنا مع من نحقق معهم، إنما لتكونوا أيضًا جزءًا من هذه التحقيقات التي سوف توصلنا إلى ذلك المجرم المخرب الذي يستهدف أمن بلادنا، قد يسألني أحدكم عن سبب عدم إشراككم في عمليات التحقيق سابقًا، أقول بكل بساطة، كان ذلك بغرض عدم إشغالكم وتعكير صفو حياتكم فحسب، أنا أسعى لتحقيق العيش الرغيد لجميع أبناء شعبي".

صفتت الجماهير وهلت للناجِد بسيل من هتافات المحبة، وهو بدوره ألقى التحية بودًا، ابتسم وعاد أدراجه.

جن جنون شيرفين الذي كان يلعن ويشتم كل شيء أمامه، ذلك الوغد المحتال، يعرف كيف يدس سمّه في العسل.

وبالفعل في الأيام التالية، بدأوا بإخراج المعتقلين على مجموعات متفرقة إلى ساحة المدينة بشكلٍ لطيف، تمت مساءلتهم والتحقيق معهم أمام عائلاتهم وسكان المدينة في محكمة الشعب، ومن تُنبت براءته، يُطلق سراحه على الفور، وعلى الرغم من الفوضى العارمة والتشديد الأمني، استغل شيرفين ثغرة نقص أعداد أبناء الناجِد في الشوارع، وعمل على نشر

ذات الخبر بجميع الوسائل الممكنة، وكان يراقب ويرصد ردّة فعل الأهالي والتجار وأصحاب الثروات على ما يجري، وقد وثّق علاقته الشخصية بشكّل جيد معهم، لم يَكُن يبالغ في التحريض، خوفاً من إثارة الشبهات حوله، ولكنه كما قال، بذرة الشك والتمرد بدأت تنمو في نفوس سكان المدينة.

استمرت الاعتقالات والتحقيقات العلنية التي كادت تُصيب كبير الحرس بالجنون، فعلى الرغم من اعتقاله أكبر عدد ممكن من المشتبه بهم من قريب وبعيد، ما زالت الأخبار تنتشر في الأجواء وتعشش في جدران المدينة، وفي ذات الوقت، كان شيرفين يبذل قصار جهده في إقناع التجار وأصحاب المصالح بشكل غير مباشر بضرورة الانقلاب على حكومة الناجد، وخصوصاً بعد أن عرض العم ماهان بشكل مفاجئ أنه جاهز لتأمين مكان مناسب لعقد أي اجتماع سرّي نرغب به في قبو متجر الذكريات، هذا ما جعل شيرفين يبتسم ويقول:

- استعد لاستقبال خيرة هذا المجتمع يا عمي.

والذي لازم المنزل طيلة هذه الفترة، وقد زاره كبير الحرس مرتين خلال هذه الأسابيع لتذكيره أن المهلة الممنوحة له بغية تسليم نفسه أو تسليم مافروس أوشكت على الانتهاء، لكنه أسرّ له أن إيجاد مافروس هو أولويته، وإن اعتقال أبي لن يوقف هذا الخراب.

في كلتا الزيارتين، لم ينطق أبي إلا بعدة كلمات لمجاعة حديث كبير الحرس، فقد كان مكسور النفس والقلب، ولا يقوى على الجدل أو المقاومة، كأنما يعيش آخر أيامه بزهد.

متجر الذكريات

- عمي، لماذا عرضت علينا استخدام قبو متجر لعقد الاجتماعات السرية التي يقودها شيرفين، رغم الخطر المحقق الذي يترتب عليك في حال تم كشف أمرنا؟

سألته ذلك بينما كنتُ أنتظر قدوم شيرفين في متجر العم ماهان، فيما كان هو مشغولاً بتنظيف الرفوف التي تحمل ذكريات شعوب شتى.

- يا ابنتي، أنتِ تعلمين جيداً أنني حاولتُ ردع شيرفين عن التفكير في الانتقام، ربما بسبب خوفي عليه أو منه، لكن طالما وصلت الأمور إلى هذا الحد، فلا أستطيع الوقوف مكتوف الأيدي، فأنا ما زلتُ نادماً على عدم تواجدي بجانب القبطان دياز آخر أيامه، أقل ما يمكن أن أقدمه لكم الآن مكان آمن تلتجئون له.. انظري يا عزيزتي، كل قطعة حولك هنا تحمل آلام وآمال وأفراح وأمان من امتلكها قبلي، وأنا دوري فقط وسيط بين ذكرى وأخرى، والآن سوف تمتلئ أيضاً جدران وأرضية هذا المكان بالانفعالات والهتافات والأفكار المحظورة، أنا فخورٌ بكم بالرغم من كل شيء، لقد فعلتم ما لا يُمكن للرجال العتاة فعله.

نظرتُ إلى ذلك الرجل العجوز الواقف أمامي، إن العم ماهان تجسيد للقصص والأساطير التي جمعها من أنحاء العالم؛ حيث تجمعت كل الذكريات في تقاطيع وجهه ويديه، وسألته بفضول كبير:

- لم تقل لي من قبل يا عمي، لماذا تعيش بمفردك؟

تنهد بصوتٍ مسموع وجلس بجانبني، وأجابني:

- لم أكن وحيداً سابقاً، كانت لديّ زوجةً جميلة جداً وطيبة القلب، تزوجنا قبل أن أباشر عملي بجانب القبطان دياز بفترة وجيزة، ولأنها كانت الابنة الوحيدة لعائلتها، طلبوا منا أن نقطن في منزلهم وبحكم عملي وسفري الدائم، كان ذلك الأمر مناسباً لوضعنا، لكن عندما قررتُ الانسحاب من ذلك العمل بعد المشكلة التي واجهتنا، ودبَّ الرُعب في أوصالي، كانت زوجتي طريحة الفراش.

نظرتُ إليه بحنو، ورأيتُ الدموع تتجمع في مقلتيه.

- كانت تشعر بوهن دائم وشعرتُ أنه عقاب لي على عدم مساندة صديقي العزيز، عرضتُها على العرّاف عدّة مرات، فعالجها من أعشابه وتعاوَيْده، لكن ذلك لم يُجد أي نفع، بدأ المرض ينهش جسدها وقلبي، وفقدتُها في ذات العام الذي فقدت فيه عملي.

اقتربتُ منه لكي أواسيه، أمسك بيدي وقال:

- منذ ذلك اليوم عدتُ إلى هنا وشيدتُ هذا المسكن الصغير الموحش خلف المتجر؛ لأقضي به ما تبقى لي من عمري، وقطعتُ عهداً على نفسي أن أقدم أجمل التحف وأثمنها للعشاق والمتحابين.

- كما قدمت لي صندوق السعادة؟

- أجل يا ابنتي، في كل مرة أقدم فيها شيئاً ما لشخصين متحابين، أشعر بالسعادة والراحة.

- متجر الذكريات، اسمٌ على مسمى يا عمي.

- بالإضافة إلى أطفال ذلك الميتم..

نظر إلى الميتم الذي ترقد فيه ابنة مافروس، وأردف قائلاً:

- هناك أطفال كُثر من ذلك الميتم يترددون إلى متجري؛ ليأخذوا ما

يحلو لهم.

ضحك كالطفل وقال:

- أنا أقوم بتأليف قصص عن سائر هذه القطع؛ لكي أقصها على الأطفال عندما يقررون أخذها إلى عالمهم.

- أتعلم يا عمي؟ لقد جذبت انتباهي العبارة المدونة على اللافتة في الخارج منذ أول مرة قرأتها، لهذا دونتها في دفتر ملاحظاتي من شدة إعجابي بها.

في هذه اللحظة دخل علينا شيرفين يضحك ويلهو بخصلات شعره، قبلني وجلس بجانبني قائلاً:

- يا عمي، في الأيام التالية المعدودة سأعقد اجتماعاً هنا في قصرك، أقصد قبو قصرك.

- افعل ما يطلو لك يا بني، أنا معك.

- سوف يحضر جميع الأفراد الذين التقيتُ بهم في السجن أثناء اعتقالي، جميعهم من التجار وأصحاب الأموال، بالتأكيد سوف نخرج بقرارات مهمة.

سألته:

- هل يمكنني الحضور؟

- لا يا شيرو، علينا الاجتماع هنا بعد منتصف الليل بعيداً عن أعين الجميع، عمي.. سوف يأتون فرداً فرداً خلسة وبسرية تامة، لا تقلق لن أُسبب لك أي متاعب.

ضحك وقال:

- علينا تغيير اسم المتجر ليصبح متجر المؤامرات لا الذكريات.
غادرنا بينما أكمل العم ماهان تنظيف قطعه النادرة من البؤس والأسى، وأصر شيرفين على زيارتنا للاطمئنان على صحة والدي.

- أتعلمين يا حبيبتي، بينما كنتُ أتجول اليوم في المدينة وأنشر رحيقي.

رفع حاجبيه متبجحاً وضحك بإغواء:

- راقبتُ مسرحيةَ التحقيقات العلية التي يترأسها المهرج كبير الحرس، إنهم ممثلون فاشلون مدهنون، مسرحية رخيصة، عنوان للخسة والنذالة، أنا متأكدٌ أنه لا يتم الأمر هكذا في أقبية قصر الناجد اللعين، وأكبر دليل على هذا ما حدث مع والدك، لا أعلم إن كان هذا التمثيل الرديء سينطلي على شعب المدينة، لكن للأمانة، هناك من لا يصدق هذا النفاق والتملق.

- أجل، أتفق معك، لقد اهتزت ثقة الشعب بالحكومة، وبدأ ينكسر التقديس الأعمى للناجد.

- يا إلهي، إنك تتكلمين مثلي الآن.

وضحك بشدة.

وصلنا إلى منزلي واستقبلتنا والدتي كعادتها، وأخبرتنا أن والدي طلب التحدث مع شيرفين، أثار هذا الطلب استغرابي، لكن شيرفين كان سعيداً جداً، وذهب إلى حجرته مباشرة.

عندما خرج بعد نصف ساعة تقريباً، جلس بجانبني وكان التأثر بادياً على محياه، فسألته:

- ما الذي قاله لك والدي يا حبيبي؟

نظر إليّ بأعين يملؤها الحب، وقال:

- لقد طلب مني أن أعتني بك يا حلوتي، لا أعلم ما الذي يفكر به لكنه طلب مني أن أكون سندياً لك ولوالدتكِ أبد الدهر، واعتذر لي مجدداً عما بدر منه من قبل عندما أخبرته عني.

وحينذاك ذهبْتُ لحجرة والدي وعانقته بشدة.

معزوفة الجحيم

استمر الوضع على ما هو عليه، والشعب يزداد تمردًا وغضبًا، وضاعت الحالة الاقتصادية بشكلٍ عام، وخصوصًا بعد أن أوقفوا حركة التجارة بشكلٍ كامل الأسبوع الفائت، وعلى الرغم من جميع تدابيرهم، استطعنا الاستمرار بنشر ذات الخبر الذي أحرق عنقوان كبير الحرس وغطرسته.

كنا نضع المنشورات في أي مكان، وندع فضول الناس يقودهم إليها، ولا أنكر أن قلة الحراس والتشنت الأمني الذي حصل بسبب التحقيقات العلية التي لم توصلهم لأي نتيجة، قد سهّلا أكثر مهمتنا، فهناك عدد كبير من أبناء النّاجد الأبناء فقدوا الولاء والانتماء الذي تميزوا به من قبل، فقد تعاضمت الشكوك في أمرهم، ما جعلهم فاقدي الثقة في النّاجد، ناهيك عن فقدانهم الثقة المتبادلة فيما بينهم.

قبل ليلة الاحتفال بعيد السماء، أقصد موعد انتهاء المهلة المحددة لأبي لتسليم مافروس، اجتمع في قبو متجر الذكريات عدد من الرجال من مختلف الأجيال المشككين في حقيقة النّاجد وحكمه، وطرحوا فكرة الانقلاب على السلطة، وكان يقودهم ابن تاجر الأسمدة الذي يرى أن حكم هذه المدينة من حق عائلته، بالطبع كان شيرفين متواجدًا في تلك الأمسية السرية؛ حيث طرح بعفوية مُصطنعة فكرة أن يتم كشف حقيقة النّاجد للعامة علنًا، ثم محاسبته، فلا أحد يضمن ردة فعل مؤيديه.

سأل أحدهم:

- وكيف يُمكننا فعل ذلك؟

رد عليه ابن تاجر الأسمدة:

- علينا التأكيد بأنفسنا من حقيقة الخبر المنتشر عن درب السلام، علينا الذهاب إلى هناك، ثم نقرر غدًا ما علينا فعله، فلا يجوز أن نتصرف دون أي دليلٍ بحوزتنا.

وافقه الجميع، لكنهم تساءلوا كيف يمكنهم الوصول إلى هناك، والدرب تحت الحراسة؟

هنا جاءت فرصة شيرفين ليعرض خدماته، قال لهم أنه كان يعمل في طرق التجارة البرية مع المدينة الشمالية، ومن السهل عليه الوصول إلى نهاية ذلك الدرب بطريقةٍ ما.

اتفقوا على الخروج إلى الجبال قبل موعد حظر التجول والتجمع هناك للانطلاق عندما يحل الليل، أخبرني بذلك شيرفين وطلبتُ منه الذهاب معهم، عارض بشدة، لكنني صممتُ على الذهاب.

في تلك الليلة كان الظلام دامسًا، ويُعْم الأرجاء صوت حفيف الأشجار، كنا مجموعة لا تتعدى الثلاثين فردًا، وعدد الفتيات في المجموعة لا يتجاوز الخمس فتيات، من ضمنهم أنا.

التف بنا شيرفين حول الوديان وتوغلنا في الغابة شمالًا، كنا جميعًا مسلحين بالخناجر والسكاكين والعصي وأعواد الكبريت، وكل ما توافر لنا من أدوات يُمكن أن نستفيد منها.

الظلام جعلنا نُمسك بأيدي بعضنا البعض لنكوّن سلسلة يترأسها شيرفين، كانت أصوات الحيوانات البرية والرياح قوية بما يكفي لتسمعنا معزوفة فريدة من نوعها، وكأنها قادمة من الجحيم الذي ينتظرنا، وهناك رائحة في الأجواء تنبئ بخطر محقق.

وصلنا إلى مكانٍ يظهر منه مبنى يبدو أنه مكون من طابق واحد،

وحوله سور مرتفع وبوابة، شيرفين يعرف هذا المكان جيداً، وقد اختار التوقيت الذي يتم فيه تبديل الحراس كما فعل مولينا ذلك من قبل، وهو يأمل أن يسير الأمر كما نريد.

قال:

- بالتأكيد سوف نجد حراساً هناك، لذلك علينا الانقسام لمجموعتين؛ مجموعة تتقدم وتحاول إقصاء الحراس، ومجموعة تراقب من الخلف لتحميننا، وفي حال داهمنا الخطر، أرجوكم، من يستطيع الهرب فليهرب، لكن بصمتٍ تام.

تقدّم عشرة شبان من ذوي البنية القوية يحملون خناجر حادة، وذهب معهم شيرفين، أما انا بقيت أراقبهم من خلف الأشجار، وحدث كما توقع شيرفين، ألقوا القبض على حارسين وأوسعوهما ضرباً حتى فقدوا الوعي، ثم قيدهما بحبال أحضرها أحد الشبان معه وفتحوا بوابة الجحيم.

لن أنسى طيلة حياتي ما رأيته في تلك الليلة على الرغم من جميع محاولاتي بمحو تلك المشاهد من ذاكرتي إلا أنها تعود لتداهمني وتمزق وجداني.

تحت ضوء القمر، التمعت عظام الجثث وعيونهم الجاحظة الملقاة في تلك الحفرة التي لازمت كوابيس شيرفين سابقاً، كانت رائحة التحلل والتفسخ تعم الأجواء، أفراد مجموعتنا سقطوا أرضاً من هول المشهد، ورأيت فتاةً تتقيأ على الأرض التي تشربت دماء جميع هذه الجثث وأحلامهم، وأنا أيضاً كدتُ أسقط أرضاً، لكن شيرفين عانقني، وهمس لي:

- أنا آسف يا حبيبتي.. أنا آسف، لهذا لم أكن أرغب أن تأتي إلى هنا.

على الجهة المقابلة للحفرة كان هناك حائط، وقد عُلقْتُ عليه بعض الأجساد التي لا تستطيع تمييزها إن كانت حية أم لا، يد أحد تلك الأجساد

المعلقة كانت مطوقة بأفعى سوداء تبحث عن ضحية لها، لكن ذلك الشخص لم يبالي لوجودها، وبقيت عيناه تائهتين في الفراغ، صرخت إحدى الفتيات عند رؤيتها جسداً ملقى في الحفرة فوق كومة الجثث يحاول تحريك يده المبتورة ويئن فقط، دون كلام أو صراخ.

قال شيرفين:

- ليس لدينا وقت كافٍ، هيا.. لنخرج، قبل أن يأتي أحدهم، لكنهم أصروا على تفقد ذلك المبنى المتهاك.

دخلنا ذلك المبنى الذي كان يعجّ بأجساد هزيلة غائرة الأعين ومقطوعة الألسن، كانوا هؤلاء من يعملون في مناجم الفحم كما قال لنا مافروس، فقد رأيت أدوات الحفر المهترئة الملقاة في بحيرة من المياه الآسنة في إحدى زوايا الحجرة، كانت عظام أجسادهم واضحة، الجروح تنهش ما تبقى من لحمهم، وبالكاد تستطيع رؤية أرضية المبنى من قاذوراتهم، وكانوا خائفين من وجودنا حد الموت، فقد ظنوا أننا قادمون لسلب حياتهم المسلوبة أصلاً، زحفوا ناحية زاوية تلك الحجرة القذرة وتكوموا فوق بعضهم، عظام فوق عظام.

انهار جميع من رأى هذه الأرواح العارية المكسورة، وسقط ابن تاجر الأسمدة أرضاً وبدأ ينتحب.

خرجنا من ذلك المكان ورمينا الحراس في الداخل وأغلقتنا البوابة، أسرع الجميع بالهروب إلى الغابة مبتعدين قدر الإمكان عن هذا المكان المشؤوم، عندما أنهكنا الركض، سقطنا أرضاً، ودموعنا تسيل بصمتٍ على تربتنا المباركة.

قال شيرفين:

- والآن ماذا؟ الشائعة صحيحة، هؤلاء هم أهلكم وأصدقائكم، سُلبت منهم حياتهم، ولا أعلم ما الغاية من تواجدهم في ذلك المكان، لكن بالتأكيد

علينا إنقاذهم...

لم يُكمل كلامه؛ حيث التفت الجميع باتجاه المدينة التي بدت غارقةً
بدخانٍ كثيف، وتهبّ منها رائحة شواء أجساد بشرية رهيبة.

شمس منتصف الليل

حريق، حريق، حريق، لا نستطيع إخماده، هذا كل ما سمعناه عندما وصلنا إلى مشارف المدينة التي كانت تبدو وكأنما الشمس قد سطعت ليلاً، شبَّ حريقٌ ضخم في عموم أرجاء المدينة، وجميع السكان يحاولون إخماده لكن لا فائدة، فقد نفدت كميات المياه في المنازل، تفرقت مجموعتنا، فكلُّ منا ذهب ليطمئن على ذويه، قال لي شيرفين:

- اذهبي فوراً إلى منزلِكِ عليكِ حماية والديكِ، أنا سأذهب؛ لأتفقد العم ماهان.

افترقنا وذهبتُ مسرعةً إلى منزلي الذي وجدته يحترق بشكل كامل، رأيتُ والدايَّ خارج المنزل على حافة الرصيف، أمي تنتحب، وأبي يتحدث مع أحد الجيران ويقول له:

- علينا الاحتماء من النيران في الميناء، لن يصل الحريق إلى هناك، لدينا مياه البحر وبعض المُون في المستودعات.. أرجوك، اجمع سكان الحي.. هياً.

احترقت جميع ذكرياتي وأشياءِي وصندوق السعادة الذي أهدها لي العم ماهان، لم يتبقَّ لي إلا ما وضعته في حقيبتي التي أحملها، دفتر ملاحظاتي وخنجر شيرفين والقارورة الزجاجية القديمة ومرآة الأميرة شيري.

عانقتُ والدتي، لم أجد أيَّ كلمةٍ يُمكنني قولها للتخفيف عنها، فجأة تذكرت الطفلة، ابنة مافروس، اللعنة! لا أعلم إن كان شيرفين سوف

يجلبها معه، لكن عليّ الذهاب، فقد ينساها.

جاء أبي وقال لنا:

- علينا التوجه للميناء.

أخبرتهم أنني سوف ألق بهم، قالت لي أمي حينها:

- لا تقلقي على شيرفين سوف يتدبّر أمره.

لكنها لم تسمعني عندما قلت لها:

- أنا لستُ ذاهبة إلى شيرفين.

وأسرعتُ نحو الميتم، كانت النيران تلتهم كل شيء، المتاجر والمنازل الملونة، العرابات، والكثير من البشر، وانقسم الأحياء لمجموعتين، أولى تريد الهرب، ثانية تحاول إخاماد النيران، ورأيتُ المربية وبعض العاملين في الميتم يحاولون إخراج الأطفال بجهدٍ كبير، وانقبض قلبي ندمًا لعدم اهتمامي الكافي بالطفلة، إن حدث لها أي مكروه، فلن أسامح نفسي، ذهبتُ إليها وقلتُ لها بصوتٍ مُرتجف وغير واضح:

- أرجوكِ، اجلبي لي تلك الطفلة، سوف آخذها معي وأعتني بها.

- أي طفلة تعنين؟ ما رقمها؟

- يا إلهي رقمها، أنا أظن أنه، لقد نسيت الرقم، تلك الطفلة التي جلبها لكم شاب طويل قوي البنية، وكان يتردد إلى هنا مرارًا و... عرفتُها نعم، انتظري هنا.

كانت الطفلة هزيلة جدًا، تبكي بحرقة وترتجف على الرغم من الحرارة الخانقة المحيطة بنا، حملتها بين يدي وضممتها إلى صدري، قالت لي المربية:

- لا أعلم ما صلة القرابة بينك وبين هذه الطفلة، لكن خذها، من الأفضل لي تخفيف الحمل عني.

- شيرو، لماذا أنتِ هنا؟

سمعتُ صوتَ شيرفين القادم من خلفي، كان يدفع عربة متهالكة، قد تمدد فيها العم ماهان، ويبدو بحالة سيئة جداً.

- لقد جئتُ لأخذ الطفلة يا شيرفين، كيف حال العم ماهان؟

- تحرّكي، تحرّكي بسرعة، علينا الهرب إلى مكان مفتوح بلا أبنية أو متاجر أو أشجار، ماهان تعرّض لعدة حروق، لقد وجدته ملقى في قبو المتجر، لا أعلم إن كان سيعيش أم لا ولكنني سوف أحاول إنقاذه، هيّا تحرّكي، متجر ذكرياتنا احترق بالكامل يا شيرو.

وبدموع متعبة أحرقت قلبي، رفع يده وقال لي:

- انظري، لقد احترقت آخر ذكري من والدي أيضاً.

الصراخ والعيول يعمّان الأرجاء، ورأيتُ ابن تاجر الأسمدة يصرخ في وجه أحد أبناء الناجد ويقول له:

- نريد ماءً أيُّها الوغد، سوف تلتهم النيران مدينتنا وأهلنا!

لكن ذاك الشاب لم يتحرك وقال بلامبالاة:

- لقد جفّت الساقية.

الطفلة بين يدي لم تتوقف عن البكاء، وأنا بدأتُ أبكي وأصرخ من شدة خوفي وألمي، فلم أعد أتحمّل ما يحدث.

وصلنا إلى ساحة المدينة بعد أن دسنا على عدة جثث متفحمة، وسقطت أرضاً منهكة الجسد والقلب أمام محكمة الشعب التي تشهد على احتراقنا، لكن شيرفين أمسك يدي وقال لي:

- علينا الابتعاد، هيّا، سوف تراقصنا السنة اللهب حتى تُذيب عظامنا

إن بقينا هنا، أين عائلتك؟

في الميناء تجمع عدد كبير من السكان، وأصوات الرعب والخوف

تغطي صوت موج البحر الهائج، كانت الطفلة تبكي بشدة، ولا أعلم ما الذي يمكنني فعله، اتجهنا إلى رصيف الميناء؛ حيث رأيتُ أبي يحتضن أمي الباكية.

صرخ شيرفين:

- عمي أرجوك، أريد مكانًا خاليًا، وحتى لو كان مساحة ضيقة جدًا، عليّ تفقدُ جسد ماهان، لقد تعرض لحروق كثيرة.

ودُهِش أبي عند رؤيتي أحمل الطفلة، وشيرفين بجانبني يتوسل إليه، وقال لشيرفين:

- اتبعني.

وأخذه إلى مكتبه بالتأكيد.

اقتربت مني والدتي والذعر يملأ عينيها:

- شيرو! من هذه الطفلة؟

- لقد أحضرتها من الميتم، سوف أشرح لك كل شيء فيما بعد.

اكتظ الميناء بشكل لا يوصف، جميع الناجين من الحريق اجتمعوا هنا وبدأت الاتهامات تنتشر هنا وهناك، لكن أغلبية الناس، أصحاب الدور المغتالة حرقًا أكدت أن أبناء الناجد الأمناء هم من افتعلوا هذا الحريق، أيُعقل؟ إنهم مجرمون، يريدون حرقنا، كي لا نكشف حقيقتهم!

الغضب والحقد يعتمران نفوس جميع سكان المدينة المتبقين على قيد الحياة، وأكد الجميع أن الحريق انتقاميٌّ وحشي مقصود مخطط له مسبقًا ضمن سيناريو يستهدف إذلال الناس من جهة، وإشغالها من جهة أخرى، لكن مهما حدث وسيحدث من جرائم شنيعة، فلا يجب الإذعان لهؤلاء المجرمين من قطعان عصابات أبناء الناجد.

استمرت الحرائق عدة ساعات حتى مطلع الصباح، لتخمد لاحقًا

ببطء شديد. شبان مدينتنا فعلوا فيما وسعهم لإخماد النيران التي لم تصل إلى قصر الناجد بالطبع، كانت الحرائق أكبر من المتوقع، وشحّ المياه عرقل عملية إخماد الحريق؛ حيث سمعتُ ابن تاجر الأسمدة ذاك يصرخ قائلاً:

- اللعنة! لقد منعونا من الوصول إلى الساقية لجلب المياه، إنهم أوغاد بلا ضمير.

أخبرني شيرفين أن العم ماهان في حالةٍ صحية سيئة جدًا، ويجب ترحيله لخارج المدينة للعلاج، وإلا سيفقد حياته، فقد تعرّض جانبه الأيمن لحروق عميقة تحتاج معالجة سريعة، كان غاضبًا وحزينًا بشكل لا يُصدق، وأخبرني أنه متأكد بشكل قاطع أن الحريق كان مفتعلًا لإيقاف جموح وتمرد الشعب، إنهم مستعدون لإحراق المدينة بأكملها لضمان سلامتهم، اللعنة عليهم.

أثناء حديثنا داخل مكتب أبي سمعنا ضوضاء غريبة قادمة من رصيف الميناء، خرجنا لتفقد ما يجري، حينذاك رأيتُ مجموعة من حراس الناجد يحملون أسلحة نارية موجودة بحوزة النخبة من أعضاء الأمن، ولا يتم استخدامها إلا في حالة الحرب، ما أثار قلقي وخوفي، الآن هم يشهرونها أمامنا نحن، شعبهم الذي دفع ثمن هذه الأسلحة من عرقه وجهده، وربما من دمه، من أجل أن يقتلونا بها.

سمعنا صوت إطلاق عيار ناري، وتبعه صراخ والدتي الذي اخترق روحي ومزقها.

دماء البحر

والذي يُدعى ديفان، من أجمل الصدف التي تجمعني بشيرفين أن اسمي والدينا متشابهان، ترعرع ديفان في كنف والده بعد أن توفيت والدته عندما بلغ السبعة أشهر، فقدت حياتها بسبب وباء انتشر آنذاك يفتك بالجهاز التنفسي ويقتل صاحبه في غضون أسابيع، لذلك نشأ ديفان الطفل في الميناء، ذات المكان الذي كان يعمل به جدي؛ فقد كان يضطر لاصطحاب طفله معه لمكان عمله، فهو لا يستطيع تأمين تكاليف مربية أطفال أو طلب المساعدة من أحد، ولم يتزوج قط بعد وفاة زوجته؛ لذلك جميع من كان يعمل في الميناء، يعرف والدي منذ زمن بعيد، فهو قد عاش طفولته وشبَّ في الميناء، واستلم العمل بشكل مباشر بعد وفاة جدي.

أذكر أن جدي كان يُحدثني ذات مرة عن أبي عندما بلغ عامه الخامس، وبينما هو يلعب على رصيف الميناء جُرِّحَ ساقه وسقط في البحر، كان ديفان حينها لا يُتقن السباحة جيداً، صرخ طالباً النجدة، فأنقذه أحد العاملين في الميناء، وعندما جاء جدي لتفقده وجد الدماء مختلطة بماء البحر، فقال له:

- ديفان.. هل أنت بخير؟ ما هذه الدماء؟

لكن أبي أجاب ببساطة:

- هذه دماء البحر.

الآن، وبعد ثلاثة وخمسين عاماً من هذه الحادثة، اختلطت دماء ديفان مرةً أخرى مع مياه البحر، لكن هذه المرة سألت دماؤه بعد أن فقد

حياته على رصيف الميناء.

حدث اشتباك بين أبناء الناجد الذين جاؤوا للقبض على والذي بعد انتهاء المهلة المحددة له، وبسبب غضب العامة ورؤيتهم لمن افتعل الحرائق، تكاتفوا وحاولوا منعهم من اعتقال أبي، لكن جميع المتواجدين في الميناء لا يملكون أي أسلحة قد تشكّل خطراً حقيقياً على مجموعة الحراس المسلحة بالبنادق، وخلال الاشتباكات تعرّض أبي لطلق ناري استقر في قلبه.

هرب حراس الناجد خوفاً من غضب الناس الذين تصدّوا لهم، وكانت أوامر الناجد تنص على جلب أبي حياً، لكنهم ارتبكوا وفقدوا زمام السيطرة على أنفسهم، واستطاع أحد العاملين في الميناء القبض على أحد الحراس وتجريده من سلاحه.

توفي أبي في أحبّ الأماكن على قلبه، في المكان الذي قضى فيه طفولته وشبابه، وعمل فيه بجدّ وتفانٍ، ذات المكان الذي قابلتُ به شيرفين والقبطان دياز.

عندما رأيتُ والدي مُمدداً على رصيفِ الميناء بلا حراك، للوهلة الأولى شعرتُ أنني وحيدة في هذا الكون، وسمعتُ صوت عظامي تصطك ببعضها داخل جسدي، سقطتُ أرضاً فوق دماء أبي بجانب والدتي التي قُتِلَ شريك حياتها أمام عينيها، كان نحيبها يكسرُ ما تبقى من وعيٍ لديّ، كانت جاثمةً فوق جسده تبكي، تجمّع كل من في الميناء حولنا، وقام شيرفين بحمل جسد أبي وتلطّخت ثيابه بدمائه، شعرتُ في هذه اللحظة، وكأنما روحي فارقتني، بينما يتجه شيرفين بتناقل إلى مكتب والدي قالت لي أُمي بصوتٍ مرتجف:

- لا أستطيع أن أرى جيداً، خذيني إلى ديفان، عليّ توديعه.

داخل المكتب، وضعت أُمي رأسها فوق صدر والدي وراحت تنتحب

بصمّتِ صاحبٍ يملأ الكون بأكمّله، أمسكتُ يد والدي، ورحت أتحسس أصابعه التي تحمل علامات الشقاء وخطوط العمر الذي أفناه في هذا الميناء.

راود ذاكرتي آخر حديثٍ دار بينه وبين شيرفين عندما أوصاه أن يعتني بنا، لقد كان يشعر أن نهايته قد اقتربت، فانهمرت دموعي أشد من قبل، بعد هذه الذكرى، فأشحتُ بوجهي عن الجموع التي كانت تقتحم خصوصية حزننا وألمنا، بينما الدموع والذكريات تُغرقان المكان، شعرتُ بثقل كل اللحظات التي تجمعني مع والدي تطبق على صدري وتخنقني، حينها عانقني شيرفين بيدين مرتجفتين، وتساقطت دموعه على كتفي.

كم تمنيتُ أن أبقى بجانب جسد أبي ليومٍ إضافي آخر على الأقل، لكن جاءت النسوة وأبعدن والدتي عن أبي، أما أنا فقد شعرتُ أنني لا أستطيع الحراك عندما رأيتُ شيرفين يحمل والدي ويأخذه مني.

اقترح شيرفين أن يُدفن في أرض مجاورة للميناء؛ حيث يتوجب علينا اتباع الأعراف والإسراع في دفنه؛ لعل روحه تجد خلاصها وراحتها في ذلك المكان، فوسّد جثمانه الطاهر الثرى بمساعدة بعض أصدقاء أبي، ووضعتُ مرساة قديمة كشاهدة فوق قبره، بعد أن أفلتوا من قبضة صراخي الذي ملأ الميناء.

عندما عاد شيرفين، كانت أمي قد غطت في نومها بعد بكاءٍ طويل، فلقد تعبت وغفت برفقة حزنها وحسرتها، أما أنا فلم أتوقف عن البكاء والنحيب لهذه اللحظة، جلس شيرفين بجانبني مكسور القلب في مكتب أبي الذي كان يحتضن والدتي المنهكة، والعم ماهان الذي يُصارع الموت.

عانقني وشدّ بيده على موضع قلبي وهمس لي من خلف دموعه:

- سوف تحيا ذكراه هنا للأبد.

نظر في عيني وقال:

- شيرو، أنا لم أكن أتخيل أن تصل الأمور لهذه النهاية المأساوية، أشعر أنني روح ملعونة تسبب الموت واليؤس أينما حلّت، طيلة هذه السنوات كنتُ أوم العم ماهان على انسحابه وعدم مساعدته لأبي، لكن انظري إليّ الآن، أنا محطم تمامًا، كنتُ عاجزًا عن فعل أي شيء لإنقاذ والدي، أو على الأقل القبض على قاتله حينذاك، فقد كان أمام عيني، لكنني بقيتُ مختبئًا خلف خوفي، بينما العم ماهان كان يعرف نفسه جيدًا، فلم يتبجح أو يدعي الشجاعة، واليوم يتكرر الموقف ذاته والعجز ذاته، أشعر أنني فقدتُ والدي مرتين.. أنا أحمل وزر كل من فقد حياته الآن، وأحمل ذنب حزن كل فرد في هذه المدينة، وأحمل وزر حزنك وحزن والدتك. لم أكن بحالة نفسية تسمح لي أن أجادله، لذتُ بالصمت فقط، ودموعي تحرق وجنتي.

- أنا السبب المباشر لما حدث من موت واعتقال وحرائق، كيف تتوقعين ردة فعل هؤلاء الناس في الخارج عندما يعلمون أنني من نشر الأخبار المُحرّضة، وسبب كل هذا الخراب؟

- كفى هراءً يا شيرفين، الأمر لم يعد قضية شخصية، لم تُعد القضية تتعلق بقتل والدك أو والدي، جميع من ذهب معنا ورأى ماذا يوجد في نهاية ذلك الدرب اللعين، وجميع من تضرر منزله، أو فقد أحدًا من عائلته، أصبح جزءًا من هذه القضية.

أسند رأسه على كتفي وقال:

- أنا متعبٌ جدًّا يا شيرو، لن أتحمّل خسارة المزيد من الأرواح بسبب رغبتني في الانتقام، أشعر أنني أغرق ولا أستطيع السباحة لبرّ الأمان، خانتني يداي عندما احتجتهما للدفاع عن والدي، وخانتني عقلي الآن في إيجاد مخرج من هذه الدوامة اللعينة.

بينما شيرفين غارقٌ في بؤسه وروحي تنتظر خلاصًا قريبًا، طرق

أحدهم باب المكتب، كان أحد أصدقاء أبي القدماء، قال لنا:
- ابنتي شيرو، هل يُمكنكم الانضمام إلينا في الخارج؟ هناك أمر مهم
يجب مناقشته.

الفصل الثاني

"إن الطريقة الوحيدة للتعامل مع مجتمع غير حرّ هي أن تصبح حرّاً
جداً، لدرجة أن يُصبح وجودك عبارة عن قانون تمرد".

- ألبير كامو، كاتب وفيلسوف فرنسي.

عصيان

عند مطلع النهار، اجتمع جميع من كان بصحة جيدة وقدرة على الحركة عند رصيف الميناء، ذلك الرجل صديق والدي قال لنا:

- ابنتي شيرو، نعلم أن الوقت غير مناسب، نحن نقدّم لكِ أحرّ التعازي بفقدان والدكِ الذي كان غالباً على قلوبنا جميعاً، لكن لقد طلبتُ منكِ الحضور؛ لنُخبركِ أننا لا نصدق مزاعم حكومة الناجد في مسؤولية والدكِ وأخيكِ عن كل هذا الخراب، جميعنا هنا يعرف السيد ديفان حق المعرفة، وثق في تربيته جيداً، وكما شهدنا أنهم افتعلوا الحريق، فمن المرجح أنهم دبروا هذه التهم لكم لتغطية فسادهم وظلمهم.

وافقه جميع المتواجدين، وقدموا لي واجب العزاء والمواساة، ثم سأل شيرفين:

- هل لدى أحدكم أيُّ طريقةٍ ممكنةٍ للخروج من هذه الورطة؟

- نعم، العصيان.. علينا الخروج بعصيانٍ عامٍ للضغط عليهم؛ لكي يعرفوا أننا لن نبقى خائعين بعد الآن.

قال ذلك ابن تاجر الأسمدة الذي التحق بنا اليوم.

- لكن هذا خطر، إنهم يملكون أسلحة نارية، ونحن لا نملك إلا بعض الخناجر والعصي.

قال صديق والدي:

- الأسلحة النارية محدودة وليست بحوزة جميع أبناء الناجد، وأيضاً

نحن نعوّل على تعاون بعض أبناء النّاجِدِ معنا، فنحن أهلهم في نهاية المطاف.

قال شيرفين:

- الأسلحة النارية ليست محدودة كما تظنون، أنا متأكّد أنهم يملكون مستودعات لها.

- ما العمل الآن برأيك؟ لدينا بندقية واحدة، ولا تستطيع أسلحتنا البدائية فعل شيءٍ أمامهم.

- نحتاج دعماً من الخارج.

قال ذلك شيرفين شارّد الذهن:

- علينا إيصال رسائل للمدن المجاورة توضح حالنا، سوف يستغلون ضعفنا وحاجتنا لهم، فهم بالتأكيد لن تهمهم إلا مصلحتهم، لكن على الأقل بشكل مبدئي نستطيع ضمان حليف ضد النّاجِدِ، ولا تنسوا أن حكومة هذه المدينة بعد أزمة موت العرّاف وفضح تجارته وأعماله المشينة، باتت محط أنظار الحكومات الأخرى، والجميع ينتظر انتهاز فرصة سانحة للدخول إلى المدينة وفرض سيادته أو تسيير مصالحه.

- هذا الأمر يُسمى خيانة للأرض يا بُني، كيف تطلب منا فعل ذلك؟ نحن ضد النّاجِدِ، لكننا أيضاً لا نريد تسليم أرضنا للغرباء!

ووافق الجميع على كلام الرجل واحتدت المناقشات، ولم يصلوا لأيّ حلٍ يُمكنه دعم العصيان أمام النّاجِدِ.

اقتربتُ من شيرفين وسألته:

- هل تظن أن خبر الحريق قد انتشر خارج حدود المدينة؟

- لا أعلم، لقد أغلقوا جميع السبل ووسائل التواصل المختلفة مع العالم الخارجي، بماذا تفكرين؟

- إذا علم أخي مافروس بما جرى، سوف يتصرف بما هو مناسب، وبذلك نكون قد ضمنا طلب دعم خارجي، دون أن نُعرض أنفسنا لتهمة الخيانة.

بعد فترةٍ وجيزة، وبينما الجميع يبحث عن أي أدوات قد تساعدنا في حماية أنفسنا، جاءت مجموعة من أبناء الناجد الأمناء إلى الميناء، في بادئ الأمر استنفر الجميع، لكنهم رفعوا أيديهم مستسلمين، وأخبرونا أنهم جاهزون ليكونوا عوناً لنا وليس ضدنا، فقد قالوا أنهم سمعوا كبير الحرس يطلب من رجاله -بأمر من الناجد بالتأكد- أن يفتعلوا الحرائق في المدينة بغية التخلص من المجرم الخائن الذي كان سبب كل ما حدث.

سألهم شيرفين عن عدد الأسلحة النارية التي بحوزة جيش الناجد، فأشاروا إلى أنها قليلة، لكن شكوك شيرفين لم تهدأ من ناحية هذا الأمر.

ابن تاجر الأسمدة الذي علمتُ خلال محاولته تجييش السكان ضد الناجد أنه يُدعى ماتياس، كان يُحرض الجميع على العصيان، ويشرح لهم ما رأيناه في نهاية درب السلام، بينما شيرفين يراقب الأمر، طلب أن يجتمع بجميعنا، وخاصة من ذهب إلى درب السلام، غمز لي وقال:

- يبدو أن دماغي ما زالت تعمل، لديّ خطةٌ يمكنها أن تقلب الأمور.

خطة شيرفين كانت تعتمد على الضغط المعنوي ومحاولة كسب أكبر عدد ممكن من أبناء الناجد في صفنا، وقف على مصطبة مرتفعة وبجانبه ماتياس وقال لنا:

- ليلة أمس قبل اندلاع الحريق نحن ومجموعة من أبنائكم وصلنا إلى نهاية درب السلام ورأينا ماذا يجري هناك، وأغلبكم سمع بالأمر، يوجد الكثير من الجثث، والكثير من الأحياء على شفير الموت، لذلك خطر لي أنه يُمكننا إخراج من بقي منهم على قيد الحياة ونقلهم إلى ساحة المدينة، بالإضافة إلى تضامننا يدًا بيد لإعلان العصيان العام، وهدفي من هذا

التصرف هو الضغط على حكومة الناجد وفضحها فيما يتعلق بحقيقة درب السلام، بذلك سوف نكسب تأييد جميع سكان المدينة والتجار وبعض أبناء الناجد لنا بعد رؤيتهم للحقيقة أمامهم.

صاح ماتياس:

- أنا موافق، سأذهب برفقة بعض الرجال المسلحين إلى هناك، بكل الأحوال علينا إخراج من تبقى منهم على قيد الحياة من ذاك المكان بغض النظر عن نتائج العصيان، فلا يُمكننا تركهم في ذلك الجحيم، وأظن أن الوقت مناسب جدًا لذلك، فبعد ما حصل سيكون بالتأكيد جميع رجال الناجد مجندين لحمايته، ولن يخطر لهم أن يحموا درب السلام الآن.

وافق الجميع على الخطة، وأكدوا أن علينا إخراج الضحايا من هناك، إذ يكفي ما قاسوه لغاية اليوم، بدأ ماتياس بتجهيز ما يحتاج ليذهب إلى مهمته؛ حيث قرر أن ينطلق اليوم مساءً، في هذه الأثناء اجتمع شيرفين مع مجموعة أبناء الناجد الذين انضموا إلينا، وسألهم إن كانوا قد أعلنوا تمردهم بشكل رسمي، فأخبروه أنهم جاؤوا جلسةً إلى هنا، حينها طلب منهم الإبقاء على عدد قليل منهم للذهاب مع ماتياس، أما البقية فعليها العودة لقصر الناجد لعدم إثارة الشبهات؛ حيث قال لهم شيرفين:

- غدًا صباحًا عليكم التواجد في ساحة المدينة أمام محكمة الشعب عندما نعلن العصيان، ويجب أن تخبروا كبير الحرس ما سوف أملكه عليكم الآن، أريد أن أطلب منكم محاولة عدم السماح لأي أحد آخر غدًا أن يتجول في المدينة سواكم لحين الانتهاء من نقل الضحايا إلى ساحة المدينة.

- حسنًا، سوف نتطوع غدًا لتفقد المدينة صباحًا، أنا ورفاقي، هذا أمر يسير، لا تقلق.

قال ذلك أحد أفراد المجموعة؛ حيث كان أعلاهم منصبًا، كما يتضح من لون بزته القاتم.

بقي خمسة أفراد للذهاب مع ماتياس، وقد طلب من شيرفين الذهاب معه لكنه لم يوافق، فقال له:
- أنا لديّ مهمّةٌ أخرى الآن.

اللا عودة

بعد خروج ماتياس ورفاقه لجلب الضحايا من درب السلام، سألتُ شيرفين عن المهمة التي يريد تنفيذها، لم يجبني، فقط غمزني وقال لي: - سوف أذهب، لأبشرك لاحقًا بأخبار جيدة.

طلب شيرفين من عدة رجال التمرکز عند جميع مداخل ومخارج الميناء؛ تحسبًا لأي مدهامة قد نتعرض لها من قبل أبناء الناجد، كان الهدوء الحذر الذي يعم الأجواء مُقلقًا أكثر من اللازم، فبعد محاولة اعتقال والدي، ومن ثم قتله خلال الاشتباك، لم يأت أحد إلى هنا.

مضت عدة ساعات على انطلاق ماتياس ورفاقه، وانطلاق شيرفين وحيدًا لهدفه غير المعلوم، ولم تستفق والدتي من نومها بعد، حل الظلام ولم يحدث أي شيء يذكر غير صعوبة التعامل مع ابنة مافروس؛ حيث لم أكن أتخيل أن التعامل مع الأطفال شاق ومتعب إلى هذا الحد، فقد كانت تبكي وتصرخ، ولا أعلم كيف أتصرف حيال ذلك، لكن بكاءها المحموم جلب لي إحدى السيدات التي كانت ترى أنني لستُ مناسبةً للتعامل مع الأطفال، تطوعت للاعتناء بها مؤقتًا ريثما نعود إلى منازلنا، هذا إن بقيت عامرة، ولم تتحول لأطلال وخرائب بفعل الحريق المتعمد.

في وقتٍ متأخر من الليل، كنتُ مستيقظةً وجالسةً بجانب العم ماهان الذي كان يستيقظ بشكلٍ متكررٍ يئنُّ ألمًا ويعاود النوم، حاولت ترطيب شفثيه بالماء وتنظيف القيح الذي يخرج من الحرق الذي أصاب جانب وجهه الأيمن، فجأةً أطل شيرفين من باب المكتب بوجه مشرق، ووقف

بشكل مائل وقال لي:

- أنا المنقذ والبطل هنا، عليك سُكري وتقدير جهودي يا حبيبتي.
عانقته وقبّلت خده الأيمن:

- أين كنت؟ لقد قلقتُ عليكَ جدًّا.. أريد إخبارك أن والدتي لم
تستيقظ لغاية هذه اللحظة، هل هذا طبيعي؟

اقترب منها، وتفقدّها جيدًا، فتح عينها وفحص نبضها وتنفسها.
- هل أصيبت بأيِّ مكروه يا شيرفين؟
بدأ القلق يتملّكني.

- تنفسها غير منتظم، تبدو لي أنها فاقدة للوعي، لكن لا بأس، أنا قد
تصرفت بخصوص هذا الأمر مسبقًا.

التفت إليّ وقال:

- حبيبتي شيرو، غدًا إن أردتِ المشاركة بالعصيان، فعليك الذهاب
بمفردك، فأنا قد تدبرتُ طريقةً لنقل العم ماهان وبعض الجرحى الذين
هم في حالة سيئة، بالإضافة إلى والدتك بالتأكيد، إلى مدينتي ليتلقوا العلاج
اللازم، ويتوجب عليّ الذهاب معهم.

- هل حالة أُمي سيئة إلى هذا الحد يا شيرفين؟ أرجوك، قل لي شيئًا
أفهمه.

- لا أعلم، لكن لا داعي للقلق، لقد مرت بوقتٍ عصيب، وعلى أيِّ حال
سوف أنقلها مع الجرحى كما قلت لك.

كان يتهرب من النظر إليّ عندما نطق بهذه الكلمات.

انقبض قلبي، لكنني شعرتُ بارتياح لوجود بارقة أمل تنقذ حياتهم،
لا أنكر الخوف الذي راودني، فقد استشعرتُ أن شيرفين يود أن يرحل،
ربما يريد الهرب فقط من هذه الأوضاع الراهنة، دائمًا ما كان يراودني

هذا الإحساس، بالنهاية هو ليس ابن هذه الأرض ولا ينتمي لها.

أخبرني أنه ذهب إلى قصر المزارع صاحب مخبز السماء الذي يقطن فيه نجله الأكبر بعد أن ورثه عن أبيه، القصر يقع جنوب المدينة، لم تصله النيران والخراب، طلب شيرفين مقابلته بسبب علمه بنفوذ الكبير وثروته، فقد كان يعلم أنه يملك سفينة خاصة به، لا تخضع لقوانين المدينة العامة.

طلب منه شيرفين استخدام سفينته لنقل ضحايا الحريق والحالات الحرجة إلى المدينة الجنوبية، وأنه سوف يكون برفقتهم؛ ليشرح للمسؤولين في مدينته الوضع الراهن، بالطبع بعدما أخبره بكل ما حصل من أحداث ومشاكل في الخارج تحت أعمدة قصره العالي، قدّم له مبلغاً من المال وأحد خناجر العم ماهان النادرة تقديراً لمساعدته لنا.

سألته بإلحاح:

- شيرفين هل ستكون أُمي بخير؟

- نعم، بالتأكيد.

- سوف أنتظر عودتك بفارغ الصبر.

أمسك يدي وضحك قائلاً:

- هل تطنين أنني سوف أخطفهم وأطالبكم بفدية؟ أعلم أنك مفلسة.

- شيرفين كنتُ أفكر في الأمر منذ رحيلك، أنت لست ملزماً...

- شيرو، توقفي، لماذا لا تثقين بي؟ لقد مللتُ من إقحام إحساسك

الغريب هذا بيننا على الدوام، بالتأكيد سوف أعود في نفس اليوم، الميناء قريب جداً، وإن لم أستطع العودة بالسفينة، فسوف أقطع هذه المسافة سباحة.

انهمرت الدموع من عيني، عانقني وقبّل جبيني:

- هياً علينا تجهيزهم، سوف ننطلق خلال ساعات الليل هذا أفضل لنا، سوف أعود غداً أنا أعدك يا حبيبتي، وبالمناسبة، هل عاد ماتياس؟

- لا، لقد تأخروا، أنا قلقة بعض الشيء.

نقلنا والدتي التي لم تُظهر أي استجابة بالرغم من محاولات شيرفين إيقاظها، تعاضم قلقي عليها، فلم أفهم منه أي شيء عندما شرع يشرح لي ما الاحتمالات الممكنة، لكنه طمأنني بوجود أطباء ماهرين في مدينته، حملنا أيضاً العم ماهان إلى السفينة بمساعدة بعض العاملين في الميناء، بالإضافة إلى خمسة أشخاص آخرين كانوا في حالات حرجة، من ضمنهم طفل يبلغ عشرة أعوام قد احترقت كلتا يديه بالكامل، وذهب شيرفين معهم بعد أن قبّلني على شفتي قبلة طويلة.

عند مطلع الفجر جاء بعض الأفراد من الذين ذهبوا مع ماتياس، وكانوا بحالة يرثى لها، فقد كان الخوف والذعر يغطي ملامح وجههم كما حدث معنا عندما دخلنا ذلك المكان.

طلبوا بعض المساعدة والمدد؛ فقد اشتبك ماتياس مع الحراس، وتعرّض لضررٍ جسيم ولا يقوى على السير بمفرده الآن، ذهبت مجموعة من الرجال لتقديم المساعدة لماتياس ورفاقه، واتفقنا أن نجتمع في ساحة المدينة؛ لنعلن العصيان العام ونواجه قدرنا.

عندما خرجنا من الميناء باتجاه المدينة، دسنا على جثث متفحمة، لا يُمكن تمييز جنسها أو ملامحها، بعضنا سقط أرضاً من هول المشهد، وبعضنا زاده ذلك غضباً، فقدت المدينة معظم سكانها، أهذه الأرض المباركة غدرتنا وتخلّت عنا أم نحن تخلينا عنها؟ لا أعلم، كان رأسي يغرق بأفكاري السوداء، ورائحة تفحم الجثث تخنق قلبي، والخوف مما هو قادم يتغلغل في عظامي.

كانت الجموع تترنح بين التردد والخوف، لكن أمواج الغضب العارم

باتت ترتطم بقوة بأزقة صبرنا، لذلك لم يتراجع أحد، والمدة التي نحتاجها للوصول إلى ساحة المدينة؛ حيث تقع محكمة الشعب سيراً على الأقدام، لا تتجاوز النصف ساعة، لكنني شعرتُ أنها يوم كامل، وأُنني كبرتُ عشرة أعوام في هذه اللحظات من عمري.

في ساحة المدينة أمام محكمة الشعب وقفنا بجانب بعضنا البعض مع دموعنا ويأسنا، وفي الواجهة اصطف كلُّ من كان يحمل أسلحة بسيطة، وانتظرنا قدوم ماتياس ورفاقه.

بعد وقتٍ وجيز جاؤوا محملين بتلك الأجساد العاجزة ذات الروائح الكريهة وأنزلوهم من العربات كمن ينقل صناديق الفاكهة التالفة، وأسرعوا بإبعاد العربات من المكان، وكانت أعدادهم رهيبة، تفوق عددنا بكثير، بعض السكان تعرّفوا على ذويهم، لكن لم يستطيعوا الاقتراب منهم، فقد كانوا بحالة زعر شديد وخائفين من أي حركة تصدر منا، وقد أخبرنا ماتياس الذي كان أيضاً جالساً في عربة، وقدمه تنزف من عند الفخذ بعد تعرضه لطعنة خنجر من أحد حراس درب السلام، أنهم بذلوا جهداً كبيراً بنقل هؤلاء الأشخاص للعربات، وأن هناك ما يساوي عددهم، وما زالوا يقبعون في ذلك المكان.

حدث ما توقعه شيرفين، منظر هؤلاء الضحايا أثر في سكان المدينة، فجعل قلوبهم تغلي كراهية وحقداً، متخلين عمّا قد ينتاب نفوسهم من تردد وتهاون.

بين أصوات الخوف والذعر أثناء العصيان تناهى إلى مسامعي حديثُ دار بين مجموعة تود الانسحاب، لكن أحدهم قال:

- نحن في مكانٍ لا عودة منه الآن، لا نملك أيَّ خيارٍ آخر غير الاستمرار.

بعد برهة رأينا مجموعة من أبناء الناجد وكبير الحرس قادمين نحونا.

ليلة مضيئة

الموتُ له رائحة ولون وطعم أيضًا، وله صوت مرتفع يقرع طبولًا تمهيدًا لقدمه، ليس لنستعد له؛ بل ليدبّ الخوف في نفوسنا، ويُجبرنا على الخنوع والاستسلام، وللموت وجه يُشبه الملاك لا تستطيع تمييزه عن أجمل أحلامك، ويدُّ ناعمة تسحب الروح من الجسد بسلاسة دون ترك أي أثر خلفها.

تقدّم أبناء الناجد الأمناء الذين قرروا مؤازرتنا، وقال رئيس المجموعة لكبير الحرس:

- لقد كنا هنا صباحًا نتفقد أوضاع المدينة، ورأينا هؤلاء هنا في ساحة المدينة..

أشار بيده إلى مجموعة الأجساد المرتجفة خوفًا أمامه:

- وأردنا إخبارك بالأمر على الفور، فنحن لا نعلم كيف وصلوا إلى هنا.

جفل كبير الحرس وظهرت علامات التوتر عليه بشكل واضح، كما لو أنه قد فقد القدرة على الكلام، بالطبع لم تنتلِ هذه الكذبة عليه، فهو يعلم أن أحدهم جلب هؤلاء الضحايا إلى هنا، لكن انتهى الأمر، لا مجال للجدال فيه، فقد أصبحوا هنا.

انتهز ماتياس الفرصة وقال:

- ما هذا يا سيادة كبير الحرس؟ لقد جئنا هنا لنستفسر منكم عمّا

علينا فعله بخصوص منازلنا المتضررة بفعل الحريق، وإذ هؤلاء هنا، أنا تعرفتُ على بعضهم، لقد شهدتُ بنفسِي على إرسالهم إلى درب السلام بعد محاكمتهم، فهل يمكنك شرح ما يحدث؟

لم يصدر عنه أي جواب، وتقدم شخص آخر منا وقال:

- كلنا نعلم أن درب السلام واجهة تجميلية لحكم الموت البشع، لكننا لم نتوقع يوماً أن نرى هؤلاء المذنبين ما زالوا أحياء بطريقةٍ ما. وارتفع صوت اعتراضات الشعب، وبعضهم بدأ يشتم ويدّم حكومة الناجد وأتباعه.

أجاب كبير الحرس بارتباك قائلاً:

- أنتم بلا رحمة، طيلة هذه السنوات أردتم الموت لجميع المذنبين، ونحن من حفظنا حياتهم بعيداً عن تعجر فكم، كل فرد منا يستحق فرصة أخرى للعيش، وحتى لو ارتكب ذنباً ما، وبالمناسبة، ما بال قدمك يا سيد ماتياس؟

لم أتمالك نفسي، وضحكتُ بصوتٍ مرتفع جذب الأنظار إليّ، ثم قلت:

- سيدي كبير الحرس، هل أنت مدرك ما تقوله؟ أم أنك تحاول إيجاد مهرب من هذا الوضع؟ عن أيّ فرصةٍ عيشٍ تتحدث عنها؟ إنهم بحالة يرثى لها، انظر إليهم جيداً، أجساد خاوية معذبة خائفة بأرواح متكسرة، هل هذا ما تسميه بفرصةٍ أخرى للعيش؟

- أنت شقيقة الخائن مافروس، أليس كذلك؟

- أنا ابنة السيد ديفان الذي قتله رجالك بلا حق، وأردف ماتياس

معقّباً على كلامي:

- وأنا قد تعرضت لطعنةٍ خنجر، بينما كنتُ أدافع عن السيد ديفان.

تجهم وجهه، لم يستطع إخفاء غضبه، وأمر أتباعه باعتقال هؤلاء

الهاربين كما أسماهم؛ ليمثلوا أمام الناجد، لكن رجال المدينة أوقفوهم، وأحاطوا الضحايا بجدار بشري جعل كبير الحرس يبرق ويرعد، وبدأ يهدد بالقتل كل من يقف في وجهه، لكن ماتياس صرخ في وجهه قائلاً:

- لن يتحرك أحدٌ من هنا قبل أن نفهم ما يجري أو نموت، إننا نعلن العصيان العام بشكل رسمي، ولن نسمح لكم بالتمادي أكثر من هذا، إن أردت التخلص منا، فعليك الأمر بقتلنا جميعاً فرداً فرداً، في هذه اللحظة انضمت المجموعة المتمردة إلينا، ووقفوا حول ماتياس الذي أكمل قائلاً:

- نعلم أن قتلنا أمر يسير بالنسبة لك، ربما لم تكفيك ضحايا الحريق الذي أمرت بإفتماعه، لكن إن فعلت هذا، فلن تجد شعباً خانعاً تقدّمه لناجِدك على مذبح الدكتاتورية والاستبداد؛ ليجلده بسياط الذل، ويقيده بسلاسل العبودية، هيّا القرار لك الآن، إما أن تُقدّم لنا تفسيراً عما يجري في مدينتنا وتستمع لمطالبنا، أو أن نموت هنا فوق أرضنا.

لم يُجدِ كلام ماتياس نفعاً، فقد أمر كبير الحرس باعتقاله قبل أي أحد آخر، وحدث اشتباك بين المعتصمين في الصفوف الأمامية بجانب ماتياس وبين أبناء الناجد، تفوقنا بالعدد عليهم، لكنهم يتفوقون علينا بالأسلحة والعتاد، وبعد أن تكبد كلا الطرفين بعض الجرحى، انضمت مجموعة أخرى من أبناء الناجد للاعتصام بعد أن تعرضت عائلاتهم وذويهم للأنى.

ما وضع كبير الحرس في موقف محرج جعله يقرر الانسحاب، أمر أتباعه بتطويق ساحة المدينة بالكامل وعدم السماح لأي أحد الخروج من هنا ريثما يقرر مصيرنا.

أصبحت ساحة المدينة التي نحتفل بها كل عام في ذكرى يوم الاستقلال سجنًا كبيرًا باردًا، رائحة الجثث والجرحى كانت تزكم الأنوف، حاولتُ مساعدة أيّ فردٍ يحتاج لتنظيف جرحٍ سطحي، فقد قدّم لنا أحد أبناء الناجد الذين احتجزونا في الساحة بعض المناديل والضمادات، وكان

ضحايا درب السلام يصدرون أصواتًا غير مفهومة وأنين ألم، حاولتُ الاقتراب من أحدهم، لكنه زحف إلى الخلف، أمسكتُ يده عنوةً، وكانت هزيلة بشكلٍ لا يُصدق، بدأ يصرخ ويحاول الإفلات مني، اقتربتُ أكثر، رغم صعوبة تنشق تلك الرائحة عن قرب، وقلتُ له:

- أرجوك، اهدأ، نحن هنا من أجلكم، سوف نحاول تعويضكم عما حصل لكم، لكنه لم يبيد أي تجاوب معي، واستمر في محاولة إفلات يده من يدي، وكأنني شبّح الموت.

ماتياس لم يدخر جهدًا بالكلام وإقناع أبناء الناجد بمساعدتنا والانضمام إلينا بعد أن بات قادرًا على السير، فقد تطوَّع أحد الشبان بتنظيف وتضميد جرحه بشكل بدائي بسيط بهدف إيقاف النزيف، لا أنكر أن كل ما حدث قد أثر جدًّا بأبناء الناجد، فأينما ضعف نفوسهم، لكن خوفهم من كبير الحرس كان يطغى على شجاعتهم، وصوت الحق في نفوسهم.

حلّ الظلام، ما زلنا في ساحة المدينة نصف أحياء ونصف موتى وجدران المحكمة الخاوية من الحق تطل علينا، وميزان العدل ترجح كفته للسلطة الحاكمة، بالتأكيد لم يستطع أحدٌ أن ينام في تلك الليلة القاسية وقبل ساعة الفجر بقليل، سقط أحد أبناء الناجد أرضًا يبكي بحرقه، ويقول:

- لقد رأيتُ جارنا بينهم، كان صديق والدي، أنا أريد معانقته، لكن هذا يبدو مؤلمًا.

في هذه الأثناء وصل شيرفين للميناء بعد أن نقل المتضررين؛ لتتم معالجتهم في المدينة الجنوبية، ومافروس يحاول أن يعرض ما يحدث في بلده على أعضاء اللجنة الأمنية العليا، بعد أن وصلته أخبار المدينة عن الحريق وأعداد الضحايا التي خلفها.

في تلك الليلة التي أمضيناها في العراء، وعلى الرغم من السواد الذي بدأ يعتمر في دواخلنا ويمتد إلى واقع حالنا، فقد كان القمر كبيرًا جدًا ومضيئًا بشكلٍ مميز، كأنه يقول لنا "أنا هنا معكم أضيء دربكم"، وكانت ليلةً مضيئةً بامتياز.

إعلان الحداد

عند مطلع الفجر وبعد ليل طويل جدًا مع طيف شبح الموت وأعوانه، جاء ماتياس يعرج وجلس بجانبني، سألني أين شيرفين الآن؟ فأخبرته بما حدث أثناء غيابه.

- هذا جيد، على الأقل لن نكون قلقين بشأن حالتهم الصحية، لكن متى سوف يعود؟ إننا بأمرس الحاجة إليه.

- سيعود قريبًا، أنا متأكدة.

- شيرو، لديّ سؤال فضولي، أعلم أن الوقت غير مناسب الآن، لكن أين مافروس؟

- إنه بخير، ولكن لا أعلم أين، لقد خرج من هنا بطريقةٍ ما.

لم أخبره أي تفاصيل، فأنا لا أعلم إن كان ذلك سيفيدنا أم سيورطنا.

- ليتنا نستطيع أن نعرف أين هو، إن كان خارج المدينة، سيكون أمرًا جيدًا لمساعدتنا ودعمنا من الخارج، يمكنه استجداء مساعدة من بعض الأطراف الذين قد تكون لهم مصلحة ما، أو هم سعداء وشامتون بوضع حكومة الناجد، فأنا أعلم أن لهم أعداء كثر في الخارج، فالداعم الوحيد له هو حكومة المدينة الشمالية، والآن هي أيضًا متورطة بسبب العجوز الخرف.

سمعنا صوت مشادة كلامية من خلفي، التفتتُ، فرأيتُ شيرفين مع مجموعة من الذين بقوا في الميناء يحاولون إقناع الحراس بالسماح لهم

الدخول إلى ساحة المدينة، همّ ماتياس يريد الذهاب إليهم، لكن أمسكتُ يده:

- اجلس هنا، شيرفين سوف يتدبر الأمر.

لم يخب ظني، بعد عشر دقائق تقريباً جاء شيرفين إلينا مع مجموعة من الرجال والنساء الذين تفرقوا هنا وهناك، ألقى التحية علينا وأخبرناه بمختصر ما حدث نهار أمس، وضع يده على رأسه، وبدأ يفكر.

بعد زهاب ماتياس لإكمال خطته في كسب أكبر عدد من أبناء الناجد في صفنا قال لي:

- أنا أحمل أخباراً أفضل، لقد تمكنتُ من نقل الجرحى إلى إحدى المراكز العلاجية في مدينتي، واستطعتُ أن أرسل رسالةً إلى مافروس، لم أخبره بالطبع أن والدك قد توفي، فقط طمأنته عليكم وعلى طفله، وكتبتُ له موجزاً عن الحريق والعصيان، وطلبتُ منه التحرك باتجاه اللجنة العليا، فإن مقرها في المدينة الشرقية حيث يقطن، لكن ليس باليسير أن يصل لهم، لكنه ممكن، وأنا بدوري قمتُ بإخبار أحد المسؤولين الذي كانت تجمعه علاقة طيبة بوالدي، وركزتُ بحديثي معه على مدى الضرر المحتمل أن يلحق تجارته وأعماله إن استمر تعليق الحركة التجارية بشكل عام.

حينذاك، لم يكن يعرف شيرفين أن مافروس قد بدأ بالتحرك قبل يومين، وأوصل المعلومات التي لديه لأحد أعضاء اللجنة.

بعد ما قاله لي شيرفين، شعرتُ ببعض الأمل يتسلل إلى قلبي، فقد إطمأننتُ على أمي والعم ماهان، مافروس الآن سوف يدري بما يجري هنا، بالتأكيد خلال الأيام القادمة سوف يحدث شيء ما، علينا فقط الانتظار والتحمل قليلاً.

عند بزوغ النهار، جاء أحد حراس الناجِد، وقرأ علينا بياناً أصدره كبير الحرس؛ لأنه لا يستطيع أن يحضر إلى ساحة المدينة بنفسه بسبب مشاغله الكثيرة في قتل وتجويع شعبه بالتأكيد.

"أيُّها السادة، بأمر من كبير الحرس، أنا موكل أن أتلو هذا البيان عليكم، بعد التدقيق والتَّحْيِص في الوضع الراهن، تبين لنا أنه من واجب كل فرد شريف ينتمي إلى هذه الأرض المباركة أن يُساهم في إيقاف هذه الفوضى العارمة، فإن أرضنا لا تستحق كل هذا الجحود منا.. علينا التعاون شعباً وحكومةً لإعادة الأمن والأمان إلى منازلنا وعائلاتنا.

بعد أن تسلّموا المجرم مافروس، وكل من شدَّ على يده لإثارة هذا الخراب، عهداً علينا أن نُخرج جميع من يتواجد في درب السلام، سوف يتم إغلاق الدرب وإيجاد طريقة أخرى للمحاكمة ترضي جميع الأطراف على مرأى الشعب، سوف نمهلكم ثلاثة أيام، إن قررتم العودة لإعمار منازلكم والمدينة، فسوف نصفح عن جميع من شارك في هذا العصيان، وعن كل فرد من أبناء الناجِد الأمناء الذين أعلنوا تمردهم وكسروا قسمهم المقدس، وفي حال لم ينتهِ هذا العصيان خلال مدة المهلة المحددة، سوف تتم محاسبة الجميع بأقسى طريقة ممكنة؛ ليكونوا عبرةً لكلِّ من يحاول زعزعة أمننا واستقرارنا وإيذاء أرضنا".

لا أبالغ إن قُلْتُ أن جميع من كان واقفاً حينذاك في ساحة المدينة ضحك بعد انتهاء هذا البيان الأخرق، بما فيهم أبناء الناجِد الذين أُوكِلت إليهم مهمة حراستنا، تقدّم ماتياس كعادته ووقف بجانب الحارس الذي تفاجأ من ردة فعله، أخذ من يده البيان عنوة، ومزقه قائلاً:

- لم أكن أعلم أن سيادة كبير الحرس..

لفظ الكلمات ببطء عندما نطقها:

- لديه حسُّ فكاهةٍ عالٍ جدًّا، أم عساه يحاول قتلنا ضحكًا، بعد أن

فشل بقتلنا حرقاً، أو بخراقات ذلك المعتوه المقتول، أو بإرسالنا الى درب السلام؟ يا هذا! اسمعني جيداً، الأرض المباركة الذي تحدث عنها هو من أمر بإحراقها، وهو من يعمل بجهد جهيد؛ لتشرب دماءنا جيلاً بعد جيل، وهو من حفر أعماقها؛ ليدفن أجسادنا فيها حتى قبل موتنا، عليك إيصال هذا البيان لسيدك، قل له إن كان مافروس مجرماً في نظركم، فجميعنا أعوانه، ولن نعود إلى منازلنا؛ لأنها غير موجودة من الأساس، فقد أحالها رماداً، وبتفويض من الجميع هنا، أعلن الحداد لمدة ثلاثة أيام على جميع من فارق الحياة في خلال الأيام الماضية، فهل سوف تحسبون أيام الحداد من هذه المهلة؟ أم سوف تدوسون على أحاسيسنا كما جرت العادة؟

فرّ ذلك الشاب هارباً، ولم ينبس أحدٌ من الحراس حولنا ببنت شفة، وصفق الجميع لماتياس على ما قاله، اقترب مني شيرفين وهمس بأذني:

- ماتياس يظن أنه سوف يستولي على الحكم بتصرفاته هذه، إن تمت إقالة النّاجِد، إنه يحاول أن يظهر بصورة القائد ليُعيد أمجاد عائلته.
- هذا ليس مستبعداً، عائلته معروفة أباً عن جدّ أنهم كانوا المرشحين لحكم المدينة.

- هذا مستبعد جداً يا حبيبتي، إن استطعنا التخلص من النّاجِد، اللجنة العليا هي من ستفرض الحاكم القادم، وبالمناسبة لن يكون أفضل من النّاجِد بكثير.

اقترب ماتياس وعانق شيرفين:

- لقد أعلنتُ الحداد فقط لغرض المماطلة وكسب بعض الوقت.

- نعم، إنها حركة جيدة، خلال هذه الأيام يجب أن نخطط لما علينا فعله في حال لم تسر الأمور لمصلحتنا.

- المشكلة الآن يا شيرفين أنهم يسعون إلى قتلنا جوعاً بفعل هذا الحصار، فنحن لم نحضر معنا أي شيء، المتاجر احترقت بأكملها، كيف

لنا أن نتدبر أمورنا إن بقينا هنا محاصرين من غير طعام أو ماء؟

- لا تقلق يا صديقي.

غمزه شيرفين قائلاً:

- لقد طلبت المدد من أحدهم، ولن يخذلنا.

مكيدة

هناك بعض الحظ يُرافق دربنا، كل ما حدث لاحقاً يثبت لي ذلك، أو ربما هو القدر الذي يرسم كل شيء، مضت ساعات النهار بطيئة بعد ذلك البيان الهزلي، وكما قال ماتياس بدأنا نشعر بالعطش والجوع، فبعد يوم كامل في العراء بدأ التعب يتسلل إلينا، والغريب في الأمر أن الأشخاص الذين أخرجناهم من درب السلام، لم يتحركوا قيد أنملة، ولم يطلبوا أي شيء منا، بدأ السكان بمحاولة دفن من فارقوا الحياة أثناء الحريق رغم محاولات الحراس منعنا الخروج من نطاق ساحة المدينة، لكن الغضب العام كان أكبر من قدرتهم على إيقافنا. وكانت الجثث المحترقة منتشرة في كل مكان، وقلة قليلة فقط تعرفت على ذويهم، جميع المتاجر والمستودعات تعرضت لضرب كبير، فلم نجد ثمة شيء صالحاً للأكل.

الأوغاد لم يُبقوا شيئاً على حاله، لم يأبه ذلك المعتوه بأحد، لم يأت ليعزيزنا بموتانا على الأقل، غضب ماتياس كان يطفح من عينيه، ومن يراه، يشعر أن هذا الرجل لديه طاقة لا تنفذ، فعلى الرغم من إصابته، كان يشتم ويصرخ غاضباً، ويدفن الجثث، ويبحث عن معين، فلم تتوقف حملاته لتحريض كل من يراه أمامه ضد حكومة الناجد.

عندما حلّ المساء، تمكنا من إقناع الحراس بالسماح لنا بالخروج من ساحة المدينة للبحث عن طعام، فقد لعب شيرفين على عواطفهم، وقال لهم:

- لماذا كل هذا التعنت؟ نحن من يريد العصيان ولن نتراجع، فضلاً

عن أنه لن يأتي كبير الحرس الآن لتفقدنا، فقط دعونا نجلب بعض الطعام لأهلكم.

قبل أن نعود إلى ساحة المدينة وجدنا في طريقنا مستودعًا للأطعمة المعلبة لم يحترق بالكامل، المدخل كان متهالكًا والنيران دمرت الجدار الأمامي، فرح الجميع ودخل ماتياس مع بعض الشبان لمعاينته من الداخل، خرجوا بعد زمن، وكان ماتياس عابسًا، ليس هناك أي مكان في هذه المدينة لم يصله الفساد والغش! جميع الأطعمة هنا منتهية صلاحيتها قبل عام وأكثر، لا أصدق عيني، إنه أكبر مستودع أغذية في مدينتنا، وكان يورّد إلى جميع المتاجر.

ماتياس شعر بخيبة أمل، لكن الآخرين لم يبالوا بهذا الكلام، دخلوا وجمعوا كل ما يُمكن حمله، ثم عُدنا إلى ساحة المدينة محملين ببعض الأعراض التي وجدناها، أغطية، أكياس فارغة، مناديل، بعض الأعشاب الصالحة للأكل، وأحضرتُ معي أوراقًا وأقلامًا وضعتها في حقيبتي، فلم أستطع مقاومة رغبة إمساك أقلام الرصاص والأوراق التي وجدتُها في أحد المتاجر المحترقة.

حاولنا إطعام الجميع، بما فيهم أبناء الناجد، لم يتذمر أحد، فقد اكتشفنا أن هذا نفس الطعام الذي نتناوله عادةً، ماتياس وشيرفين لم يأكلا، لكن سكان درب السلام قد التهموا كل شيء دون استثناء، كانت هذه أولى الحركات الصادرة عنهم.

عندما حل الظلام ارتفعت أصوات النحيب والبكاء، وسمعتُ أحدهم يقول لرفيقه:

- انظر! جميع هذه المنتجات قادمة من المدينة الشمالية.

لُجبيهِ الآخر:

- هذا لا يهم، سوف أتناوله، وحتى إن كان مصنوعًا بيد الشيطان.

اجتمعنا أنا وشيرفين وماتياس الذي كان يلحّ على شيرفين بأسئلته لمعرفة من أين سوف يأتينا المدد والمعونات، لكن شيرفين كعادته قاد الحديث إلى موضوع آخر، تجارة الأغذية المنتهية الصلاحية، إنها فكرة شيطانية، فهم بالتأكيد يستوردونها بأسعار بخسة، ويتم بيعها بسعرها الطبيعي هنا للتجار والسكان، فيربحون ربحاً مضاعفاً بالتأكد.

- سوف نكتشف كل شيء لاحقاً، لكن قل لي الآن؛ من الذي سوف يزودنا بالطعام؟

فور نطق ماتياس هذه الجملة رأينا رجلاً يتقدم نحونا، مرتدياً بزة أنيقة، ملامحه في أواخر العقد الرابع من عمره، وقف شيرفين وأبدى استغرابه من وجوده هنا، فقد قال له:

- هذا خطرٌ عليك يا سيدي، أنا طلبتُ مساعدتك بسبب نفوذك، لكن ليس هناك داعٍ لأن تأتي إلى هنا.

وقف ماتياس، وقال:

- أأست أنت السيد هافال مالك مخبز السماء؟!

قدّمنا شيرفين إلى السيد هافال، وعرّف عني أنني زوجته، وشكره على تعاونه معنا وقبوله استخدام سفينته الخاصة لنقل الجرحى، كان السيد هافال قصير القامة، بعينين حادتين كالسهام، ابتسم لنا بتملقٍ واضح، وقال:

- لا بأس، لكلِّ شيءٍ مُقابل، وما اتفقنا عليه سوف يصل غداً صباحاً، فقد طلبتُ من أخي الصغير جازان أن يُشرف على هذا الأمر بنفسه.

بعد أن غادر السيد هافال علمنا أن شيرفين طلب منه إمدادنا بالطعام والماء في حال حدوث أي عصيان أو تمرد، فمخبره لا يزال بحالة جيدة بعد الحريق، وأكد لنا أنه لن يأخذ مالاً مقابل هذه الخدمة، رغم تأكيدات ماتياس من أنه شخص متملق أناني، ولا يُمكننا أن نأمن جانبه.

مع شروق الشمس انسلت إلينا رائحة مخبوزات طازجة بإغواء عارم، فقد جاء السيد جازان بصحبة إحدى عشرة عربة مملوءة بالخبز والكعك والمربى والعسل والماء، ففرح الجميع بهذه البادرة اللطيفة، كان السيد جازان ودودًا للغاية، وعندما انتهى من توزيع الطعام طلب من العاملين إعادة العربات وإغلاق المخبز؛ ليأتوا إلى هنا تزامنًا معنا.

تعرف السيد جازان على شيرفين الذي بدوره شكره وبالغ بالإشادة بأخيه السيد هافال وبأخلاقه العالية، فابتسم السيد جازان وقال:

- اسمي جازان فقط، لا داعي للتعامل الرسمي فيما بيننا، فأنا واحد من العامة، وأرغب في البقاء هنا معكم، أنا مثلكم أشعر بالسوء من الوضع الراهن، وخاصةً بعد أن كشفت حقيقة ذلك الوغد الذي يحكمنا ويتحكم بنا.

خلال النهار جاء كبير الحرس وطلب أن يتحدث مع ماتياس على انفراد، لكنه رفض، وقال له دون أن يتحرك من مكانه؛ حيث كان جالسًا على الأرض، متكئًا على غطاء أحد صناديق الأطعمة:

- عليك التكلم معي هنا أمام الجميع؛ فأنا لا أثق بكم.

تلعثم كبير الحرس:

- حسنًا، جئتُ لأذكركم بالمهلة المحددة لكم.

ضحك ماتياس وقال:

- أنت كاذب، تُريد محاولة استمالي، لكنك عاجزٌ عن فعل ذلك أمام الجميع، لماذا لم يأتِ الناجد العطوف الرحيم لتعزيتنا وسماع مطالبنا؟ أم أنه قد هرب من المدينة؟

- أنت تتماذى كثيرًا يا سيد ماتياس، هل فقدت عقلك؟!

- نعم.. أنت محقٌ، بالفعل أظن أنني فقدته بسبب الأطعمة منتهية

الصلاحية التي نشأنا عليها، وأشار إلى الصندوق الذي كان يتكئ عليه.
ارتفعت أصوات الجميع، وقذفوا كبير الحرس بأسوأ الصفات
والشتائم وبعض فضلات الطعام التي لطخت بزته الزرقاء، لم يدافع عنه
أحد، حتى حراسه كانوا ساكنين كالأصنام.

نهض ماتياس ببطء، واقترب من كبير الحرس وأمسك بكتفه وقال:
- اعذرني، كما ترى أنا لا أستطيع الوقوف بمفردي، فلقد أُصبتُ
بينما كنتُ أدافع عن السيد ديفان عندما هاجمه رجالك الصناديد، اسمع
يا كبير الحرس، نحن في حالةٍ حدادٍ كما تعلم وبعد انتهائها نتمنى زيارتك
لنا برفقة الناجد العظيم؛ لننتحدث قليلاً لا أكثر، بالنهاية نحن أهل، وبيننا
ذكريات لا تُحصى، وإن قررتم محاربتنا وقتلنا، أعدك بأنكم ستكونون
أول الضحايا، ثق بي.

- يا سيد ماتياس، لاحظ أننا ما زلنا نعاملُك باحترامٍ تقديراً لك
ولمكانة عائلتك الموقرة، لكن إن تابعت هكذا بتماديك الأرعن، فسوف تتم
معاملتك بطريقة مختلفة.

ضحك ماتياس:

- آه، سوف تتم معاملتي كعامة الشعب، أم أنك سوف تأمر بقتلي
كما....

في هذه اللحظة جاء شاب يركض باتجاه جازان ويصرخ بذعر:

- سيدي، المخبز يحترق.. يحترق!

غضب ماتياس عند سماعه هذا، محاولاً ضرب كبير الحرس والتهجم
عليه، لكن الحراس منعه، بصق في وجهه، وذهبنا لإخماد النيران في
المخبز، في هذه الأثناء اعتقلوا عدداً كبيراً منا، قادوهم إلى قصر الناجد عنوةً
تحت تهديد السلاح.

هُدنة

بعد إخماد الحريق الذي دمرّ المخبز بشكلٍ كامل، بالإضافة إلى التهام النيران للمستودع الخلفي، عدنا إلى ساحة المدينة، جازان كان برفقتنا يعمل على إخماد النيران دون أن ينبس ببنت شفة، أما ماتياس فقد كان مشتعلًا أكثر من الحريق ذاته، خاب أمل الجميع بما حصل، ورأيتُ شيرفين يتأرجح ما بين شعوره بالذنب بتوريط أصحاب المخبز، والغضب اليائس.

استلقى الجميع على أرض ساحة المدينة؛ ليلتقطوا أنفاسهم، نظر ماتياس حوله، وسأل:

- أين البقية؟ لقد كانت ساحة المدينة شبه خالية.

ثم أردف مستنكرًا:

- لم نكن بهذا العدد فقط، أين أبناء الناجد الذين كانوا حول الساحة، هل انسحبوا؟

قال شيرفين:

- لا.. لم ينسحبوا، لقد اعتقلوا من تخلف عن لحاقنا وغادروا، هذا أمرٌ واضح.

بدأ يضرب ماتياس رأسه بكلتا قبضتيه، لم يجرؤ أحد على إيقافه، كان غضبه مخيفًا جدًا.

اقترب شيرفين من جازان وتأسف له على ما حدث، ابتسم جازان قائلاً:

- الأوغاد يظنون أن إحراق مخبزننا سوف يردعنا عن دعم الشعب، أغبياء، نحن نملك عشرات المستودعات داخل هذه المدينة، ونملك خارجها أضعافها، عندما يصل الخبر لأخي هافال، سوف يُدقيقهم سُمّه دون تردد.. هذا إرث والدنا، ولن نسمح بتدميره هكذا.

صاح ماتياس:

- رائع! والآن ماذا علينا أن نفعل؟ لقد انخفض عددنا للنصف.

بينما نحاول للممة أفكارنا ودراسة الوضع الراهن، جاء أحد الرجال من الميناء يسأل عن ماتياس، أخبرنا أن هناك سفينة قادمة إلى الميناء ترفع علمًا يحمل الألوان الأربعة لأعلام المدن، أحمر، أبيض، أسود، أخضر، فنظر ماتياس إلى شيرفين الذي رسم ابتساماً عريضة على وجهه، وقال:

- وأخيرًا مافروس تحرك.

ذهبنا إلى الميناء بأسرع ما يُمكن، رغم التعب الذي يتلبسنا، كانت السفينة راسية فوق مياهنا، وعلمها يرفرف عاليًا في سمائنا. احتشد جميع من كان في الميناء أمام السفينة، فأبعدهم ماتياس وانتظرنا وفد اللجنة الأمنية العليا؛ كي يترجل إلى رصيف الميناء.

لم أصدق عينيَّ عندما رأيتُ مافروس بين ذلك الوفد، صرختُ فرحةً، لكن شيرفين أمسك يدي:

- لا تتحركي يا حبيبتي، نحن لا نعلم نوايا هؤلاء بعد.

عندما مرَّ مافروس من أمامنا ابتسم لنا وحاول أن يقترب ليُلقي التحية، لكن أحد أعضاء الوفد شده من يده، وهمس شيئًا في أذنه جعله يتراجع عن فكرة الاقتراب منا، لقد كان مبتسمًا، مرتديًا ثيابًا أنيقة وهيئته توحي أنه بخير، هذا ما طمأن قلبي نوعًا ما، ورأيته يبحث بعينه إما عن والداي، أو عن سديم والطفلة.

طلب شيرفين من جازان أن يتولى أمر التحدث مع الوفد بشكل رسمي، فهو أكثرنا ملاءمة لهذه المهمة، هذا الطلب أغضب ماتياس قليلاً، لكنه لم يعترض.

ذهب جازان إلى الشخص الذي يتقدم الوفد وعرف عن نفسه:

- أنا السيد جازان ميتري، شقيق السيد هافال ميتري الأصغر، أرحب بكم في مدينتنا، ونشكركم على حضوركم في هذه الظروف.

وقادهم إلى الطريق الذي يوصل للمدينة، وقفوا هناك لبرهة من الزمن، وبعدها طلب جازان إحضار عربة لنقل الوفد إلى قصر الناجد بناءً على رغبتهم.

لم يستطع شيرفين الانتظار، ذهب إلى الوفد وعرف عن نفسه بأكثر شكلٍ لائقٍ ممكن، تعرف عليه بعض أعضاء الوفد الذين كانوا على علاقة بوالده، فالقبطان دياز أحد أشهر الأشخاص في مجاله، سألهم شيرفين بشكل مباشر:

- أود أن أعرف سبب زيارتكم، مهادنة أم إدانة؟

نظر إليه رئيس الوفد، وقال له:

- ليس من حقك أن تعرف هذه التفاصيل، إنني أتمنى ألا تكون أحد المتهمين.

بوذ قال أحد أعضاء الوفد:

- اعذره يا سيدي، إنه ابن أحد أهم الشخصيات في مدينتنا، وأنا أعرفه جيداً، بالتأكيد لا يقصد التناول إنما..

قال مافروس:

- إنه صديقي، وهو من ساعدني على الخروج من هنا.

غادروا إلى قصر النَّاجِدِ عند وصول العربة للميناء، وعاد شيرفين قائلاً:

- لا أعلم إن كان مافروس قد ورّطني أم برّاني، لقد أخبرهم أنني من ساعده على الهروب.

كنتُ متعبة جداً، ولم أجد كلمات لأردّ عليه.

- لا بأس على أيّ حال، الجميع سوف يعرف بالنهاية ما الذي فعلته، وسوف أصبح الرمز والبطل لمدينتكم؛ لتتذكروني جميع الأجيال القادمة.

وبينما شيرفين يتبجح، غفوتُ على كتفه من غير وعي، فقد كنتُ منهكة جداً.

استيقظتُ مساءً، ووجدتُ نفسي مستلقيةً على رصيف الميناء بجانب شيرفين الذي كان يتأمل السماء، نظر إليّ وقال:

- لم أستطع تأمل وجهك طيلة هذا الوقت، خوفاً من أن أفقد عقلي من فرط جمالك.

ابتسمتُ وقبّلتُ معصم يده الذي شهد على عهد الدم بيننا، وتضرر بفعل الحريق قليلاً.

- ماذا حدث؟ أين ماتياس والبقية؟

- ماتياس نائم، فهو متعب جداً، لم يتعافَ تماماً من إصابته، جازان ذهب ليخبر أخاه بما حدث، أما الآخرون ذهبوا لإحضار بقية سكان درب السلام إلى هنا.

عدلتُ جلستي وجاءت السيدة التي كانت تعتني بابنة مافروس، وتحمل بيدها بعض الفاكهة والماء، شكرتها جزيل الشكر، فهي بالإضافة إلى اعتنائها بالطفلة، فهي تعتني بنا أيضاً.

لم أتذوق في حياتي بأكملها أذ من تلك الفاكهة، فقد شعرتُ أنها من الجنة.

وبعد وقتٍ وجيز، جاء جازان بملامح غير مفهومة، جلس أمام شيرفين واسترسل في كلامه قبل أن يتيح لنا فرصة سؤاله عما حدث:

- شيرفين، الناجد استدعى أخي هافال للحضور غدًا صباحًا إلى قصره، وصله الأمر بشكلٍ رسمي من كبير الحرس، إنهم يريدون شهادته، حاول أخي الاستفسار منه قدر الإمكان، لكنه لم يفهم أي شيء، إن أخي لديه عين داخل القصر، شاب من أبناء الناجد الأمناء على علاقة طيبة بعائلتنا، قد تواصل معه أخي؛ لعله يفهم ما يدور في الكواليس، فكانت المفاجأة، لقد أُعتقل جميع الدراويش قبل اندلاع حريق المدينة، وهو لا يعلم ما الهدف من هذا التصرف، وقال أيضًا أنهم قد اعتقلوا مجموعة من المعتصمين في الساحة اليوم أثناء اندلاع حريق المخبز، أنا لم أفهم يا شيرفين، ما حاجتهم للدراويش؟

بدت علامات الاستغراب واضحة على وجه شيرفين، وقبل أن ينطق بكلمة، سمعنا صوت أحدهم يُنادي:

- سيد شيرفين، كبير الحرس هنا، يريد التحدث معك.

مساومة

مجيء كبير الحرس للتحديث مع شيرفين كان أمرًا غريبًا؛ فالأجدر به أن يطلب التحديث مع ماتياس، فهو من كان يترأس العصيان، وحاول جازان الذهاب معه، لكن شيرفين منعه، وقال له:

- لا أريد أن يراك برفقتي؛ كي لا يشك أنك تنقل لنا الأخبار، وأنت يا شيرو ابق هنا.

لم يستطع شيرفين الذهاب وحيدًا، فقد اصطفت مجموعة من رجال الميناء خلفه، ضحك شيرفين ومشى متبخرًا إلى كبير الحرس وألقى التحية، اقتربت منهم قدر الإمكان لسماع ما سوف يدور بينهم.

قال له كبير الحرس:

- لمَ لا نتحدث خارج الميناء؟

رفض شيرفين بالطبع، وفي غضون خمس دقائق أنهى ما لديه وغادر، التفت إلينا شيرفين ورفع حاجبيه استنكارًا:

- لقد جاء ليهددني بأسلوب لطيف!

وضحك كعادته، ثم أعاد علينا ما قال له كبير الحرس مع تقليد تعابير وجهه وصوته:

- اسمع يا شيرفين، أنت لا تنتمي إلى هذه الأرض، لهذا لا يحق لك التدخل في شؤونها، نعلم أنك متورط بعدة قضايا هنا، لكننا لا نستطيع محاكمتك، فأنت من مدينة أخرى، ولا نريد خلق حساسية سياسية، أنت

ابن القبطان دياز، أليس كذلك؟ لقد كان رجلاً طيباً متعاوناً، لِمَ لا تكون مثله؟ الأمر سهل، اخرج من المدينة الليلية، سوف أسهل لك طريق العودة، وسنغضّ النظر عن كل ما فعلته بحق أرضٍ ليست أرضك وشعبٍ ليس شعبك.

قلت له:

- وإن رفضتُ المغادرة، ماذا سيحصل؟

قال لي:

- حينها سوف نضطر لتقديمك للجنة العليا على أنك جاسوس أو مهندس بهدف زعزعة أمن المدينة، من السهل جداً نسب بعض التهم إليك، ثم جلب من يشهد على صحة كلامنا كذلك، فقد اعتقلنا بعض من كان في العصيان الأخرق، وبأقلّ جهدٍ منا يُمكننا تغيير أقوالهم لمصلحتنا.

جاء ماتياس يعرج:

- ماذا حدث يا شيرفين؟ لقد أخبروني أن ذاك الوغد جاء إلى هنا.

- لا.. عليّ إعادة المشهد!

شخصيةٌ شيرفين مُعقدة جداً، إني أعجز عن فهم ما يدور في خلده، إنه لم يأبه بكلام كبير الحرس، وأمضى الليلة كاملة يضحك ويتسامر مع ماتياس بعد أن غادر جازان.

صباحاً، عُدنا إلى محكمة الشعب، واصطحبنا معنا بعض الذين أخرجناهم من درب السلام، فهم ورقة ضغط جيدة، على الرغم من إحساسي بالذنب لاستغلال وضعهم، جلسوا على الأرض دون حراك، استمر الاعتصام لحين مجيء العربات التي ستنقل وفد اللجنة الأمنية العليا، حلّ الصمت على المكان عندما رأينا أن عربة الناجد أيضاً قادمة نحو ساحة المدينة، ترّجل الجميع، ووقفوا على المصطبة التي كان يعتليها الناجد ليُلقي خطاباته علينا.

كان مافروس برفقتهم، لكنه مقيد اليدين، وجه الناجد كان يطفح غضباً رغم ابتسامته الخادعة، الغريب في الأمر وجود السيد هافال مع الناجد ورجاله، لكن أخاه جازان هنا برفقتنا.

تكلّم أحد رجال الوفد قائلاً:

- لقد كُلف فريقنا من قبل السلطات العليا أن ننظر في أمر الخلاف الحاصل في هذه المدينة بين الشعب -أشار بيده علينا- وحكومة الناجد صاحب المقام العالي، سوف نحقق في جميع القضايا العالقة، وحُكْمنا سوف يكون الحد الفاصل بينكم وبين الحكومة؛ لذا رشحوا أحدًا منكم رجاءً ليكون المتحدث الرسمي معنا؛ لنطّلع على مطالبكم، والبدء في مجريات التحقيق.

بالتأكيد تقدم ماتياس:

- أنا من سيكون المتحدث الرسمي باسم الشعب، ونطلب محاكمة علنية، من حقنا معرفة ما يجري، فلن نقبل أيّ محاولةٍ بتهميشنا أو إلغاء دورنا، ولن نقبل بأيّ مساومةٍ على حقوقنا.

- حسنًا هذا ما جئنا من أجله، لا داعي للقلق.. في البداية نود تعزيتكم بمن فقدتم خلال هذه الظروف العصيبة، لقد علمنا بقضية موت العرّاف السيد سام، وقمنا بزيارة مدينتكم في ذلك الحين، وتبيّن لنا حينذاك أن أحدهم قد تسبب بتعجيل موت العرّاف، حكومة الناجد اتهمت السيد مافروس باقتحام منزل العرّاف وتعذيبه لسبب ما، ومن ثم سرقة وثائق مهمة تخص أعمالاً مشبوهة شارك فيها العرّاف دون علم حكومة الناجد بها، وفي المقابل، السيد مافروس يدّعي أنه لم يدخل منزل العرّاف في حياته، والوثائق التي قدمها لنا وجدها في قصر الناجد قبل هربه.. لن نناقش في قضية العرّاف كثيرًا؛ لأن هناك قضايا أهم من ذلك، الوثائق التي قدمها السيد مافروس تكشف لنا عن أعمال علينا التحقيق فيها وإلا سوف...

قاطعه ماتياس:

- سيدي آسفٌ على مقاطعتك، لكنني أرى أنك متحيزون لطرف النّاجِد منذ الآن، لماذا مافروس مقيد، وهو ليس كذلك؟ إن كان مافروس المتهم من قبلهم، فإن النّاجِد متهم من قبلنا، عليك معاملة الطرفين على أنهم بريئون حتى تثبت إدانتهم، هكذا يقول العدل، وكلا الطرفين عليه أن يقدم دلائله وشهوده، كما أخبرتك سابقًا نريد محاكمة عادلة علنية هنا في محكمة الشعب كما كانوا يحاكمون جميع المذنبين، أما ما تفعله الآن؛ فهو مساومة لن نرضى بها، لن نقبل معاملة مافروس كالمتهمين، والنّاجِد لا يزال يحتل مركزه الموقر بنظركم، ولعلوماتك يا سيدي، نحن جميعنا فقدنا ثقتنا واحترامنا للنّاجِد وحكومته، فهو الآن مجرد دكتاتور مستبد طاغية، سمم أجيالًا كثيرة، ولن نسمح له بالاستمرار بأفعاله الشنيعة في حقنا.

هاجم الحرس ماتياس بعد انتهائه من كلامه، ونحن بدورنا دافعنا عنه، صرخ رئيس الوفد وأمر الجميع بالتوقف.

- سيد ماتياس أنت تبالغ قليلًا، لا يمكننا تجريد أحد من منصبه قبل أن نتأكد من إدانته.

- حسنًا، إذًا فكّ وثاق مافروس وعامله بالمثل.

اقترب ماتياس من مافروس، وألقى التحية عليه، ورفع يديه المقيدتين:

- ما رأيك يا سيادة القاضي، هل يُمكنني فكّ وثاقه؟

الفصل الثالث

السجن ليس سياجًا وأسوارًا، فقد يكون فكرة، وقد يكون لحظةً زمنية،
وقد يكون شخصًا".

- شمس الدين التبريزي، شاعر متصوف.

المحاكمة

في تلك الليلة عدنا إلى الميناء، في حين كان سكان المدينة يناقشون إمكانية ترميم المنازل في الوقت الحالي من عدمها، لكن شيرفين طلب منا التمهّل، الخراب الذي لحق منازلنا يُمكن الاستناد عليه كدليل أثناء التحقيقات، لذا لن نباشر بأعمال الترميم الآن.

وبينما ماتياس يقصّ على الجميع ما حصل اليوم بفخر وتبجح، شكرته على موقفه مع مافروس، كان شجاعاً جداً وفعل ما أعجز عن فعله، ماتياس شخص طائش مندفع، لكنه شهم جداً، بيتغي حفر اسمه في أذهان الجميع على أنه بطل المدينة، وهو كذلك بالفعل، لغاية في نفسه.. ربما يريد استلام زمام الحكم، أو تقلّد منصب رفيع المستوى لإعادة أمجاد عائلته.

صباحاً، كان الموعد في محكمة الشعب لحضور المحاكمة العلنية، الجميع أبدى رغبته في الذهاب معنا، هذا الأمر لمصلحتنا بالتأكيد، وأصرّ شيرفين أيضاً على أن ترافقنا ضحايا درب السلام إلى المحاكمة.

كان مافروس يقف بينهم بلا قيود هذه المرة، ابتسم لنا عندما رأنا، وبالتحديد عندما رأى ماتياس، وفي البداية استهل الحديث أحد أعضاء اللجنة العليا قائلاً:

- السيد مافروس لجأ للمدينة الشرقية قبل ستة أشهر تقريباً، وقبل شهر استطاع إيصال الوثائق التي بحوزته إليّ، بالطبع كان من الضروري النظر في هذه الأوراق؛ لأنها مُقدّمة من قبل لاجئٍ سياسي، فقد عرّف عن

نفسه أنه كان أحد أبناء الناجد الأمناء، وعندما أصبح في منصب الحرس الشرطي داخل القصر، وقعت بيديه هذه الأوراق التي تُدين حكومة مدينته بعدة جرائم، إنما البيان المقدم من قبل الناجد بحق مافروس مختلف عن أقوال الأخير، وبالتأكيد جميعكم تعرفونه..

إذا سيد مافروس، أنت متهم بقتل العراف عن سابق إصرار وترصد، والاعتداء على سيدة من العامة وقتلها، وبشأن قضية درب السلام، هذه ليست بتهمة؛ لأنها وسيلة لمحاكمة المذنبين، ولكل مدينة الحق في اختيار شكل الأحكام التي تسنها وكيفية تنفيذها، هذا شأن حكومي خاص، وبالإشارة إلى كلامك عن قضية تجارة البشر وأعضائهم، فأنت لم تُقدّم لنا أيّ دليل ملموس على ذلك، بالإضافة إلى عدم إثباتك لتواطؤ حكومة الناجد مع العراف في أعمال تجارته غير الشرعية، وأنت متهم أيضًا بأعمال تحريض الشعب على الانقلاب، والتعاون مع مجموعة أفراد داخل المدينة هنا بغية زعزعة استقرار المدينة وأمنها عن طريق تجييش الشعب بالمنشورات والإشاعات التي أغرقت المدينة بأكملها.

قاطعته كبير الحرس وقال:

- سيدي الموقر، لا تنس أمر افتعال الحرائق في المدينة.

نُهلَ كلُّ من في الساحة، فقد وجهوا جميع التهم الموجودة وغير الموجودة لمافروس، وارتفعت أصوات السكان معترضة، لكن رئيس الوفد الذي كان يُمثّل القاضي الآن أسكتهم، وطلب من مافروس الإدلاء بما لديه؛ ليشهد على صحة كلامه من عدمه.

ارتجفتُ عندما سمعت نبرة صوت أخي الصغير، لم أسمعها منذ مدة طويلة جدًّا، لقد افتقدته كثيرًا، وتمنيتُ لو كان بإمكانني الهروب برفقته خارج هذه المدينة، ونسيان كل ما حدث.

وقف أمام اللجنة موليًا ظهره لنا وقال:

- سيدي، أشكرك على تقديم الحماية لي، فأنا متأكد أنني سوف أقتلُ على أيدي هؤلاء الأوغاد إن سنحت لهم الفرصة بلمسي..

قاطعه القاضي قائلاً:

- عليك الردّ على التهم الموجهة لك هنا فقط.

- حسناً، موت العرّاف، حدث حينما كنت مستجداً بين أبناء النّاجد، عندما فارق الحياة كنت برفقة مجموعة من زملائي نتفقد المدينة، ومن ثم كنت متواجداً مع النّاجد وكبير الحرس عندما عاينا معاً منزل العرّاف أمام الشعب بعد جنازته، لا أملك أي دليل يؤكد براءتي باستثناء إذا تذكر أحد من هؤلاء أنني كنت برفقتهم، وتجرباً على أن يشهد لي بذلك، أما بشأن الاعتداء على سيدة من العامة وقتلها! أنا لم أمس أو أقتل أحداً، وأيضاً لا أملك دليل براءتي على شيءٍ لم أترفه من الأساس، فأنا لا أعلم كيف لفقوا لي هذه التهمة.

لا أعلم لماذا فعل هكذا شيرفين في تلك اللحظة، فقد صرخ بأعلى صوته:

- مافروس إنهم يتهمونك بقتل سديم!

اختفت جميع الأصوات والهمسات، حلّ سكون ثقيل في الأجواء، التفت مافروس ببطء إلينا، ورفع يده بإشارة تعني "أرجوك، أعد ما قلته؟" تكلم شيرفين مرةً أخرى بصوتٍ أعلى:

- لم تكن سيدة من العامة، كانت سديم.

بركان وانفجر، هجم مافروس على النّاجد بالرغم من العدد الهائل من الحراس حوله، وقبض على رقبتة محاولاً خنقه، وبدأ يصرخ في وجهه:

- لقد قتلت سديم أيها الخنزير!

حاولتُ بمساعدة أعضاء اللجنة وماتياس إيقاف مافروس، لكن

كانت جميع حواسه مستنفرة وجسده متصلبًا، ومن خلفنا سمعنا بكاء رجلٍ طاعنٍ في السن، يقول:

- سديم ابنتي! أم فتاةٌ أخرى؟

احمرَّ وجه النَّاجِدِ بينما كان يحاول التنفس، ويذا مافروس قد أطبقنا عليه، وبصعوبةٍ شديدة أبعدنا مافروس عنه، وأعضاء اللجنة لم يسمحوا للحراس باستعمال الأسلحة، وطلبوا من ماتياس إجبار مافروس أن يركع أرضًا، كانت فوضى عارمة، ودموعي كانت تسيل من عيني بلا توقف.

بعد بضع دقائق هداً مافروس قليلاً ورضخ لطلبهم، ركع أمام القاضي الذي صفعه على وجهه، وقال له:

- هل أنت أحمق؟ لا تُجبرنا أن نتعامل معك على أنك مجرم خطير.

بينما انخرط مافروس في بكاءٍ محموم، بادر ماتياس إلى الاعتذار وتهدة الوضع:

- أرجوك يا سيدي أعذره، سوف نسمعه ونفهم منه سبب غضبه هذا، أرجوك، غُضَّ الطرف عما فعل الآن.

اقترب الرجل العجوز من دائرة المحاكمة، وسأل ماتياس:

- الفتاة التي يتحدثون عنها هي ابنتي؟

أجاب مافروس:

- نعم يا عمي، هي سديم ابنتك.

نظر مافروس بحدة إلى القاضي، وقال له:

- يا سيدي، سديم هي ابنة هذا الرجل الطيب، كانت زوجة النَّاجِدِ لعدة سنوات، وعندما سمعت في إحدى المرات حديثه مع العزَّاف حول استعباد العمال للعمل في مناجم الفحم الواقعة في نهاية درب السلام،

اضطر لتزييف وفاتها، ثم اصطنع لها جنازةً وهمية وتشيعاً زائفاً،
وأكملت بقية حياتها بهيئة شاب من أبناء الناجد الأمناء؛ لكي تبقى تحت
مراقبته... لقد كانت حبيبتي، وهي من جلبت لي جميع الوثائق التي
سلمتها لكم وأنكرتم صحتها ومصداقيتها، لم أكن أرغب أن أذكر اسمها
في التحقيق كي لا أورطها، لكن الآن بعد أن غادرت عالمنا، يُمكنني البوح
بكل شيء.

شادن

لم يجد القاضي أيَّ خيارٍ آخرٍ غير إيقاف المحاكمة مؤقتًا بعد أن خرج مافروس عن طوره وكشف عن علاقته بسديم، فقررت اللجنة العودة إلى قصر الناجد لبيحثوا في المستجدات، ريثما يهدأ مافروس بعد أن قيده.

وقبل أن يتحركوا، تقدّم والد سديم وتوسل للقاضي؛ كي يبقى مافروس هنا؛ ليفهم منه ماذا حلّ بابنته، وقد تطوّع ماتياس لحراسته وضمان عدم هربه أو إقدامه على أيّ تصرفٍ طائش، وعلى أيّ حال كان مافروس بحالةٍ يرثى لها، ولم تصدر منه أي حركة.

اقترب أحد أعضاء اللجنة من ماتياس، وهمس في أذنه:

- حاول إطعامه شيئاً ما، لم يأكل منذ صباح الأمس.

عندما غادروا عانقتُ مافروس بشدة، لم أود أن أبلغه بوفاة والدي حينذاك، جلس والد سديم بجانب مافروس، وبدأ يلح عليه لكي يقص له كل الحكاية، تكلم مافروس ببطء، وبصوت يتخلله حزن عميق.

قال لي شيرفين:

- طلب مني ماتياس إحضار بعض الطعام لمافروس قبل عودة اللجنة واستكمال المحاكمة، وأنا أفكر أنه يمكننا إحضار الطفلة له لكي يراها، فقد تخفف عنه، وتبثُّ في قلبه بعض السعادة.

قبّلتُ جبين أخي الصغير وقلّلت له:

- سوف أعود سريعاً يا حبيبي.

ذهبتُ برفقة شيرفين باتجاه الميناء؛ حيث سرنا صامتين جنباً بجنب، كسرت الصمت وسألته:

- لماذا فعلت ذلك؟ لم نكن ننوي إخباره بوفاة سديم بهذه الطريقة.

- إنها شرارة حرب يا حبيبتني، إنه الوقت المناسب جداً ليعرف مافروس من يُحارب، ومن أجل مَنْ يُحارب، ألا تريدان أن تقولي له كيف قُتِل والده؟

- أرى أن الوقت غير مناسب، هكذا خبر يُمكنه أن يفاقم الوضع الراهن، ويجعله يتصرف بتهور ربما، لقد قسونا عليه بما يكفي.

- إن لم يتفاقم الوضع، لن نتوصل لأيِّ حلٍّ، عليكِ إخباره بما حصل أو سأفعلُ أنا.

لا أعلم إن كان شيرفين على حق أم لا، كل ما أعرفه أنني قلقَةٌ على أخي، وعلى شيرفين أيضاً.

عند عودتنا برفقة الطفلة وبعض الطعام، كان والد سديم يبكي، مافروس جالساً على الأرض يدفن وجهه بين راحتيه، أما ماتياس؛ فقد كان مدهوشاً شاردًا في ملكوت أفكاره، بالتأكيد سمع ما باح به أخي عن سديم.

ناديته:

- حبيبي مافروس انظر من جلبت لك!

ووضعتُ الطفلة في حجره، ازدادات وتيرة نحيبه وعانقها بشدة، نظر إلى والد سديم وقال له:

- اقترب يا عمي، إنها حفيدتك.

كما توقع شيرفين، رؤية الطفلة بثت الفرح في قلب الجميع، سأله

والد سديم:

- ماذا أسميتها؟

نظر مافروس لشيرفين الذي قال دون تردد:

- "شادن"* إنه يعني الفرخ في إحدى اللغات.

انهمرت دموع مافروس كالشلال على وجنتيه عندما سمع اسم طفلته وقال:

- اقترب أيُّها الوغد وعانقني، فأنا مقيد، ولا أستطيع الحراك.

علاقة شيرفين ومافروس التي بدأت بطريقة مريبة بعض الشيء، استمرت لغاية يومنا هذا بثبات وقوة، كأنهما توءمان لا تفرق بينهما المسافات والأيام.

نبَّهنا ماتياس عندما لمح مجموعة من الحراس قادمة نحونا، أخذتُ الطفلة من حجر مافروس وابتعدنا عنه قبل وصول الحراس، فأبلغونا أن المحاكمة سوف تُستأنف غدًا صباحًا، وقد جاؤوا لأخذ مافروس معهم.

طلب منهم ماتياس الإبقاء عليه هنا، دون فك قيوده، أخبرهم أننا سوف نمضي الليلة معه هنا في العراء، وأيضًا يُمكنهم حراستنا ومراقبتنا إن أرادوا ذلك، وعندما لم يستجيبوا لطلب ماتياس، طلب من أحد الحراس اصطحابه إلى مقر اللجنة للتحدث معهم وشرح الأمر لهم.

ذهب ماتياس مع الحارس الذي طلب من مجموعته البقاء هنا لحراستنا لحين مناقشة هذا الأمر، وفي هذه الأثناء جلسنا حول مافروس أنا وشيرفين وشادن، سألت مافروس بصوتٍ مُنخفض:

- من يكون ماتياس هذا؟ إنه رجل رائع! وأيضًا أين والداي يا

*شادن: اسم علم مؤنث، يعني صغير الغزال، ويأتي أيضًا بمعنى الفرخ في اللغة العربية.

شيرو؟ لِمَ لم يحضرا لرؤيتي؟!

ابتلعتُ ريقِي وأمسكتُ يديه المقيدة، وقلت:

- مافروس، لقد حسبتُ حسابَ هذه اللحظة مرارًا، عليَّ إخبارك أن والدتنا بخير، لقد تعرضت لوعكةٍ صحية بسبب الحريق الذي التهم مدينتنا، لكن شيرفين وقر لها سبيلًا للوصول إلى المدينة الجنوبية؛ لكي تتلقى العلاج اللازم.

ابتسم مافروس لشيرفين، وقال له:

- شكرًا لك يا أخي.

أكمل شيرفين قائلاً:

- والدك السيد ديفان قُتل.

وسرد له كل التفاصيل من لحظة اعتقاله وبتر يده لغاية وفاته، فخارت قوى مافروس وأنهكه الحزن والانكسار، لم يستطع الغضب عند سماع كلام شيرفين، فقد راح يردد "كل هذا بسببي" ويبكي بحرقة، احتضنه شيرفين، وقال له:

- إننا نواجه شياطين، إنهم أوغاد وقتلة، لن يوفرُوا أي وسيلة للتخلص منا أو إفساد حياتنا، والدك توفي، وهو واثقٌ من براءتك، على الرغم من كل العذاب الذي ذاقه، لم يُشكك لحظةً في ذلك.

بنطقٍ غير واضحٍ يرتجف حزناً، قال مافروس:

- أشعر أنني سجين، لا أعني هذه السلاسل ورفع يديه أمامنا، أنا سجين ضميري وتأنيبه المستمر لي، والسواد الذي يعتمر في داخلي، أنا سجين نفسي ولا أستطيع التحرر، لقد جنيتُ على سديم والدي، لقد جنيتُ عليكم جميعًا.

راح شيرفين يُمسد على شعره، ويقول له:

- نحن هنا لمساندتك للخروج من هذا السجن، أنت لست المذنب بما حدث، هل تعلم يا عزيزي أن هناك مقولة متداولة تقول: إن لكل امرئ من اسمه نصيب؟ سديم تعني السحاب الرقيق العالي في السماء، لقد عادت إلى موطنها هناك، وبالتأكيد هي الآن تُراقبك وتفتخر بك.

نظر مافروس للأعلى:

- إنها مقولة صادقة، منذ زمن أرى أن حياتي سوف يكتنفها السواد كمعنى اسمي أبد الدهر.

- سوف نمزجه بالأبيض والأحمر يا عزيزي، لا تقلق نحن هنا بجانبك للأبد.

عندما عاد ماتياس ليُخبرنا أنهم وافقوا على إبقاء مافروس هنا لحين استكمال المحاكمة غدًا صباحًا مع حراسة مشددة حولنا، كان أخي الصغير قد غرق بنوم عميق بعد نحيب طويل على كتف شيرفين الذي بقي جالسًا جانبه ومحتضنًا أحزانه.

في ظروفٍ أخرى، يُمكنني القول أنه أحد أجمل المشاهد إلى قلبي رؤية أخي وشيرفين هكذا، وكانت تلك أول ليلة تنام بها شادن دون بكاء في حجري تحت سماء مدينتنا في العراق.

ليلُ ناطق

حطَّ الليل رحاله في مدينتنا بعد يومٍ عصيب، ليجثم الألم على قلوبنا دون سابق إنذار، غفت شادن بين أحضانِي؛ حيث كنتُ جالسةً بالقرب من شيرفين الذي حمل كتفه رأس أخي المُثقل بالهموم والأحزان، كل من كان حاضرًا في المحاكمة اليوم عاد إلى الميناء باستثناء والد سديم الذي جلس بعيدًا عنا برفقة حزنه على فقدان ابنته للمرة الثانية، وماتياس الذي أصر على البقاء، ورجلٌ من سكان درب السلام رفض العودة للميناء.

لم نفهم ما يجري في بادئ الأمر، فقد طلب ماتياس من الجميع أن يعودوا إلى الميناء، وعندما بدؤوا بنقلِ سكان درب السلام في العربات، شخصٌ واحد رفض بشدة، كان يُصدر أصواتًا كأنما يحاول قول شيءٍ ما لنا، ويُحرِّك يديه يمينًا وشمالًا، قال ماتياس:

- لا بأس، فليبق هنا.

كان شيرفين ينظر إلى الطفلة باستحسان:

- إنها جميلة جدًا يا شيرو، ينقصها بعض الاهتمام والتغذية الجيدة لتُصبح أجمل شادن رأتها عيني.

- لقد أحببتُ الاسم، إنه غريب ولطيف في آنٍ واحد.

قلتُ ذلك لشيرفين وأنا أضعُ يدي على كتفه الأيسر:

- حبيبي إن كنتَ تشعر بالتعب، يُمكننا تحريك مافروس ليستلقي أرضًا.

- لا بأس، دعيه وشأنه، فهو متعب جدًا، أنا بخير، سوف أحاول النوم هكذا.

رأيت ماتياس يجلس بجانب والد سديم ويتكلم معه، ولحنتُ الرجل الهزيل الذي أصر على البقاء يحاول الوصول إلينا، يزحف على الأرض ببطء، فهو بحالة سيئة جدًا، وجسده خائر القوى.

نظر إليَّ شيرفين وقال:

- ما زلنا لا نعرف ما ظروف المعيشة التي أودت بقوتهم وصحتهم هكذا، أنا قلقٌ على من بقي هناك أيضًا، غالبًا خلال هذه الأيام لن يفكر بهم أحد، وقد يفارقون الحياة ببساطة.. انظري إنه يحاول الاقتراب منا.

نهضتُ ذاهبةً إلى ذلك الرجل؛ لعله يحتاج مساعدة، قال لي شيرفين:

- إلى أين؟ أنتِ تحملين طفلةً بين يديكِ، كيف سوف تساعدينه؟

نظرتُ إليه بشفقة، وضعتُ الطفلة بحجره وقبّلتُه:

- شكرًا لأنك تحمل عبء عائلتي الليلة، سوف أعود سريعًا.

ضحك وقال:

- هذا ما ينقصني، مافروس وابنته.

توجهتُ إلى ذلك الرجل، وركعتُ بجانبه ممسكةً يده، قلتُ له ببطءٍ قدر الإمكان لكي يفهم ما أقوله:

- هل يُمكنني مساعدتك بأي شيء؟

كانت يده هزيلة جدًا، وعيناه غائرتان، وحاجباه كثيفان جدًا، بسط راحة يده الأولى، وبيده الثانية جعل إصبعه كالقلم يكتب على راحته، وقام بتكرار هذه الحركة مرارًا.. نعم إنه فاقد القدرة على النطق، لكن يُمكنه الكتابة!

- أتريد ورقةً وقلمًا؟

أوماً برأسه "نعم".

- حسناً فهمت، انتظر هنا قليلاً، لديّ بعض الأقلام والأوراق في حقيبتني.

تحمس كثيراً شيرفين عندما أخبرته بطلب الرجل:

- هيّا هيّا، دعيه يكتب وأريني، ربما سوف يكشف لنا شيئاً مهماً.

سلمته عدة أوراق وأقلام وجلستُ بقربه أتأمله يكتب بصعوبة شديدة، بأحرف لا يُمكن تمييزها من أول نظرة، استغرق وقتاً طويلاً جداً، وراودني النعاس بشدة.

عندما انتهى من الكتابة، كنتُ أغفو بجانب شيرفين، وماتياس نائمٌ على إحدى العربات، شعرتُ بيدٍ رقيقة تلمس قدمي، رأيتُ وجه ذلك الرجل مبتسماً أمامي، فقد قطع مسافةً مُنهكة له للوصول إليّ، فأخذتُ الورقة وشكرتُه.

كان القمر مضيئاً بشدة في تلك الليلة، فقررتُ أن أقرأ محتوى الورقة صباحاً، لكن مافروس استيقظ فجأة وطلب ماءً، تلاه شيرفين وماتياس الذي سمع أصواتنا بينما أُطعم أخي، جلس بجانبنا واطمأن على مافروس وشادن؛ حيث بقيت نائمة في حجر شيرفين الذي استرسل في الحديث، وأخبر ماتياس عن أمر هذا الرجل الذي كتب لنا شيئاً ما.

أخذ ماتياس الورقة:

- ما هذا؟ تبدو كأنها كُتبت بلغةٍ أخرى.

فقد كانت الحروف متصلة وغير واضحة، فقال له شيرفين:

- أرجوك حاول فهم فحواها، إن لم تتمكن سوف نعاود سؤاله.

"أنا أدعى كيران، كنتُ أردد اسمي يومياً في عقلي كي لا أنساه؛ لأننا في ذلك المكان نحمل أرقاماً فقط. قبل ثلاثة وعشرين عاماً

سُرقت صندوق أغذيةٍ مستوردة من أحد المستودعات وتم كشف أمري، لا أستطيع سرد كل شيء، فإن يدي تؤلمني، لكن من خلال تواجدي بينكم هذه الأيام علمت أنكم بأمرٍ الحاجة لمعلومات، كل فرد يُرسل لذلك المكان في البداية يقضي عدة أشهر في زنزانة قذرة بمفرده، ويتم قطع لسانه ومسح كرامته، بعدها يتم إخراجه إلى المدينة الشمالية بغرض أخذ أي أعضاء منه يُمكن المتاجرة بها، في بعض الأحيان يعود لإكمال حياته بالعمل في مناجم الفحم المتواجدة على حدود المدينتين كما حدث معي، وربما يعود كأشلاء تُرمى في الحفرة، أو كجسد ضعيف منقوص لا يقوى على الحركة أيضًا، فيُلقي في تلك الحفرة حتى يفارق الحياة، لقد سُلِبت من جميعنا بعض أعضائنا، أنا لا أعلم ما أُخذ مني، لكنني أشعر بهذا النقص، أما السيدات؛ فلا يعدنَّ أبدًا من المدينة الشمالية."

مافروس توقف عن الأكل، ماتياس عَضَّ لسانه امتعاضًا، حلَّ صمْتُ رهيب لفترة وجيزة، وكيران نائم على الأرض بالقرب من شيرفين الذي شحب لونه وتاهت بصيرته، فقد صدق مولينا عندما أخبرنا أنهم يتاجرون بأعضاء البشر هناك، كسر الصمت ماتياس وقال:

- علينا إيقاظه، سوف أسأله عن بعض الأشياء قبل أن يحلَّ الصباح.

ذهب ولمس جسده الواهن بلطف:

- سيد كيران أرجوك، استيقظ، نريد أن نستفسر منك عن شيءٍ ما.

حاول مرارًا ونظر إلينا بارتياح، هزَّ جسد الرجل بعنف، لكن لم تصدر منه أي حركة، وضع يده على رقبته وتفحص نبضه.

- لقد فارق الحياة يا رفاق!

تخدير

قبل بزوغ الفجر بقليل، جاء جازان مسرعًا صائحًا:
- لقد جلبتُ لكم أخبارًا مدوية يا رفاق.

لكن لم يلتفت إليه أحد، كنا مشغولين بما يتوجب علينا فعله بعد أن
فارق كيران الحياة، هل ندفنه؟ أم نُبقي الورقة بجانبه لحين قدوم اللجنة
العليا؛ ليشهدوا أنها تعود له! فمن الطبيعي أن يكذبونا.

اقترب جازان من موضع تجمعنا، وبهتت حماسته عندما رأى كيران
ممددًا على الأرض، وشيرفين يتأمله:

- ما الذي يجري هنا؟ هل كل شيء على ما يُرام يا رفاق؟
قال شيرفين دون أن يلتفت إليه:

- لا تقلق يا جازان، هيأ، قل لنا ما لديك من أخبار.

- إنها أخبار غريبة، لا أعلم إن كانت سيئة أم لا، لقد وصلت برقية
إلى حكومتنا من المدينتين الشرقية والجنوبية، تقرآن فيها أنه قد تمَّ
إدراجنا في قائمة الإرهابيين.

نظر إليه شيرفين متعجبًا، وقال:

- الشعب أم الحكومة؟

- كلاهما يا صديقي، فقد قررت حكومة مدينتك إعادة من يتواجد
على أرضها من رعايا مدينتنا، بمن فيهم التجار والجرحي والمهاجرون
منذ أمد بعيد عبر الطريق البحري، وأمهلنا رعاياها ثلاثة أيام للعودة مع

السفن التي ستُغادر الميناء عند انتهاء المهلة المحددة، وبعد ذلك سيُحظر السفر إلى مدينتنا حتى إشعار آخر.

تبادلنا النظرات، بدا ماتياس تائهاً، أما شيرفين فقد ضحك بهستيرية، وقال:

- آه يا إلهي، هل كل هذه الإجراءات من أجلي؟ فأنا لم أُصاف أيّ أحدٍ من مدينتي يقطن هنا باستثناء التجار في الميناء.

اقترب جازان من شيرفين وقال له:

- سوف تُمنع من العودة إلى مدينتك وتضحك هكذا؟! أنا لا أفهمك، ولا أفهم سبب وجودك هنا لغاية هذه اللحظة.

أجاب شيرفين بحزم:

- إنني أحب شيرو، وسوف نُكمل حياتنا هنا.

أخفيتُ خجلي خلف بكاء شادن التي استيقظت جائعة، وكان مافروس في عالم آخر تمامًا، وفجأة نطق بتمهل:

- ماتياس، أنا مدينٌ لك بالكثير، شكرًا على كل ما فعلته لأجلي، عزيزي شيرفين، أنت تعلم أنني ممتنٌ لك أبد الدهر، أنا أفكر بجديّة أن أتحمّل كل التهم والافتراءات الموجهة إليّ وأعترف بصحّتها، فقط كي ينتهي هذا الوضع.

قال شيرفين بحدة:

- لا.. لن تفعل ذلك! ولن نسمح لك بفعله أيضًا، عليك الحذر منا الآن؛ نحن إرهابيون، لا تنس ذلك!

وضحك ملء شذقيه.

وصل الحشد من الميناء، وقد قررنا الإبقاء على الرسالة والقلم بجانب كيران إلى حين حضور اللجنة العليا، وكان الناجد مُحاطًا بأربعةٍ من

رجال اللجنة، لكن كبير الحرس ليس موجوداً، ويسير بجانب أعضاء اللجنة السيد هافال، وعندما استقروا جميعاً في أماكن جلوسهم، قال أحد الأعضاء:

- هناك فردٌ بينكم قادم من المدينة الجنوبية، أين هو؟

تقدم شيرفين إليه قائلاً:

- من الجيد أنك طلبتني، لديّ خبرٌ لكم يُمكنه التأثير على مسار التحقيق.

أشار بيده على كيران وقال:

- ذاك الرجل هناك، كان أحد ضحايا درب السلام، ليلة أمس أبدى رغبته في الحصول على ورقةٍ وقلم، وكتب لنا هذه..

وسلمه الورقة قائلاً:

- واليوم صباحاً فارق الحياة، أرجو منك قراءتها بصوتٍ مسموع.

ذُهل الجميع عند سماع ما كُتب، على الرغم من محاولة ذاك الرجل قراءتها بصوتٍ منخفض قدر الإمكان، فلم يُكن يتوقع أن هذا محتواها، بكل بروذ قال لنا بعد انتهائه:

- كيف أرغتموه على كتابة هذا الهراء؟ هل فارق الحياة بشكل طبيعي فعلاً؟

تصدّر ماتياس الموقف:

- يا سيدي، إن كنت قاضياً عادلاً عليك عدم الانحياز لأيّ طرف، أنت لا توفر جهداً بتكذيبنا وإظهارنا في أسوأ الصفات الممكنة منذ بداية التحقيق، وجُلّ أقوالكم فقط لضمان تخدير الشعب، إن كان لديكم أيُّ شكٍّ بما كتبه كيران يُمكننا الطلب من البقية أيضاً أن يكتبوا لنا ما عايشوه هناك، وإن لم تُصدّق أيضاً يُمكنك الذهاب إلى ذلك المكان؛ لترى

بأم عينيك الحفرة المليئة بالجلث والأشلاء! أم أنكم قد أخفيتموها كما
دمّرتم الميناء الشمالي من قبل؟

كان ماتياس منفعلًا جدًّا، ويتكلم بصوتٍ مرتفعٍ وبنبرةٍ هجومية.
- عليك الالتزام بالهدوء يا سيد ماتياس، لن آخذ انفعالك وتصرفاتك
على محمل الجدّ الآن، لأنك على الأرجح لا تعلم مع من تتعاون.

وأشار إلى شيرفين، ثم أكمل قائلاً:

- أنت مواطن من المدينة الجنوبية، وبحسب معلوماتنا فقد جئت إلى
هنا بغرض التجارة، وحتى بعد إعلان قرار حظر العودة بعد ثلاثة أيام،
وأنا متأكدٌ أن الخبر وصل إليكم بطريقةٍ ما.

ونظر إلى جازان مُكَمَّلًا:

- ما زلت واقفًا هنا، ولا تحاول حتى إخفاء اهتمامك البالغ في هذه
القضية، ومشاركة هذا الشعب مشاكله، هل يُمكن أن تفسر لنا لماذا؟

ابتسم ورفع كتفيه بلامبالاة:

- أنا متفاجئٌ أن معلوماتكم منقوصة، أنا متواجدٌ هنا برفقة
زوجتي.

لأول مرةٍ انفعَل النَّاجِد من خلف الحراس وقال:

- إنه يكذب! هو غير متزوج.

التفت إليّ شيرفين:

- انظر.. هذه زوجتي وطفلتنا.

لم تصدر أيُّ ردةٍ فعلٍ من مافروس، ولا أعلم إن كان قد سمعنا من
الأساس، وأكمل شيرفين قائلاً:

- أنا لا أفهم لماذا تُقحم حياتي الشخصية في التحقيق؟!

- أين إثبات كلامك؟ إنك دخلت إلى المدينة قبل ستة أشهر فقط، فكيف تزوجت وأنجبت طفلةً خلال هذه المدة؟

ضحك شيرفين:

- الأمر معقد قليلاً، أنا على علاقةٍ منذ زمن بشيرو؛ حيث كنتُ متواجداً مع السفن التجارية في الميناء منذ زمن قبل أن أقرر الإقامة هنا، فلقد كان والدها السيد ديفان الذي قتله حراس الناجد، رافضاً لعلاقتنا في بادئ الأمر، والأوراق التي تثبت زواجنا فقدناها أثناء حريق المدينة، وما زلتُ لا أفهم ما علاقة حياتي الشخصية بكلِّ ما يحدث يا سيدي؟

- يا سادة، هذا الفتى هو ابن القبطان دياز، شخصٌ ذو صيت وشهرة واسعة، هل يمكنك أن تقول للجميع هنا كيف توفِّي والدك يا شيرفين؟

رأيتُ شيرفين يشدُّ على قبضة يده:

- توفِّي غرقاً يا سيدي.

- قبطان يغرق؟! هذا أمر غريب، أليس كذلك؟

- أجل غريب، لكن ليس أمراً مستحيلاً يا سيدي.

- حسب معلوماتنا، والدك كان متورطاً بتجارة المواد الممنوعة مع العرّاف؛ حيث حقق أرباحاً ضخمة على حساب ضحايا كثر فقدوا رشدهم بسبب العقاقير التي كان يوردها للعرّاف، وعندما نشب خلافٌ بينهما قام العرّاف بالتخلص منه، وأنت جئت لتنتقم ببساطة، ولا نستبعد أن تكون أنت من عجّل بموت العرّاف، وما يُثبت صحة كلامي أنك باشرت بدراسة علم الطب، ربما بطلبٍ من والدك لإكمال سلسلة أعماله المشينة.

تهمة

تصدّر ماتياس الحديث بعد أن جُمّد شيرفين في مكانه:

- سيدي، لنفرض جدلاً أن شيرفين جاء؛ لينتقم ويقتل العرّاف أيضاً، تمعّن في الأمر جيداً، هذا اعتراف صريح بفساد حكومة النّاجد، هل العرّاف أقدم على قتل القبطان دياز دون الرجوع للنّاجد؟ وإن كان ذلك قد حدث، فهذه قضية أخرى يُمكن النظر فيها لاحقاً.. أما الآن، فنحن شعب هذه المدينة نريد تفسيراً لما يحدث في درب السلام من تجارة أعضاء وبشر، وماذا عن أهاليها الذين تحولوا إلى دراويش؟ نريد كشف حقيقة تورط النّاجد بحرائق المدينة، وحرق مخبز السماء أيضاً منذ بضعة أيام... قاطعه القاضي قائلاً:

- أنتم من أضرم النيران في المخبز.

تدخّل جازان قائلاً:

- لا يا سيدي، أنا كنت متواجداً هنا بينهم، أخي، لا تُصدق هذا الكلام، لا أعلم من حرّق مخبزنا، لكن أنا متأكد أنه ليس من العامة.

ثم أكمل ماتياس:

- والآن بعد أن تم تصنيفنا كشعب إرهابي كما أردتم، أجل، يُمكنك نسب حريق المخبز لنا، مع جميع التهم السابقة، لكن بالمناسبة نحن شعبُ جبّار، سوف نُعيد بناء المخبز بأيدينا كما سنُعيد إعمار مدينتنا، لكن قبل هذا كله نريد معرفة الحقيقة لا أكثر! نريد كشف المستور،

والتحقق من كل اشاعة انتشرت، هذا حق مشروع لنا.

تكلم شيرفين:

- سيدي، أنا لم أكن متواجداً لحظة وفاة والدي، ويُمكنكم التحقق من ذلك، كنت مسافراً، ووصل خبر وفاته إلى عائلتي قبل وصولي إليهم، ولا أعلم أيَّ شيءٍ عن التجارة التي كانت تربط بين والدي والعرفان، على الأرجح أن والدي كُشف أمره؛ لذلك تمت تصفيته.

وقف الناجد كما يفعل عندما يُلقي خطبه، وقال:

"القبطان دياز كان متواطئاً ضدنا، وها هو ابنه الآن يُكمل ما لم يستطع والده إنهائه، وهو الوحيد الذي يستطيع التلاعب بالعقائير والمركبات لأذيتنا كما فعل مع العرفان سابقاً.

استغل علاقته بهذه الفتاة الأثمة كذريعة لبقائه هنا في مدينتنا، وأنا متأكد أنه من ساعد المدعو مافروس على الهرب، وحرّض جميع هؤلاء على افتعال هذا الشغب والضرر.. إنه فتى زنديق يسعى إلى الخراب، كيف تتبعونه وتصدقونه؟ إنه نكرة ولا يُمكنه حمايتكم، أنا من أحميكم هنا، وأحافظ على جدران هذه المدينة قائمة، فإن كانت تدابيري صارمة أكثر من اللازم، فهذا لحمايتكم".

ارتفعت أصوات العامة:

- هذا غير صحيح، أنتم من أشعل النيران في منازلنا، نحن رأينا أبناء الناجد تفتعل الحريق، أنتم كاذبون.

الغضب العام كان يزداد يوماً بعد يوم، لكن ليس هناك أيُّ مستمسك بحوزتنا لإدانتهم بشكل قاطع، حتى الوثائق التي قدّمها لهم مافروس اتهموه بتزويرها؛ فليس هناك شيءٌ أهم من مصالحهم.

قال القاضي:

- أرجو الهدوء، هكذا لا يُمكننا إكمال المحاكمة، وإلا سنضطر
لاعتقال المتهمين، مافروس وشيرفين.

ابتسم مافروس وقال بتهكم:

- إذًا سوف يتحمل شيرفين نصف التهم التي وجهتموها إليّ؟ يا لها
من عدالة!

قال شيرفين:

- الآن قد أصبحت في نظركم متهمًا؟! أنا لذيّ شاهد، إنه من أهل
المدينة، سوف يشهد على براءة والدي، وسوف يقصُّ عليكم ما حدث في
ليلة الحريق.

- أين ذلك الشاهد؟

- سوف يصل اليوم على متن سفينة من المدينة الجنوبية قبل إغلاق
الحدود، فقد كان يتلقى العلاج هناك بعد أن تضرر جسديًا بفعل
الحرائق.

- حسنًا سوف ننتظر إلى حين وصول شاهدك، غدًا سوف نستأنف
المحاكمة في قصر النّاجد، وليس هنا.

نظر القاضي إلى الحراس قائلاً:

- هيّا، أحضروا مافروس وشيرفين، سوف نحتجزهما حتى يوم الغد.
حاولتُ الاقتراب من شيرفين ومافروس، لكن الحراس أبعدوني،
ورأيتُ شيرفين يهمس لي باسم العم ماهان، بالتأكيد هو الشاهد.

عدنا إلى الميناء، وكان جازان برفقتنا، احتد النقاش بينه وبين
ماتياس الذي شكك في سبب وجود أخيه السيد هافال مع اللجنة:

- لماذا شقيقك بينهم؟ أمنحازٌ لهم أم ماذا؟ حتى إنه لم ينطق بكلمة
واحدة عندما اتهمونا بحرق الخبز! نحن لا نinqصنا عدو جديد.

- لا يا ماتياس، أنا متأكد أنه ليس عدونا، ولا يشكك في براءتنا، لكن أنا أجهل سبب تواجده بينهم.

- يا إلهي، نحن نحاول بشتى الطرق إزالة التهم عنا وتوضيح حقيقة الناجد وحكومته الظالمة، لكنهم لا يتوقفون عن تليفق تهم جديدة لنا، انظر ماذا حدث مع شيرفين اليوم، جاء لينتقم! شاب في العشرين من عمره أحرق المدينة، قتل السكان، ورفض رب السلام أيضًا! على هذا النهج سوف يتم تليفق تهم لجميع أفراد الشعب على حدة في نهاية المطاف!

التفت إليّ ماتياس وقال:

- اصدقيني القول يا شيرو، هل فعلاً شيرفين هنا بيننا بدافع الانتقام؟ بالتأكيد أنت تعلمين الحقيقة، فقد كنتُ أراقبك، لم تظهر على وجهك علامات الدهشة عندما قالوا أن القبطان دياز قُتل. أجبته بلامبالاة:

- هل هذا الأمر سيغير شيئاً من واقعنا؟

- لا، لكن أريد معرفة الحقيقة.

- لا، شيرفين لغاية اليوم لم يكن يُخطط للانتقام، لقد جاء إلى هنا من أجلي، فأنا قابلته قبل عشرة أعوام، وخلال تواجده هنا كشف لي عن وجود الميناء الشمالي بحكم معرفته بطرق التجارة، وسخر من بعض معتقداتنا، فقط لا غير.

تبادل ماتياس وجازان نظرات الشك فيما بينهما:

- ماذا تعنين أنه سخر من معتقداتنا؟

- أعني أنه كشف لي عن بعض الحقائق التي كنتُ أجهلها، أتذكرون قصة الكتيبة التي نزت دماً أبيض؟ أخبرني أنها خرافة، وجميع البشر

لديهم دم أحمر بما فيهم سكان المدينة الجنوبية؛ حيث جرح يده أمامي،
وشرح لي أيضًا أن الفتاة البيضاء التي قُتلت في يوم السماء قبل ستة عشر
عامًا، كانت مريضة فقط، وليست شرًّا أو شيطانًا.

لم أعرف رأيهما بما قلت؛ لأنه جاء أحد العاملين من الميناء؛ ليخبرنا
أن سفينة من المدينة الجنوبية قد وصلت، وعلى متنها العم ماهان
ووالدتي.

الجزء الرابع



شخصيات الجزء الرابع

وليام: رجل في عقده الثالث، ينتمي إلى عائلة متوسطة الحال، صاحب نفوذ وسلطة، تغلب الاستغلالية على جميع صفاته، حذر جدًا وسريع البديهة، يُتقن فن الغدر.

مانرلوف: رجل في عقده السادس، ينتمي إلى عائلة ثرية ذات نسب عريق، قصير القامة ودميم الملامح، مهووس بالمال والسلطة، ولا يبالي بأي شيءٍ آخر.

شادن: طفلة تنتمي إلى عائلة متوسطة الحال، مرحة وصاخبة جدًا، ذات فضول كبير وخيال واسع، تملك عينين خضراوين، وشعرًا مُجعدًا كثيفًا طويلًا.

النَّاجِد: مجهول الاسم والنسب، صفاته غير معلومة، مظهره متبدل متفاوت لمن يراه بعين الحب أو عين الكره.

الفصل الأول

"إن الموت ليس هو الخسارة الكبرى، الخسارة الكبرى هي ما يموت فينا،
ونحن أحياء".

- محمد الماغوط، شاعر وأديب سوري.

قرصان

رأيتُ فتاةً ذات شعرٍ أحمر اللون ترتدي رداءً أبيض تُمسك بيدٍ أُمي
وتُساعدُها على المشي بالرغم من أنها كانت تبدو بخير، خلفها شاب يرتدي
ذات الرداء الأبيض، يُمسك بيد العم ماهان الذي كان يتوكأ على عصا
تُساعدُه على السير بيده الأخرى، بعد أن فقد قدمه اليمنى، ويضع فوق
عينه اليمنى عصابة سوداء.

ترجلوا عن متن السفينة عبر سلم طويل، فطلبتُ من إحدى السيدات
الاعتناء بشادن ريثما أعود، وعندما اقتربوا قالت الفتاة ذات الشعر الأحمر:
- أرجوكِ نحن بحاجةٍ إلى مكانٍ مناسب؛ ليرتاحوا فيه، هم منهكون
جداً.

توجهنا إلى مكتب أبي، قُلتُ لها:

- إنهم عائلتي، أنا سوف أعتني بهم، شكراً لكِ.

كنتُ واقفةً أمام والدتي بالضبط، التي لم تبتسم إلا حين سمعت
صوتي، وقالت:

- هذه أنتِ حبيبتي شيرو!

نظرتُ إلى تلك الفتاة أطلب تفسيراً، لكنها أشارت لي أن أنتظر،
وعندما وصلنا إلى مكتب والدي أجلسْتُ أُمي على مقعدٍ خشبي، والعم
ماهان ابتسم لي، وقال بصعوبة:

- لقد افتقدكِ جداً يا شيرو، شكراً لكم لإنقاذي.

خرجتُ من المكتب الذي بدا أنه يطبق على صدري، جاءت الفتاة ذات الشعر الأحمر:

- آنسة شيرو، نحن لن نتمكن من البقاء هنا كما تعلمين؛ لذلك سوف أُرودك ببعض التعليمات التي يجب عليكِ اتباعها لإكمال رحلة شفائهم، السيدة والدتك، تعرضت لجلطة دماغية أفقدتها بصرها، أما السيد ماهان؛ فحالته سيئة جداً، فقد أذنه وعينه اليمنى بسبب الحروق التي تعرض لها، واضطررنا لبتّر قدمه اليمنى بعد أن تأكلت لتأخره في تلقي العلاج المناسب، وفقد ثلاثة أصابع في يده اليسرى. وهو الآن لا يستطيع تناول الطعام، فقط يمكنه شرب السوائل فقد تعرّض فكّه لحروق عميقة، لكنه يتماثل للشفاء.

شعرتُ بدوار رهيب في رأسي، ورأيتُ رصيف الميناء كاملاً عبارة عن بحر أغرق فيه ولا أقوى على السباحة:

- أرجوكِ أعيدي ما قلته لي الآن، أمي أصبحت عمياء؟!

- آنسة شيرو، تماسكي أرجوكِ، والدتكِ تعرضت لصدمة كبيرة عليكِ استيعابها ومساندتها، السيد ماهان سوف يحتاج مُعيلاً طيلة حياته؛ فقد نجا من الموت بكثير من الخسائر.

دخلنا إلى مكتب أبي، وشرعت الفتاة الحمراء بتنظيف وتعقيم الجهة اليمنى من وجه العم ماهان.

- اقتربي أرجوكِ؛ لتعرفي كيف عليكِ فعل هذا مرةً كل أربع ساعات، كونه يتوجب عليكِ استخدام مراهم معينة سوف أجلبها لكِ.

- شيرو، أين أنتِ؟

كان صوت أمي مكسوراً، فعانقتها بشدة، وشعرتُ بدموعها تسيل على كتفي، همستُ لها:

- أنا هنا بجانبك، ومافروس عاد، وهو بخير، سوف أشرح لكِ كل

شيء، لكن الوضع ما زال مُعقداً وغير مستقر.

وقبَلْتُ عينيها اللتين انطفاً نورهما للأبد قبل أن تظفر برؤية مافروس مجدداً، وتتمعن بوجه حفيدتها الجميلة.

خلال ساعة شرحت لي الفتاة ذات الشعر الأحمر كل ما يلزمني معرفته عن الإجراءات والأدوية اللازمة وأوقات تناولها، وقالت لي:

- سوف أطمئن عليهم صباحاً على مدى ثلاثة أيام، فقد كُلفنا أيضاً بتقديم العلاج لكل من يحتاجه هنا.

بعد أن غادرت الفتاة جاء ماتياس ورآني بكامل حزني، أطل من الباب وقال:

- شيرو، أعلم أنك قلقة على مافروس وشيرفين، لكن علينا عدم الاستسلام.

- أمي فقدت بصرها يا ماتياس، فقدته قبل أن ترى أخي وابنته مرة أخرى، والعم ماهان الذي سيشهد لمصلحة شيرفين في حالة يرثى لها، يبدو كمن نجا من الجحيم مباشرة.

- هل يقوى على الكلام؟

- جزئياً.

- هذا جيد، لا نطلب أكثر من هذا الآن.

- أنا نادمة يا ماتياس.

- لقد فات الآوان على الندم، وما حصل كان سيحصل بوجودك أو عدمه، لذا أرجوك تماسكي وكوني قوية، هيّا بنا علينا التحدث مع شاهدكم.

عندما رأى العم ماهان ماتياس تعرّف عليه فوراً، ابتسم وقال:

- انظر إليّ يا بُني، لقد تحولتُ من تاجر تحف ونوادر إلى قرصان.

كانت أول مرة أدخل بها قصر النّاجد الرّائع، وعلى الرغم من حدة لونه الأبيض الناصع رأيتّه أسود معتمًا، منبع الظلم والظلام، عرين القاتل والقتل، كانت بوابة القصر كافية لتتسع أربع عربات تدخل منها دفعةً واحدة، لونها أبيض أيضًا كجميع زوايا القصر وأعمدته الضخمة التي تجعله أشبه بالحصون الحربية أو قلاع الأشباح في القصص الخيالية، أما الحديقة فقد بدت مهملة بعض الشيء هذه الأيام، لكن ما زال اللون الأبيض للأزهار والسور الضخم يُعطي الأُبصار، فظهرت جموع الناس وثيابنا المهترئة كمنقطة سوداء قذرة وسط هذا البياض الصارخ.

في بهو القصر الذي تضاهي مساحته مساحة ساحه مدينتنا المسكينة، كان مافروس وشيرفين في الزاوية مُحاطين بالحراس، أيديهما مقيدة خلف ظهرهما، العم ماهان دخل بمساعدة ماتياس وجازان اللذين أمضيا الليلة الفائتة بأكملها يشرحان له ماذا حدث، وماذا عليه أن يقول، والأهم من ذلك ما لا يجب أن يقول، وأوصوه ألا يُظهر عاطفة كبيرة تجاه شيرفين؛ كي لا يُشكك في شهادته أو يُطعن بمصداقيتها.

جلس العم ماهان في المقدمة؛ حيث كانت هناك مقاعد مصطفة تباعًا، وقد تجنّب النظر المباشر لشيرفين الذي حذا حذوه أيضًا، وجلستُ بجانبه بقصد أن أشدّ من عزمه.

رحب القاضي بنا، ثم استمع إلى شهادة ماهان حول قضية شيرفين بعد أن سرد عليه جميع النقاط المتعلقة به، وقد سبق ذلك شرح موجز من ماتياس عن وضع ماهان الصحي.

وبنطقٍ غير واضح ومتقطع قال العم ماهان:

- سيدي اعذرني، سوف أحتاج وقتًا طويلًا؛ لأنهي كلامي، فلقد تعرضتُ لحروق شديدة في فكي، كنتُ أعمل ملاحًا خلال فترة شبابي؛ حيث أمضيتُ اثني عشر عامًا من عمري في تلك المهنة، ثماني سنوات منها بجانب القبطان دياز والد السيد شيرفين الذي كان حينها

مجرد طفل، كنا نمخر عُباب البحر بالسفن التجارية إلى أصقاع عدة حول العالم بما فيها مدينتنا.

بشأن تجارة المواد الممنوعة التي ذكرتها يا سيدي، فأنا متأكد أن القبطان دياز لم يكن يعلم بهذا الأمر، فلقد أخبرني عدة مرات أنه ينقل أعشاباً علاجية مُباركة لعُرّاف مدينتنا، والذي استغنى عن الطريق البري لاستيراد ما يريد من بضائع، لقد كنتُ متواجداً برفقته أثناء تسليم جميع الشحنات، ولم أَرَ ما يُثير الريبة أو الشك.

وصلني خبر وفاته بعد أن قدمتُ استقالتني بفترة، فلقد التقيتُ بابنه شيرفين في الميناء قبل عام تقريباً عندما كنتُ أستلم بعض البضائع المستوردة.

كما تعلم يا سيدي أنا الآن، أعني.. لقد كنتُ تاجر نواذر وتحف قبل أن يحترق متجري، متجر الذكريات، بألسنة اللهب الذي أشعله النّاجد.. في البداية، عندما رأيته، لم أتعرف على شيرفين؛ فهو لا يُشبه والده في أيّ شيء، لكن عندما أخبرني برغبته في البقاء هنا بسبب علاقته بالسيدة شيرو، طلب مساعدتي في إيجاد شقة مناسبة له؛ لكي يستأجرها بينما يحاول إقناع السيد ديفان بالموافقة على طلب زواجه من ابنته الكريمة، وبالفعل وجدتُ شقة مناسبة له جانب متجري، وشهدتُ على زواجهما كذلك.

مصالحة مشتركة

غادر العم ماهان بعد إدلائه بشهادته، وفيما بعد سُئِلَ بعض العاملين في الميناء عن مدى صحة كلام السيد ماهان، والجميع شهدوا لمصلحتنا دون أيِّ اتفاقٍ مُسبق، وفي الوقت المتبقي من الجلسة حاولوا معرفة المسؤول المباشر عن بثِّ الأخبار في المدينة عبر المنشورات الورقية، لقد قرؤوا كل المناشير التي كتبْتُها بنفسِي، وبالطبع اتُّهم مافروس بذلك، لكن عاد ماتياس لِيُحاججهم؛ فالأخبار استمرت بالانتشار حتى بعد مغادرة مافروس من المدينة.

أنهى القاضي حديثه بتأكيدهِ وجود من يتعاون مع مافروس، إما من داخل القصر أو من خارجه، وبالتأكيد هو أحد سكان المدينة، وذو نفوذ كبيرة، وإلا كيف له أن يعرف كل هذه التفاصيل؟ لم يَكُن يعرف أننا كتبنا بعض الأخبار بمحض الصدفة، إبداعٌ شخصي تفتق من خيال شيرفين الخصب.

أعلن القاضي أن الجلسة قد رُفِعَتْ، والبُتُّ في الحكم سيكون بعد ثلاثة أيام، سيبقى خلالها شيرفين ومافروس محتجزين، ثم توجه القاضي لشيرفين قائلاً:

- لا أعدك أننا سوف نأخذ كلام شاهدك على محمل الجدِّ، في النهاية هو صديق والدك.

قال شيرفين معترضاً:

- سيدي أنت طلبت إثباتاً لكلامي حول زواجي وتردي للمدينة،

وأنا نَفَّذت ما طلبت مني، أما مسألة تورط أبي أم لا، فأنا ليس لي يدُ بها، يُمكنك الذهاب إلى قبره ومحاسبته هناك، أنا جئتُ إلى هذه المدينة في البداية بغرض التجارة لإعالة أُمِّي وأخواتي بعد وفاة والدي، بالصدفة قابلتُ شيرو وتزوجنا، والجرم الوحيد الذي يُمكنك محاسبتي عليه، هو عدم وجودي لحظةً وفاة والدي؛ لأحميه وأنقذه من الموت، إن كان غرقاً أم قتلاً.

تلعثم القاضي ولم يجب، وطلب من الجميع المغادرة، وقبل خروجنا من بهو القصر لمحتُ السيد هافال يتكلم مع شيرفين.

عاد الجميع إلى الميناء، وذهب جازان لإحضار بعض المُون من أحد مستودعات أسرتِه، في حين كانت وجهتي شقة شرفين، كان المبنى محترقاً من جهته اليسرى، والنوافذ والأبواب محطمة. جئتُ إلى هنا؛ لأحاول محو أي أثرٍ لما كنا نخططه في هذا المكان، فقد يتبادر لذهن أحدهم أن يفتش خلفنا، صعِدتُ إلى الشقة وبدأتُ أبحث عن أي أثرٍ مُمكن، فلم أجد ثمة شيء؛ فقد أتت النيران على كامل أثاث الشقة، فقط وجدتُ صندوقَ العم ماهان الذي أهدها لشيرفين، لكنه كان خالياً من الخناجر، فأخذته معي وتوجهتُ إلى متجر الذكريات الذي كان بحالةٍ يرثى لها كما قال شيرفين، فقد تعرّض لضرر كبير، فجميع القطع النادرة الجميلة بما تحمل من ذكريات وبصماتٍ قد احترقت وأصبحت رماداً، حاولتُ أيضاً البحث عن أيّ شيءٍ يُمكن إخفاؤه أو التخلص منه لتفادي أي مشكلة قد تحدث إن قرروا تفتيش المكان، لكن النيران تكفّلت بالأمر على أكمل وجه، أمضيتُ وقتاً طويلاً أبحث في متجر ومنزل العم ماهان، وبينما أفتش بين الصناديق وجدتُ شيئاً مُغلّفاً بقطعةٍ جلدٍ لم تتعرض لضرر كبير، ويا للفرحة التي تملكنتني عندما أزلتُ الغلاف الجلدي عنها، فقد وجدتُ أساور جلدية كالتي كان يرتديها شيرفين ووالده من قبله، وضعتهم في حقيبتي، ثم قصدتُ الميناء؛ حيث وجدتُ الجميع ملتقاً حول جازان؛

ليستلموا بعض الطعام، وماتياس يقف بعيداً شارد الذهن.

اتجهتُ إلى مكتب والدي؛ حيث كانت الفتاة ذات الشعر الأحمر التي لا يتناسب جمالها الصارخ مع هذا المكان المتهاك تعتنني بحروق العم ماهان، سألتني أمي:

- هل جاء معك مافروس؟

- لا يا أمي، سوف ترينه قريباً، لا تقلقي.

وعلى الفور ندمتُ على ما نطق لسانني، فلم تبال بكلامي، وقالت:

- أخبرني السيد ماهان أن مافروس بخير، أين قابله؟ أين هو الآن؟

قال العم ماهان بمرح:

- لا تقلقي يا سيدتي، سوف يأتي، فقط أمهليه بعض الوقت.

كانت علاقة العم ماهان بأمي قد أصبحت وطيدة، فقد أخبرتني الفتاة أنهما دائماً ما يتحدثان مع بعضهما البعض، فقد كانا في حجرة واحدة خلال فترة علاجهما.

تهربتُ من أسئلة والدتي قدر المستطاع، وخرجتُ من المكتب بحجة جلب الطعام.

أخبرني ماتياس أن السيد هافال طلب منا انتظاره الليلة في مكان بعيد عن الأنظار، فهو يودُّ التحدث معنا، أبديتُ استغرابي، وشاركني ماتياس هذا الشعور قائلاً:

- لقد رأيتُ ذاك هافال يتحدث مع شيرفين قبل خروجنا من القصر، لا أريد أن أشكك بهما يا شيرو، لكنني بالفعل لا أثق بأحد الآن.

- أجل، أنا أوافقك الرأي، أشعر أن كل شيءٍ مُرتب، وما فعلناه سوف يذهب سدى، إن كان أعضاء تلك اللجنة الغبية لا يصدقون أخي مافروس، فلماذا تدخلوا وأقحموا أنفسهم من الأساس في هذا الأمر؟ لقد كنتُ أظن

أنهم سوف يكونون عوناً لنا.

ليلاً، اصطحبنا جازان لمقابلة السيد هافال، وصلت العربية بنا إلى مكان ناءٍ عن المدينة بالقرب من الغابة في الشمال، كان الليل هادئاً، والمكان مقفراً من أيّ وجود باستثناء بعض جذوع الأشجار التي تضررت بفعل الحريق، ولاحظتُ أن جازان كان متوتراً بشكلٍ واضح، ويبحث بعينيه عن شيءٍ ما.

جاءت عربية أخرى يستقلها السيد هافال وشخص آخر لم أستطع في بادئ الأمر التعرف عليه في الظلام، لكن عندما اقترب، عرفته، كان كبير الحرس في قصر الناجد، ابتعد ماتياس خطوةً إلى الخلف وأمسك برقبة جازان:

- ما هذا أيُّها الوغد؟!

- انتظر سيد ماتياس.

قالها السيد هافال الذي كان يرتدي بزة فخمة جداً:

- لا تقلق، هذا ليس كميناً أو فخاً، لقد طلبنا مقابلتكم هنا بعيداً عن أعين المدينة؛ لأن طلبنا منكم حساس جداً.

تبادلنا النظرات والحيرة، ورفع جازان كتفيه كنايةً عن أنه لا علم له بما يجري، استطرد السيد هافال حديثه:

- إنكم بالتأكيد تجهلون اسم كبير حرس الناجد، إنه يُدعى السيد وليام، إنه يرى أن الأمور ستؤول إلى تنحية الناجد، وهو لا يريد أن يخسر مكانته مستقبلاً؛ لذلك قد أبدى استعداداه لمساعدتنا في الانقلاب عليه وإسقاط حكمه؛ فهو يملك كل المعلومات والحقائق التي يُمكنها أن تطيح بالناجِد بسهولة، لكنه لا يود أن يظهر في الواجهة؛ كي لا يُطلق عليه لقب الخائن من أيّ طرف.

ضحك ماتياس، وصفق استهزاءً:

- أتريد منا التحالف مع من كان سبباً مباشراً في قتل أهلنا وحرق
مدينتنا؟! ومن أجل ماذا؟ من أجل أن يبقى في مكانته المرموقة، ويوسع
نفوذه أكثر!

أجاب وليام:

- لا يا سيد ماتياس، أنا أعلم أنني أتحمّل وزر ما اقترفت لكنني لم
يكن لدي خيار، لقد بدأت بالعمل كحارس على بوابة منزل العراف، وشيئاً
فشيئاً انتهى بي الأمر كمنفذ لأوامر الناجد، أنا لا أتهرب من أخطائي،
ويمكنكم محاسبتني لاحقاً، أنا لا أريد منصباً سياسياً أو نفوذاً، أريد فقط
أن أبقى محترماً هنا في المدينة، ولا أحسب من أتباع الناجد الذين سوف
يلقون مصيراً مذلاً.

- ما الذي يؤكد لك أن أمره سوف ينتهي؟ ألم تعرف ما جرى اليوم
في المحاكمة؟ الكفة ما زالت ترجح لمصلحة ذلك الوغد.

قال السيد هافال:

- نحن متأكدون.

لم أتحمّل البقاء صامتةً في هذا الوضع! هذا الرجل بالتأكيد سبب
عذابات والدي من اعتقال تعسفي وبتر يده، ثم قتله بدم بارد أيضاً!

- سيد هافال، أنا أكبر المتضررين هنا، فقدتُ أبي بسبب صديقك
وليام هذا، وهو يعرف عما أتحدث بالضبط، فهذه ليست أول مرة نلتقي
بها، فقدت أُمي بصرها بسبب حزنها على فراق أخي، وقُتل أبي أمام
عينيهما، والآن، أخي وشيرفين يواجهان مصيراً مجهولاً! بعد كل هذا يقول
أنه لا يريد أن يظهر بالوجهة! أنت يا وليام أساس كل هذا البلاء، وإن
أقدمتُ على قتلك هنا بيدي الآن، فلا أحد من هؤلاء سوف يمنعني.

تدخل السيد هافال معقباً على كلامي:

- شيرو، نحن جميعنا هنا نقدر معاناتك، لكن إن لم نتحالف مع

الشیطان، فلن نخرج من هذه الدائرة، ربما سوف تخسرین ما فروس
وشیرفین وماتیاس وأخي الصغیر الذي أصبح صديقًا مقربًا لكم، علينا
اتباع عقلنا وليس مشاعرنا! ما الذي يمنعني أنا ومعني عائلتي من
الخروج من هذه المدينة، والعيش بترفٍ في مكانٍ آخر؟ لكن لغاية معينة
لنا بقینا هنا، وأنتِ من مصلحتكِ إنقاذ أخيكِ وشريك حياتكِ، أليس كذلك؟

التفت إليّ كبير الحرس مُجيبًا:

- سابقًا لم تُكن بيننا أي مصلحة مشتركة، أما الآن فجميعنا نسعى
لهدف واحد، اعتذاری لكِ لن يُصلح أيّ شيءٍ مما سببته لكِ ولعائلتكِ من
أذى، لكن الآن، على الأقل يُمكنني المساعدة.

قال ماتیاس:

- حسنًا.. حسنًا، كفى جدلاً، ما المطلوب منا الآن؟

قال السيد هافال الذي مدّ يده لمصافحة ماتیاس:

- نريد منكم فقط أن تكونوا مستعدين لحمل السلاح ورؤية دماء
كثيرة في الأرجاء.

شك

- السيد مانرلوف هو الوحيد الذي أفكر في احتمالية تدخله في الوضع الراهن، هو تاجرٌ ثري جدًا، ولديه نفوذٌ واسعة، أزرعه تمتد في سائر مجالات التجارة، بما فيها تجارة الأسلحة، هو أحد مواطني المدينة الشرقية، لكن جذور عائلته تعود إلى مدينتنا، أخبرني أخي هافال أنه كان مرشحًا قويًا ليكون رئيس اللجنة الأمنية العليا منذ خمس سنوات، لكن بسبب التحفظ على نشاطاته التجارية، فقد تمَّ إقصاؤه، وهو من وفر لنا الحماية الكافية لاستخدام سفينتنا الخاصة خارج ضوابط الحكومة.

- إذًا يا جازان أنت تظن أن أخاك سوف يطلب المساعدة منه، لكن ماذا لو وافقنا على هذا الانقلاب المسلح، هل سوف يتم استغلال هذا الشيء ضدنا؟ ومحاسبتنا على ما يمكن أن يحدث من قتل وضحايا فيما بعد؟ لهذا السبب ربما لا يريد ذلك الحقيير المشاركة، لكي لا تتم محاسبته لاحقًا، أنا أخشى أن يكون هذا الحلُّ تمهيدًا لنهائيتنا.

- لا أعلم يا ماتياس، لكن هل هناك طريقٌ آخر نسلكُه؟

حكَّ ماتياس خلف أذنه قائلاً:

- لا، ليس هناك طريقٌ آخر، أنت محقٌّ، كيف يُمكننا إقناع الناس بهذا الأمر؟ هل تتذكر عندما اقترح شيرفين طلب دعم خارجي؟ لقد رفضوا الأمر بشكلٍ قاطع؛ لأنه يُعدُّ خيانةً لأرضنا.

كنتُ شاردةً بينما أستمع لحديث ماتياس وجازان الذي أصرَّ على البقاء معنا لمحاولة إثبات لنا أن ما فعله أخوه بادرةٌ عن حسن نية،

وليست مكيدةً ما، فقلت لهم:

- أنا من سأفنع السكان بحمل السلاح.

كلاهما نظرا إليّ بحيرةٍ واستغراب، وسألني ماتياس:

- كيف ستفعلين ذلك؟

- ثق بي، سوف أجنّد الجميع، من أصغر فردٍ لأكبرهم.

تلك الليلة، رأيتُ في حلمي أنني أحمل الخنجر الذي قدّمه لي شيرفين
يقطر دمًا، وتحت قدمي عدة جثث مقطوعة الرأس.

اتضح لنا لاحقًا أن كلام جازان كان صحيحًا، ففي اليوم التالي دعانا
السيد هافال إلى مأدبةٍ غداءٍ في قصره الأزرق الجميل على شرف السيد
مانرلوف الذي كان يرتدي بزةً رمادية، وبيده عصا مطعّمة بالعاج
والذهب، يُمكنها أن تدفع العم ماهان لتقديم كل ما يملك لاقتنائها في حال
وقعت عينه عليها.

رحب بنا السيد هافال، وتناولنا الطعام الفاخر الذي لا أعلم كيف
يحصل عليه في هذه الظروف، كان وليام غير موجود، فقط نحن الخمسة،
وماتياس كان يتصرف بحذرٍ بالغ، والشكوك تطغى على كلماته
وتصرفاته.

صوت الضيف أجش وعميق جدًا، أفصح لنا عن رغبته بمساعدتنا في
القيام بانقلابٍ سريعٍ يُنهي هذه المهزلة، وسوف يدفع تكلفة هذا الدعم
بشكلٍ كامل السيد هافال عن طيبٍ خاطر، بمُقابل أن يعود إلى مدينته
دون قيود؛ فهو ممنوع من ممارسة أي نشاطات اقتصادية هنا.

بالتأكيد ماتياس شكك بكلامه، لكنه لم يقل شيئًا، إنما سأله عن
نسبة فشل هذه الخطة.

- سيدي، ما أسوأ احتمال يُمكن أن يحدث؟ نحن لا نستطيع تحمل

خسائر جديدة.

- ليس هناك أي نسبة لاحتمال الفشل يا سيد ماتياس.

قال ذلك السيد هافال بثقة كبيرة:

- نحن لدينا دعم السيد مانرلوف الآن، لا تنسَ أن السيد وليام في فريقنا الآن.

- لكنني أرى أن جميع الطرق مغلقة، وليس أمامنا أي طريق معبّد يُمكننا السير فيه على الأقل.

- سوف نُعبّدُ جميع الطرق الموجودة وغير الموجودة يا سيد ماتياس.

قال ذلك السيد مانرلوف، واستسلم ماتياس، وقال لهم:

- حسنًا، إذا متى علينا البدء في التحرك؟

- الليلة سوف تصل أول شحنة أسلحة، وغدًا الثانية، في يوم المحاكمة علينا مدهامة القصر واقتناص الناجد، لكن حذارٍ إيذاء أو قتل أيٍّ أحدٍ من أعضاء اللجنة العليا، إن حدث ذلك، فسوف نقع بورطة كبيرة.

قال ماتياس:

- لا يا سيدي، نريدُ الناجدَ حيًّا، إنَّ عليه توضيح عدة أمورٍ لشعبنا المنكوب.

- ليس لديَّ أيُّ مانع، افعلوا به ما شئتم، لكن إيّاكم والاقتراب من أعضاء اللجنة.

قبل أن ينتهي اجتماعنا، وبينما أفكر في أفضل طريقةٍ ممكنة لإقناع سكان المدينة بحمل السلاح والدفاع عن أرضهم، جال أمرٌ ما في خاطري، ولم أستطع منع نفسي من التفكير فيه، إن كان أبي صاحب القرار في ظرفنا الآن، ماذا كان سوف يتصرف؟ هل ورثتُ بعضًا من ضعف القلب والخوف منه؟ أم أنني اكتسبتهما خلال حياتي؟! ما الذي تغيّر في داخلي

حتى تشجعت على إقناع أهلي وأصدقائي بهذا أمرٍ جسيم؟ لكن إن كانت هناك طباع وسمات نفسية تنتقل من الآباء إلى الأبناء، فأنا أكادُ أجزم أن ماتياس ورث أحقاد عائلته وحنقها عبر الأجيال على الناجد وأعوانه.

بقيَ جازان في قصرٍ أخيه، وعدتُ برفقة ماتياس إلى الميناء؛ حيث تنتظرني مهمة إقناع السكان بحمل السلاح، وماتياس لم يوفر أيَّ لحظةٍ دون التذمر والتشكيك في التاجر والسيد هافال.

- لا أستطيع يا شيرو تصديق أن هناك أحدًا مقتدرًا، لديه حياةٌ مترفة جدًا يقرر إقحام نفسه فجأةً بورطةٍ كهذه وبمقابلٍ تافهٍ جدًا.

- حتمًا هناك مصالح أخرى لا ندركها، هذا الأمر واضح، لكن كل ما يهمني ألا نكون قد اخترنا طريق الهاوية.

- أجل، أنا أيضًا قلقٌ جدًا، لكن أشعر أنني عاجز، ولا خيار آخر لديّ، فمدينتنا باتت كالكعكة اللذيذة، الجميع يريد تقاسمها.

- هل تظن أننا سوف نحصل على أيِّ جزءٍ من هذه الكعكة؟

- نعم، الجزء العفن يا شيرو!

هراء مُنمَّق

جميع من يتواجد في الميناء هم من الطبقة المتوسطة على أفضل تقدير، مزارعون، عمال، سيدات منزل، صغار كسبة، كيف لي بإقناع وتجنيد هذه الفئات التي لم تحمل عصاً من قبل؟! لكن الأمر هنا حتمي، وعلينا حسم الموضوع بسرعة، فليس هناك أحد غيري يستطيع فعل ذلك، فقد اقترح ماتياس أن يتولى شخصياً المهمة، لكنه سوف يستخدم العنف بالتأكيد.

عند وصولنا إلى الميناء قال ماتياس:

- يا له من مسكين جازان، فقد فوّت على نفسه فرصة رؤيتك كرئيسة عصابة!

طلبتُ من العاملين في الميناء إخبار كل من يتواجد هنا من رجال ونساء أن يجتمعوا، وساعدني ماتياس بإخراج العم ماهان، بعد أن أصرّ بشدة أن يحضر ذلك الاجتماع رغم معرفته التامة بعدم قدرته على المشاركة بما نخطط.

وقفتُ على صندوقٍ لشحن البضائع، وأخبرني ماتياس أنه جاهز للتدخل عند الحاجة، وعند تجمّع عدد لا بأس به من الناس، نظرت إلى أعينهم التي تبوح بالأحزان والهموم وأطلقتُ سراح لساني للتكلم بعفوية:

"يا شعب مدينتي، جميعكم يعرف من أكون، والأكثرية منكم تعرف والدي شخصياً، خلال هذه الأيام العصبية علمتم أن أخي

مافروس بريءً من جميع التُّهم التي وُجِّهَتْ له، لقد خسرتُ والدي، وأمي فقدت بصرها، ولغاية هذا الحدِّ يُمكن اعتبار الأمر شخصيًّا، لكن الآن نحن جميعنا نواجه القدر ذاته، محتجزون هنا في الميناء ومنازلنا مدمرة، وقد اكتشفنا أننا مجرد بيادق وألعاب في أيدي هؤلاء الظلام، أنا أقفُ هنا الآن؛ لأطلب منكم الدفاع عن منازلكم، أرواحكم، أرضكم، وليس أرضهم، إن سمحنا للوضع أن يستمر هكذا، سوف نفقد أنفسنا كما فعلوا واعتقلوا جزءًا كبيرًا منا يوم اندلاع حريق المخبز، واعتقلوا دراويش المدينة لسببٍ غير معلوم، علينا الوقوف بوجه هذا الظلم مهما كلفنا الأمر، سوف نحاربهم بالسلاح والحيلة".

لم أسمع أيَّ كلمة، سكون تام لم أتخيَّله من قبل.

كسر الصمت العم ماهان الذي قال:

- إن أردتم ألا تصبحوا هكذا...

وأشار على نفسه مُكملًا:

- دافعوا عن أنفسكم بالقوة.

لم أكن أعلم أن بضع كلمات من العم ماهان مع ابتسامته الدافئة سوف تترك أثرًا كبيرًا في نفوسهم هكذا، هتف الجميع:

- بالقوة سوف ننتصر!

واستمر ذلك لوقتٍ وجيز من الزمن، ثم قال ماتياس بصوتٍ مرتفع:

- سوف نوفر ما يلزم لدعم موقفنا، سنحتاج ذوي الخبرة في هذا الأمر لتدريب الآخرين، كل من كان يمارس هواية الصيد، أو لديه معلومات عن الأسلحة وكيفية التعامل معها فليخبرني، ليس لدينا وقت كافٍ.. في يوم المحاكمة، أي بعد يوم غد سوف نباشر خطتنا ونفاجئهم.

التفتُ إلى العم ماهان، وقلت له:

- شكرًا لك لتسهيل الأمر عليّ.

- يا ابنتي، الجميع هنا يريد فعل شيءٍ ما، هذا طبيعي، كل فرد هنا تكبد خسائر معينة بسببهم، والحقد ينمو في نفوسهم منذ أمدٍ بعيد.
كان العم ماهان محقًا، لم يكن أمرًا شخصيًا أبدًا، إنه شأن عام يؤثر على ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

في تلك الليلة وصلت أول شحنة من الأسلحة واستلمناها من جازان الذي أحضرها بعربات مملوءة بالمخبوزات الطازجة، والعتاد كان عبارة عن خناجر، بنادق، أدوات حادة، وسهام.

قال ماتياس بينما كان يتفحص الأسلحة:

- ظننتُ أنها سوف تكون بنادق فقط.

- لا، هذا غير ممكن، فقد طلبنا ذلك بشكلٍ عاجل، وهذا ما يملكونه الآن في مستودعاتهم.

أمسكتُ ببندقية، كانت ثقيلة وملمسها ناعم بارد.

- إنها تشبه البندقية التي قُتِل بها أبي!

ضحك جازان:

- إنهم يستوردون من ذات الشخص يا شيرو!

نظر إليه ماتياس، وقال:

- هل تظن أن بكلامك هذا سوف تطمئننا؟ إنه يزيد من شكوكي حول مساعدة هذا الرجل لنا.

- أعلم يا ماتياس، وأنا أيضًا لا أفهم ما الذي يجري، ليلة أمس حاولتُ بشتى الطرق الضغط على أخي وفهم ما يُخطط له، لكنه لم يُفصح لي عن أيِّ شيء، لذا استسلمت في نهاية المطاف، فطلبْتُ منه أن يؤكد لي أن من نتعاون معهم لن يغدروا بنا لاحقًا، وقد أكّد لي هذا.

- على أي حال، ليس لدينا خيار آخر، هيا بنا نوزع هذه الأشياء، ونحاول التدرّب على استخدامها.

تكفّل أحد الأشخاص الذي كان يهوى الصيد بتعليم الشبان كيفية حمل البندقية والرمي، وكان ماتياس يشرح كيف تُستخدم الخناجر بأفضل شكل ممكن، بينما العم ماهان جلس بين الحشد يُلقي نكاته، مهددًا إيّاهم كونه القرصان هنا، لقد بدا لي أنه متصالح مع نفسه أكثر من قبل، ربما لأنه يُبذل جهده في مساعدة شيرفين؛ تكفيرًا عن تخليه عن صديقه دياز بالماضي.

كنتُ جالسةً خارج مكتب والدي، جاءت السيدة التي تطوعت بالاعتناء بوالدتي في غيابي بالإضافة إلى اعتنائها بشادن، وضعت الطفلة في حجري وكانت تُمسك بيد أمي:

- لقد أصرت على الخروج يا شيرو.

- لا بأس سوف أعتني بهما، يمكنك الذهاب الآن، شكرًا جزيلاً لك، لن أنسى معروفك هذا.

جلست أمي بجانبتي ممسكةً يدي:

- شيرو ما الذي يحدث؟ أسمع أشياءً من هنا ومن هناك ولم أفهم أيّ شيء، أين مافروس؟ وشيرفين أيضًا مُحتفي، ومن هذه الطفلة؟

الإجابة عن هذه الأسئلة أصعب من لحظة إلقاء خطاب اليوم.

- ماما، مافروس وشيرفين بخير لا تقلقي، هما فقط موقفان للتحقيق، وبالنسبة عن ماذا يحدث هنا، إننا نخطط لانقلابٍ مُسلح.

شهقت أمي، ووضعت يدها على فمها.

حاولتُ شرح الوضع لها دون التفاصيل المتعلقة بدرب السلام وتلفيق التهم لمافروس وشيرفين، وأخبرتها أنني سوف أشارك بهذه

الخطة في سبيل إعادة مافروس وشيرفين إلينا، والانتقام لوالدي.
كانت ترتجف ولم تُعلق على كلامي بشيء، فهي تعلم بقرارة نفسها،
أن الأمور سوف تؤول إلى هنا عاجلاً أم آجلاً، فقط سألت:
- وماذا عن الطفلة؟

لم أستطع إخفاء أي تفاصيل في هذه القصة، أمي الوحيدة التي
يحق لها معرفة كل شيء عن شادن بالتحديد؛ فهي كانت تتمنى أن يُنجب
مافروس أطفالاً.

لم تغضب عندما قصصتُ عليها من تكون الطفلة، وكيف تعرّف
مافروس على سديم، ذرفتُ دموعاً بشكلٍ لا إرادي وأخذت مني شادن،
وراحت تُغني لها كي تنام، ومنذ تلك اللحظة، شادن وأمّي لا يفترقان.

انقلاب مدبر

أرضُ المدينةِ باتت خاليةً من الجثثِ وجاهزةً لاستقبال المزيد منها، فقد قُمنَا بدفنِ جميع ضحايا حريق المدينة، ودفنا السيد كيران بالقرب من الميناء؛ ليسهل علينا تمييز موضع قبره، خرجنا منذ الصباح الباكر برفقةِ خناجرنا وبنادقنا وأسهمنا، وجزان كان برفقتنا، على الرغم من رفض أخيه السيد هافال مشاركته في الانقلابِ خوفًا عليه، فقد جاء جزان ليلة أمس إلى الميناء بعد أن احتدم الجدل بينه وبين أخيه حول هذا الأمر، لذلك قرر أن يبيت في الميناء؛ ليتحاشى الاصطدام مع أخيه مجددًا.

أُيِّ شعبٍ في العالم يُظنُّ أنه قادر على أن يسيطر أو يمكسك بزمام أمور السلطة، هو موهوم.

انتشرنا حول قصر الناجِد، بعد تقسيمنا لثلاث مجموعات أحاطت ببوابات القصر، لكن قد اتضح لنا لاحقًا أن كل شيءٍ كان مدبرًا، ولا فضل لنا بما سوف يحدث فيما بعد، فورقة الناجِد قد احترقت لدى جهات معينة، ورغبتها بتنحيه أكبر بكثير من رغبتنا، فقد انتهت مصالحهم معه ببساطة، فبعد قرابة المائة عامٍ سوف ينتهي حكم سلالة الناجِد للأبد.

اقتحمنا حديقة القصر وأحطنا البوابات، كنتُ أنا أحمل فقط الخنجر الذي أخذته من شيرفين، وبقيتُ مع المجموعة التي تحمي ظهر المجموعة الأمامية عند بوابة القصر التي اقتحمت المكان، وبمقدمتها الأفراد المتسلحون بأسلحة نارية.

أول شيءٍ لفت نظرنا، أن بعض أفراد اللجنة العليا لم يكونوا

متواجدين، كبير الحرس وليام أيضًا لم أره، بدأ يصرخ القاضي ويهدد، لكن كنا أكثر بكثير منهم، حتى عدد أبناء الناجد الأمناء كان قليلًا جدًا، وبشكل عام لا أحد منا ينوي أذيتهم، في النهاية هم أبناؤنا، لم يحدث أيُّ اشتباك، ولم تدرف أي قطرة دم، فقط حدثت بعض الفوضى، وبعدها تم تطويق المكان.

اشتعل غضب ماتياس:

- أين هم؟ أين البقية؟ هل هذا فخ يا جازان؟!

دخل السيد هافال بكامل أناقته التي لا تتناسب مع هذا الحدث الجلل برفقة كبير الحرس وليام وعدد كبير من أبناء الناجد الأمناء خلفهم، لكنهم يرتدون بزات بيضاء ناصعة!

شلَّ المشهد تفكيرِي، ماتياس أشهر البنديقية التي كان يحملها، صفق السيد هافال، وقال:

- جيد جدًا، أحسنتم يا أبطال، توقعنا رؤية بعض الدماء، لكن هذا انقلاب نظيف جدًا.

أطبق ماتياس ورفاقه على الناجد، اقترب منه السيد وليام، ونظر إليه من أعلى، فقد كان راکعًا، وقال له:

- لقد غدرتُ بك قبل أن تغدر بي، يا صديق دربي.

صرخ الناجد في وجهه:

- أنت وغد حقير!

اعتقلنا الجميع، بما فيهم القاضي الذي كان يبدو وكأنه مجرم هارب من العدالة، وليس عضوًا في لجنة أمنية؛ حيث تم تقييدهم وزجهم في إحدى الحجرات التي تخلو من النوافذ. وذهبتُ برفقة جازان لإطلاق سراح مافروس وشيرفين، وعندما رأني شيرفين أحمل الخنجر قال "تبدین

جميلة جداً بهذه الهيئة يا مُنقذتي!"، وعانقني.

أما مافروس فقد كان بحالة ذهنية جيدة، وطلب منا البحث في جميع أرجاء القصر على أيِّ دلائل أو وثائق تدين حكومة الناجد، وقال لنا:
- علينا شحذ الهمم، نحن لا نضمن ما الذي ينتظرنا.

تكفّل جازان بإخبار شيرفين ومافروس بمختصرٍ عن الأحداث التي جرت، وعن تدخل السيد مانرلوف، هذا ما لم يعجب شيرفين، فهو يعلم أنه من الأشخاص المتلونين -حسب لون السلطة- الساعين وراء مصالحهم الذاتية الآتية، فلا يهتمهم الحق من الباطل، فالأمر عندهم سيان، مانرلوف يُمثّل بوضوح تحالف رأس المال مع السلطة السياسية، بعيداً عن فائدة المجتمع من هذا التحالف من عدمه، ولعلنا كنا محظوظين؛ لأن رغبتنا بالانقلاب على الناجد، توافقت مع تلاشي مصلحته مع الناجد وأقول نجمه.

انتشر الجميع في أرجاء القصر الفخم القائم على عدة أعمدة رخامية فائقة الجمال، وفي السقف أضواء مثبتة بمختلف الأشكال تصلح لأن تكون في مركز حفلات صاخبة، كان القصر يحتوي على حُجَرٍ كثيرة جداً، وفي السرداب وجدنا الزنازين المظلمة.

رائحة المكان كانت لا تُطاق، رائحة عفونة ودماء مخثرة، في تلك الزنازين وجدنا جميع دراويش المدينة الذين لم يفهموا ماذا جرى وأين هم، ومعهم سكان المدينة الذين أُعتقلوا في يوم حريق المخبز، الجميع كان بحالة لا بأس بها، قال لهم شيرفين عندما فتحنا بوابة الزنزانة:

- عليكم شكر اللجنة العليا لإشغال الناجد عنكم في أيام اعتقالكم، وإلا كنتم قد واجهتم مصيراً آخر.

مافروس توجه إلى حجرة واحدة بالتحديد، حجرة سديم التي أمضى فيها عدة ليالٍ في أحضانها، دخل إليها، وجمع كل شيء وقعت عليه عيناه،

أقلام، أوراق، ملابس، شعر متساقط على الأرضية، كل شيء دون استثناء، لم يبك، كان قويًا صامدًا أمام هذا الحزن الكبير، لمحتُ رسالتي الوحيدة التي وصلت لها بين حاجياتها، وضعتُ يدي على كتفه وقلتُ له:

- لم أكن أتخيل أنني لن أحظى حتى بالتعرف عليها أو رؤيتها على الأقل، حتى أنني لا أعلم أين ترقد الآن لنقوم بزيارتها، جل ما قالوه أنهم سوف يدفنونها بالقرب من القصر.

التفت إليّ، وقال:

- لا يوجد مكان آخر ممكن أن تُدفن فيه إلا هذه الحجرة، عليّ البحث هنا!

طلب من أحد الشبان إحضار أداة للحفر، وبدأ يحفر في جميع أرجاء الحجرة، لعله يصطدم بشيء يدل على موضعها، بالفعل بعد فترة وجيزة وجد رفاتها بالقرب من نافذة الحجرة التي تطل على الباحة الخلفية للقصر، ذلك المكان الذي رآها فيه أول مرة، ركع بجانبها؛ حيث كانت ترقد في تابوت خشبي متواضع جدًا، فضغطتُ على يده وهمست:

- حبيبي، أرجوك دعها تستريح، لا تُحاول إزعاجها، لقد تملّكني الخوف من أن يُقدم على فتح التابوت، وتتجدد آلامه التي لم ولن تشفى.

- أريد نقلها لمكانٍ قريبٍ مني، لن أدعها هنا في هذا المكان الموحش الكئيب.

عندما انتهينا من تفتيش الأقسام الرئيسية في القصر، لم نجد أي وثائق تدين الناجد، قال وليام ببرود تام:

- لقد أتلّفنا كل شيء.

ماتياس لم يكن مطمئنًا لوليام، شاركه في شعوره هذا مافروس الذي اصطدم به في بهو القصر بينما كان ينقل رفات سديم برفقة بعض الشبان؛ ليدفنها في مكانٍ آخر، حين لمح وليام قال بصوتٍ مرتفع:

- انظروا، إنه البطل مافروس، علينا تشييد تمثالاً في ساحة المدينة
تمجيّداً له، المُتمرد البطل.

أجاب مافروس بنظراته الحادة فقط، وذهب لإكمال مهمته.

كان وليام والسيد هافال يتجادلان حول ماذا علينا فعله في الأيام
القادمة، هناك عدة أمور يجب البتّ فيها، دستور المدينة، الحكم والنفوذ،
ومحاكمة الناجد.

أفصح لنا هافال بعد أن سأله شيرفين عن سبب اعتقال بعض أعضاء
اللجنة قائلاً ببساطة:

- لقد تلقينا أوامر عليا بتصفية بعض الأسماء، بالإضافة إلى من
يرغبون في الإبقاء عليهم، لذلك أخرجناهم من المدينة ليلة أمس.
سأله شيرفين:

- إن كان هذا امتثال لأوامر عليا، فلماذا ورطتم الشعب في هذا الأمر؟
اقترب السيد هافال من شيرفين:

- عزيزي، هذه أمور لن تفهمها، تنفيذ أوامر السلطات العليا من
خلال الشعب، حركة مثالية لتفادي أي شبهات حول تحقيق مصالح
شخصية في عالم السياسة.. ببساطة، العالم الخارجي الآن سوف يصله
الخبر كالتالي "الشعب أراد التمرد، وفعل".

في تلك اللحظة، حصل شيء لم نُكن نتوقعه أبداً.

مقبرة القصر

دخل جازان إلى بهو القصر مسرعاً مضطرباً:

- يا رفاق عليكم رؤية شيء ما.

خرجنا إلى الباحة الخلفية للقصر؛ حيث كانت المجموعة الثالثة متربصة هناك لمنع هروب أي أحد من البوابة الخلفية، كان هناك ثلاثة شبان يرتجفون، ويظهر جلياً الخوف على ملامحهم، قال جازان بتلعثم:

- لقد أخبروني أنهم أرادوا الحفر هنا قليلاً للتحقق من الإشاعة التي انتشرت سابقاً أن القصر مشيد فوق بعض الجثث، ووجدوها بالفعل.

تبادلنا النظرات أنا وشيرفين، الذي لم يستطع كبح نفسه، فضحك بصوتٍ مرتفع جداً جاذباً أنظار جميع المتواجدين إلينا:

- لقد كان مجرد تخمينٍ يا رفاق!

التفت إليه الجميع مستفسرين:

- ماذا تقصد؟

كان شارداً وقال بلامبالاة:

- أجل، أنا من كنتُ أنشر الشائعات، بعضها حقائقُ أعرفها جيداً ومتأكدٌ من صحتها، والبعض الآخر مجرد تخمينات، كهذه الشائعة، قصرٌ مشيد على جثثكم، يا إلهي هذا الوغد يستطيع جعل أسوأ أحلامي واقعاً.

تجهّم ماتياس وجازان، أما السيد هافال فابتسم قائلاً:

- يا لك من ماكر خبيث! لكن هذه الصفة فيك تعجبني.
وليام اقترب من شيرفين، وهمس له متقصداً أن يُسمعي ما يقول:
- إذا أنت من دخل منزل العرّاف وأهلكته، أليس كذلك يا صديقي؟
لم يجب شيرفين، ابتسم فقط.

في هذه الأثناء كان الجميع يحفر هنا وهناك، تظهر يد، قدم، بعض
الجثث بملابس أبناء الناجد، بعضها عارية، مع الكثير من المشاهد التي لم
أُكن أراها حتى في أحلك كوابيسي.

تعاضم غضب الناس، تهاجموا على وليام الذي أسقطه ماتياس أرضاً،
بينما يصرخ في وجهه:

- أنت شيطان أخرس ذليل! كنت تنفذ كل أوامره دون أن تعترض.
بدأ يصيح كالنمر الجريح:

- لم أكن أعلم بوجودهم هنا، أنا لا أعلم، دعني وشأني.
أبعده جازان وشيرفين:

- مهلاً يا ماتياس، سوف نفهم كل شيء من زعيم العصاة نفسه.

في تلك الليلة، تكفل البعض بحراسة الناجد وأعضاء اللجنة الذين تقرر
ترحيلهم للمدينة الشرقية؛ حيث سوف يُحاكمون هناك، فقد كانوا متورطين
مع الناجد، أو هذا ما وصل إلينا، لا نعلم إن كانت هذه هي الحقيقة أم لا، أما
أغلب السكان فقد انشغلوا بالحفر في الحديقة الخلفية للقصر، فقد تعرّف
البعض على ذويهم، وقرروا دفنهم في المدافن المخصصة لكل عائلة.

أما أنا وشيرفين وأخي، فقد عدنا إلى الميناء، بعد أن دُفنت سديم
بالقرب من مقبرة عائلتنا بناءً على رغبة مافروس الذي سوف يُقابل
والدتي لأول مرة بعد غياب سبعة أشهر، حاملاً همومه وأحزانه وندمه
فوق كاهليه.

قبل أن نصل للميناء شرحتُ لهم حالة العم ماهان الصحية بشكلٍ مُفصّل، وعندما سألني مافروس عن حال والدتي، تلعثمت.

- والدتنا يا مافروس فقدت بصرها، أصبحت عمياء.

لكلِّ منا طريقته في إظهار عواطفه ومشاعره، ومافروس منذ نعومة أظفاره لم يَكُن يُظهر عواطفه بسهولة، لا يمكن استجداء شفقتة أو الشعور بحنانه بشكل ملموس أو واضح حتى مع والدتي، منذ أن أفصح لي عن علاقته بسديم كنت أحاول دائمًا أن أتخيل شخصية مافروس العاطفية التي يُمكن أن أتعرف عليها من خلال تواجده مع سديم، وتمنيّت لو استطعتُ رؤيتهما معًا واكتشاف هذا الجانب من أخي الصغير، فأنا ما زلتُ أذكر عندما تعرضت والدتي لوعكة صحية قوية في صغري، جلستُ أذرف الدمع بجانبها، فأنا أُعبرُ عن مشاعري بالدموع، وبالكلمات مؤخرًا، أما مافروس بقيَ رابط الجأش، وذهب ليطلب المساعدة من الجيران، وهو من ذهب مع والدي للعرّاف حينها، إن أعظم المواقف التي رأيتُ فيها عاطفة مافروس واضحة جلية كانت حين طرحتُ عليه فكرة السفر ونسيان أمر سديم، والآن عندما رأى أمي.

عندما وصلنا لمكتب والدي، كانت أمي تتلمس وجه شادن النائمة في حجرها، وكأنما هناك رابطٌ خفي بين مافروس وأمي، التفتت إليه قبل أن يصل بالقرب منها، لقد اشتمت رائحته، وحدها أخبرها بوجوده، انهار تمامًا وجثًا أمامها، كان ينتحب بصمتٍ منذ أن أخبرته بما جرى، أخذتُ شادن من أمي، ووضعتُ يدها على رأسه، أخذ يدها وراح يُقبّلها بقوة، ويقول:

- أنا السبب يا ماما سامحيني، اصفحني عمّا سببته لكم من ألم.

أمي بدورها كانت تبكي، وتقول له:

- لا بأس يا حبيبي لا بأس، أنا أراك بقلبي.

ركع شيرفين جانب أخي المفجوع، ودفن وجهه بين كفيه، وغرق
بدموع الحسرة والندم، قالت والدتي:

- عزيزي شيرفين أنت هنا أيضًا، اقترب مني، أما أنا فلم أحتمل
المشهد، وخرجتُ من المكتب.

في تلك الليلة، جافى النوم شادن وأنا، وكنتُ جالسةً على رصيف الميناء
أراقب البحر الذي بدا لي كئيبيًا جدًّا، تبعني شيرفين وعانقنا أنا وشادن،
وقال لي:

- لقد افتقدتُ أمي وأخواتي، هل تعلمين يا شيرو، والدتي مختلفة
عن والدتك تمامًا، إنها قوية جبارة، ولا تُظهر مشاعرها أبدًا، فقد عاشت
في ظروف أجبرتها على تحمل مسؤولية كبيرة، أبي كان دائم السفر، غيابه
سبب فجوة كبيرة في عائلتنا، والآن أنا هنا، وربما لن أستطيع رؤيتهم
مجددًا، لا أذكر أنني رأيتها تبكي سابقًا، بكاء والدتك اليوم كسر قلبي، يا
ليتنى أنا من فقدتُ بصري وليس هي، إنها تعوضني عن حنان والدتي
الذي افتقدته طيلة حياتي.

عانقته بدوري، وراحت شادن تلعب بخصلات شعره.

أخذ شادن إلى حجره، وقال لي:

- كنتُ أود أن أقدمكِ لعائلتي، وأقول لهم هذه الفتاة التي سأكلم
معها حياتي، وأسبب لها متاعب أكثر.

- لم تُسبب لي أي متاعب، لا تدع هذه الفكرة تُسيطر عليك، لقد رأيتُ
أن ما حصل كان مخططًا له، ولولا تدخلك، لربما كنتُ قد خسرت
مافروس أيضًا، لا أحد هنا يحملك ذنب شيء، ما حدث قد حدث وانتهى
الآن، ومنذ البداية ساندتُك بكامل إرادتي.

في اليوم التالي، عزم الجميع على الخروج إلى المدينة، بعض الأفراد،
وبالأخص كبار السن، لم يهتموا بحضور محاكمة الناجد، فقد قالوا لنا:

- إن سماعه لن يزيدنا إلا بؤساً، نحن ننوي فقط ترميم وإعادة إعمار منازلنا لنعيش بسلام، لا نريد أكثر من هذا، ولا نهتم بما سيقوله ذلك العجوز.

أُقدّر موقفهم، يكفيهم ما عاشوه من آلام ومأس، لكن في ذات الوقت لم أستطع مقاومة رغبتي برؤيته مذلولاً، وبالتأكيد أرغب في سماع الحقيقة كاملة، تاريخ مدينتنا بأكمله.

لم يُعارضهم ماتياس:

- لا بأس، الجميع أحرار، يمكنكم الذهاب أينما شئتم، لكن أخبروا بعضكم البعض أن اليوم سوف تتم محاكمة الناجد لمن يود الحضور في محكمة الشعب علناً.

بعد يوم اقتحام القصر، بقيت مجموعة كبيرة هناك لحراسة الناجد، السيد مانرلوف غادر برفقة السيد هافال وأخيه جازان اللذين استضافاه في قصرهما، وليام قال أنه يملك منزلاً في الغابة سوف يمكث فيه ريثما تهدأ الأمور، ولا يريد حضور محاكمة الناجد، وبالنسبة إلى أعضاء اللجنة المعتقلين، فقد تولى أمر إعادتهم السيد هافال إلى المدينة الشرقية للبت في أمرهم.

خرجنا جميعاً من الميناء، بما فينا والدتي التي كانت ملازمة لمافروس أو بالأحرى، مافروس من كان ملتصقاً بها تماماً، والبعض منا بدأ بأعمال الترميم وإعادة البناء.

وصلنا إلى محكمة الشعب؛ حيث كان ماتياس قد جلب الناجد إلى ساحة المدينة بثوبه الأبيض الملطخ بالرمال والدماء المنتشرة في شوارع وأزقة المدينة، كان مصفد اليدين والقدمين ومطأطأ الرأس، أظن أن الجميع قد راوده شعوري ذاته، لأول مرة أشعر أنه ضئيل الجسد وذو هيئة مهانة وقبيح، قبيح جداً.

أمره ماتياس أن يجثو أرضاً:

- اسمع يا صاحب المقام الذليل، لقد جرّمتَ في هذا المكان ذاته المئات من أبناء شعبك، وكنت السبب في عذابهم الأبدي، لكننا لسنا مجرمين مثلك، للأسف لم تفلح تربيتك لنا، ونريد فقط معرفة كل شيء وسماع الحقيقة كاملة، تكلم، وأعدك ألا يقاطعك أحد، وبالمقابل سوف أمنحك حرية اختيار طريقة موتك.

الفصل الثاني

"التاريخ سرُّ كاذب لأحداث معظمها غير مهمة، صنعها حكام معظمهم من المحتالين، وأتباع معظمهم من الأغبياء".

- أمبروز بيرس، كاتب وصحفي أمريكي.

تاريخ المدينة

هذه الأرض كانت آخر مدينة يتم ترسيم حدودها بين المدن المتجاورة، فقد كان البحر يغمرها من الغرب، ومن الشمال تستحوذ عليها الغابة الشاسعة التي قطعها الحدود مناصفة بين مدينتنا والمدينة الشمالية، وسلسلة الجبال التي تفصلنا عن المدينة الشرقية، والخلاء الذي نتقاسمه مع المدينة الجنوبية، فقد كانت كل مدينة منهم تحاول ضم الأراضي المجاورة لها تحت سيادتها لتوسيع نفوذها وسيطرتها، باستثناء البحر الذي كان عبر السنين يهرب منا، يتراجع للخلف أكثر فأكثر؛ ليُتيح لنا مساحةً أكبر للعيش، البحر الذي يُشبه سكان هذه المدينة بعمقه وقوته وغدره.

عائلتي تملّكت مقاليد الحكم؛ لأن جدي الأول كان من اكتشف وجود مناجم الفحم على الحدود الشمالية بعد ترسيم واعتماد الحدود بفترة وجيزة، ما خلق أزمة بين المدينتين؛ حيث ادعت المدينة الشمالية أحقيتها بملكية هذه المناجم، فنشب خلاف بين القبائل الحدودية في ذاك الوقت، ما استدعى جدي للمبادرة في تقديم حل فوري، طلب تحكيم طرف ثالث في هذا الشأن، كانت هذه بداية تدخل المدينة الشرقية بشؤون المدن المتجاورة، فقاموا بتشكيل اللجنة الأمنية العليا للبت في هكذا قضايا لاحقاً.

تم الإقرار بتقسيم المناجم بين المدينتين، وبدأت القبائل والسكان من كلا المدينتين تعمل على حدة، وبسبب قوة ونفوذ وأقدمية المدينة الشمالية في التجارة، فقد حققت ازدهاراً كبيراً من خلال أعمال تلك المناجم، فتعامل جميع التجار مع المدينة الشمالية فقط، ما أدى إلى استسلام

شعب مدينتنا، والتوقف عن العمل في المناجم، والتوجه إلى قطاع الزراعة والتجارة البسيطة والصيد.

جدي الأول لم يوافق على هذا الرضوخ الذليل والتخلي عن حقنا بهذه السهولة، لذلك لجأ إلى عقد اتفاق مع المدينة الشمالية، فعرض عليهم الاستيلاء بشكلٍ سري بينه وبينهم على ملكية جميع المناجم، مقابل أن يتفرد لوحده بجزء من الأرباح التي يحصدونها.

وافقوا على العرض مقابل أن تتوافر لهم عمالة تكفي لتغطية هذا الحجم من الأعمال، من هنا جاءت فكرة درب السلام الذي يوحي أنه مكان لإعادة تأهيل المذنبين، لكنه حلقة وصل لتوفير عمال للمناجم بأقل تكاليف ممكنة، رويدًا رويدًا بات كل من يعمل في المناجم من سكان هذه المدينة، وكل المناجم مملوكة لحكومة المدينة الشمالية.

قبل أن يشرع جدي بتنفيذ خطته طلب من المدينة الشمالية مدّه بالدعم؛ ليكون صاحب القرار في هذه المدينة، وبدأ سكان المدينة بالالتفاف حوله بعد إغرائهم بالنقود، كان يشتري ولاءهم واحترامهم له، دشّن طرق التجارة البرية، ودعم قطاع الزراعة؛ وليضمن تقديسه في نفوس العامة، خرج عليهم بأكاذيب جعلت منهم أتباعًا خاضعين مغيبين.

في يوم من الأيام، خرج جدي إلى ما يُسمى الآن بساحة المدينة مرتديًا ثوبًا طويلًا أبيض، طلب من السكان التجمع حوله، فقد راوده حلم غريب يود أن يقصّه عليهم، قال لهم:

- لقد رأيتُ حلمًا، لا أعلم إن كان نذير شؤمٍ أم خير، رأيتُ أن المدينة الشمالية قد احتلت مدينتنا وحاولت سلب أرضنا، لكنني حاربْتُ هؤلاء الأشرار بنفسِي، وكلما قتلتُ فردًا منهم، نزف دمًا أبيض.

بعد عدة أيام، جلب شهودًا من المدينة الشمالية ادّعوا أمام الجميع أن جدي الأول قد اشتبك مع أحد أفراد المدينة الشمالية على الحدود، لكن

جدي استطاع الانتصار عليه وقتله، وقد نرف دمًا أبيض، دُهِش الجميع لهذا القول، وذهبوا لرؤية جدي عند الحدود، بالفعل وجدوه ملقى على الأرض، كانت دماؤه تسيل من جسده الجريح، يقبض على خنجرٍ حاد في يده يقطر منه الدم الأبيض، قال لهم:

- لقد قتلته بيديّ هاتين، إن الحل في السلام فقط، السلام فقط لا غير.

منذ تلك اللحظة سيطر جدي على عقولهم بالخرافات والترهات التي نورثها ونرّج لها عن اللون الأبيض؛ تحاشيًا لأي محاولات تمرد أو كشف للحقيقة، تلك الكذبة التافهة غير المنطقية كانت تجربة بسيطة لتحري مدى إمكانية التلاعب بعقول الناس، وقد نجحت بشكلٍ لا يُصدق، منذ تلك اللحظة علم جدي أن أي كذبة تُقدّم على طبق من العواطف، وتُغلف بهالة من الإيمان والتقديس، تغدو حقيقة مُسلمة لأجيالٍ قادمة.

منذ ذلك الحين، تم اعتماد مكان ذلك الاشتباك لتشبيد درب السلام بسواعد سكان هذه المدينة، بعد أن أقنعهم جدي بسهولة تامة بضرورة إحلال الأمن في المدينة من خلال التهيب وليس العقاب؛ فبعد تلك الحادثة بات جدي الصادق المصدوق صاحب الآراء الراجحة، وأيضًا بأيديهم بنوا ذلك المبنى آخر الدرب لغرض إعادة تأهيل المذنبين.

استغل جدي كل شيءٍ لمصلحته، بعد أن بيّن لهم أن الأبيض لون ملعون، تنعم بأرباح تجارة الألبان ومشتقاتها.

الهالة التي تحيطه من قدسية وألوهية ورّثها لنا فردًا فردًا على التوالي، مع الزمن بدأت الأحداث الأصلية تتداخل وتتغير، مثل قصة كتيبة جيش المدينة الحمراء ذات الدماء البيضاء، التي أشيعت بنفس الطريقة خلال فترة العداء القائم بين المدينة الجنوبية ومدينتنا؛ لإثارة غضب الشعب أكثر، وتخويفهم مما يوجد خارج هذه المدينة.

جميع القوانين التي سُنَّت فيما بعد كانت لغرض إخضاع الشعب وعدم السماح له بالتفكير خارج الحدود العقلية التي نرسمها له، كما فعلنا مع الحدود السياسية وعزلنا أنفسنا عن العالم الخارجي، إن كذبة واحدة تُصاغ بشكلٍ يوازي مستوى تفكير بعض العقول قد تصبح مع الزمن عقيدة، مهما كانت هشة أو غير منطقية.

بالإضافة إلى قيام جدي النَّاجِد السابق بتشييد الميناء الشمالي، واتباع جميع من حكم قبلي ذات الاتفاقيات والرضوخ لها، فقد كنا نرسل المذنبين للعمل في المناجم بعد تعذيبهم أشد عذاب وسحق شخصيتهم، وبالنسبة إلى الحفرة هناك، فهي حديثة العهد، فبعد توطيد العلاقات بيننا وبين المدينة الشمالية اقترحوا أن نوسِّع أعمالنا لتشمل تجارة الأعضاء؛ فهي مُربحة جدًا ومغرية.

كنا حذرين جدًا، تخلصنا من جميع من كانت له صلة بأعمالنا حتى لو كان صديقًا، كما فعلنا مع القبطان دياز، وبمناسبة الحديث عن دياز، جثته دُفنت هنا، فقد وضعنا في التابوت الذي أرسلناه إلى عائلته جثة شخصٍ آخر فارق الحياة غرقًا، لكن قمنا بتشويه وجهه قليلًا تحسبًا في حال طلب ذويه الكشف عن الجثة.

أما جد ماتياس تاجر الأسمدة؛ فقد راودته بعض الشكوك حول علاقتنا بالمدينة الشمالية، فتمَّ الحدُّ من نفوذه وتحجيمه، ثم أقصينا كل العائلات المرشحة لمنافستنا، إما بشكلٍ لطيف أو بشكلٍ قسري لنضمن استمرارية حكمنا، حاولنا بشتى الطرق إبعاد العائلات التي تنمو رويدًا رويدًا، وتستحوذ على بعض النفوذ كما فعلنا وأبعدنا عائلة مانرلوف خارج المدينة بتهمة مشينة.

وليام الخائن كان ينفذ كل أوامري في عهدي، وكان هناك دائمًا أحدٌ على شاكلته يُنفذ الأوامر، ويُطخ يديه بالدماء بدلًا عنا، كان المسؤول عن كل علاقاتنا بالمدن المجاورة، وعن سائر المكائد والألاعيب التي نتجاذب

أطرافها مع حلفائنا.

من خلال الميناء الشمالي، كان يتم تزويد عراقي المدينة بمركبات كيميائية تُصنع في مختبرات المدينة الشمالية؛ حيث تتم تجربة فعاليتها على الدراويش، فالعزّاف كان يُقدّم مادة تُتلف الدماغ؛ ليحوّل العاقل إلى درويش؛ ليتسنى له إكمال تجاربه على أجسادهم فيما بعد دون أي أدنى مقاومة منهم. جميع الجثث المدفونة تحت القصر، هي جثث الدراويش الذين لم يتحملوا هذه العقاقير، وفارقوا الحياة خلال التجارب، بالإضافة إلى بعض المتمردين المعارضين لسياسة الحكم؛ حيث كنا نقبض عليهم بالخفاء بهدوء تام.

لم يتحمل أحدُ العامة هذا الكلام، وسط صدمة الجميع، بما فيهم الحراس، فانقض على الناجد بخنجره وقتله، وسالت منه دماءً جميع من قتلهم على أرض مدينتنا المباركة.

الفصل الثالث

"التسامح واللامبالاة، هما الفضيلتان الأخيرتان لأبي مجتمعٍ يحتضر".

- أرسطو، فيلسوف يوناني.

السيادة

مع انهيار الشاب الذي قتل الناجد عمّ التوتر والاضطراب، وبعد اعتراف الناجد بتلك الحقائق المجهولة بات الجميع في حيرةٍ وذهول، لقد رأيتُ في أعين الجميع خيبة الأمل، فقد تبين لهم أنهم خُدعوا طيلة هذه السنين التي أمضوها في وهم كبير، وانهيار هذا الوهم المقدس بشكلٍ كامل دفعة واحدة قد سبب صدمةً كبيرة، فقد كان وقع هذا الكلام على العقول كالموج الذي يضرب سواحل مدينتنا.

ذلك الشاب الذي قتل الناجد انخرط في موجة بكاءٍ وعويل، والدماء تغطي كفيه، أما ماتياس فقد كان جالساً أمام الجثة ويضع رأسه بين يديه، كنتُ أرتجف بجانب شيرفين شارد الذهن.

قال السيد هافال الذي جاء برفقة مانرلوف وجازان:

- عجيب..! لماذا كل هذا الحزن؟ ها قد حصل ما نريده، لماذا أنت محبط يا سيد ماتياس؟

نظر إليه ماتياس بعينين تخلوان من الحياة:

- أنت لا تفهم شيئاً!

- هذه مبالغة سيد ماتياس.

قالها مانرلوف الذي كان لا يبذل أي جهد في إخفاء شماتته بالوضع

الراهن:

- عليك الوقوف على قدميك، فأنت ممن نعول عليهم قيادة هذا

الشعب، ألا تريد السلطة والنفوذ والقوة؟ أنت مناسب جداً لهذا المنصب، والجميع سوف يدعمك.

قال ماتياس بغضب عارم:

- هنيئاً لكم، تقاسموها هيئاً.

وبدأ يصفق استهزاءً بهم.

- أنا لن أكون جزءاً من هذه اللعبة القذرة، سوف أملك أشلائي، فأنا أشعر أنني تحطمت من الداخل، سأصطحب عائلتي إلى خارج هذا المكان المشؤوم.

وهمَّ يريد المغادرة.

- هل نسيت حظر السفر المُقام ضدكم الآن يا سيد ماتياس؟

- أنا لا أهتم يا هذا! حظر سفر! وها أنت قد دخلت المدينة وأخرجتم أعضاء اللجنة أيضاً بعد ذلك القرار اللعين! سوف أغادر! برّاً.. بحرّاً سوف أغادر!

وخرج من ساحة المدينة يشتم ويلعن.

همس السيد هافال لجازان:

- اذهب خلفه، لا يمكننا أن ندعه يغادر.

قال مانرلوف:

- يا سادة ما بكم؟ لقد تخلصنا من هذا الوغد، وعلينا تعيين شخص يُمسك بزمام الأمور من بينكم! عليكم المشاركة بالاختيار وتقرير مصيركم.

حينذاك سمعتُ أحدهم يقول:

- ماذا؟! نأجد جديداً؟

أكمل مانرلوف:

- ما رأيك بهذا يا سيد شيرفين؟

لم يُكن شيرفين في وضعٍ يسمح له أن يقول شيئاً، لم يجب؛ بل أجابت والدتي بدلاً عنه:

- يا سيدي أنت تبدو غريباً عن مدينتنا، هل يمكنك أن تدع أولادي وشأنهم الآن؟ فهم مشتتون ولن يستطيعوا أن يُقدموا إجابةً لأسئلتك الملحة، هل يُمكنك تأجيل حفل التنصيب لعدة أيام؟ ريثما تستقر قلوبنا.

زَمَّ شفثيه مانرلوف ولم يعجبه كلام والدتي، لكن السيد هافال تدخل بلطف وقال:

- إن تلك السيدة على الحق، الوضع الآن غير مستقر، لنعقد اجتماعاً في منزلي إن شئتم بأقرب وقت ممكن لمناقشة الأمر بشكلٍ حضاري، من هذه اللحظة، ولحين تقرير من سوف يكون في منصب صنع القرار، على الجميع البدء بترميم وإعادة تعمير المدينة؛ لنعود إلى منازلنا، أعدكم أن منزلي سيبقى مفتوحاً لكم لأي مساعدة، سوف نمدّ الجميع بالطعام المجاني خلال هذه الفترة إلى حين استقرار الأوضاع وعودة الحياة إلى مسارها الصحيح، وأدعو جميع التجار إلى فتح مستودعاتهم للعامة في هذه الأيام؛ لتغطية احتياجاتهم من طعام وشراب، وبالتأكيد سوف نعوض كل هذه الخسائر يداً بيد فيما بعد.

عادت أمي إلى الميناء برفقة مافروس والعم ماهان الذي أنهكه ما حدث، أبدى شيرفين رغبته بالتسكع قليلاً، فذهبتُ برفقته ومشينا حول المدينة كما كنا نفعل بالسابق، لكنه بقي صامتاً شاردًا، وعند حلول المساء جلسنا في منطقة الوادي المهجورة خلف الميناء بعد أن تعبنا من التجوال.

- أين يُمكن أن يكون والدي الآن؟ إنها سخرية القدر أن أتواجد في نفس المكان الذي دُفن فيه أبي، ولا أعلم أين يرقد.

- علينا سؤال وليام، لقد قال ذلك الوغد أنه كان يقوم بجميع هذه الأعمال.

- نعم، عندما أراه سوف أسأله، هيّا بنا نعود إلى الميناء.

عندما نزلنا من الوادي لمحنا جازان يمشي مسرعاً باتجاه الجنوب:

- جازان! ماذا حصل؟

- آه شيرفين..

جاء مقطوع الأنفاس إلينا:

- لم أفلح بإقناع ماتياس بعدم السفر، لقد ذهب للميناء لتوديعكم، وأنا ذاهبٌ لإخبار أخي هافال.

- لا داعٍ لذلك، تعالَ معنا إلى الميناء سوف نحاول إقناعه، هيّا يا صديقي.

عانقه، ومشياً أمامي.

- سوف نبذل جهدنا، وإن فشلنا يمكنك استدعاء قوات الأمن الخاصة بالسيد هافال.

لغاية الآن لا أستطيع فهم تقلبات مزاج شيرفين، يُمكنه أن ينتقل من قمة البؤس والإحباط إلى اللامبالاة أو قمة السعادة، إنه مرن ومريب جداً.

وصلنا إلى الميناء، ووجدنا ماتياس في مكتب أبي يتوسط العم ماهان ومافروس وشادن تلعب أمام والدتي، وقد شرع بالفعل مافروس بعملية إقناع ماتياس بعدم المغادرة، فقد أصبح أخي عاطفياً جداً في هذه الأيام.

- ماتياس، أنا لا أعرفك منذ زمن لكنني مدينٌ لك بالكثير، لا ترحل، فقد خسرتُ ما يكفي من أحبائي، ماذا ستفعل في الخارج وسط أناس تراك شخصاً إرهابياً وغير مرحب بك بينهم، إن سُمعنا الآن خارج حدود هذا المكان سيئة جداً، لن نستطيع تأسيس عمل أو عائلة.. ابقَ هنا،

وتجاهل وجود أولئك الأوغاد، إنهم يريدون اقتسام السلطة، لكن الأرض لنا، هل تعلم أن والدتي دافعت عنك اليوم؟ إنها تعتبرك بمثابة ابنها.. أرجوك ابق، ألا تريد مشاركتنا بتربية شادن؟

نظر شيرفين بازدراء إلى جازان، وقال له:

- بأيّ طريقة حاولت إقناعه ولم تفلح؟ انظر إلى مافروس كيف يتلاعب بعواطفه.

في النهاية رَقَّ قلب ماتياس بعد كلام مافروس، وقرر البقاء، لكنه صرح أمامنا أنه لا يريد التدخل بأي شيء يخص السلطة أو الحكم بعد الآن.

لم يَفِ السيد هافال بوعدته بإمهالنا بضعة أيام، في تلك الليلة أرسل لنا مع أحدهم أنه يود عقد اجتماع طارئ في منزله غدًا صباحًا، بوجودي، شيرفين، ماتياس، ومافروس.

اجتماع طارئ

رفض ماتياس بشكل قاطع حضور الاجتماع رغم محاولات جازان الخرقاء إقناعه بذلك، فهو لم يُغير رأيه البتة، وبعد أن غادر جازان، وخلدت أمي إلى النوم برفقة شادن، جلسنا نحن الأربعة على رصيف الميناء.

قال ماتياس:

- عليكم الحذر من هافال ذاك، لا تجعلوا مظهره الأنيق وكلامه اللطيف يسيطران على عقولكم، هو خبيث عكس أخيه جازان، فهو أخرق تمامًا.

- أتفقُ معك.

قال ذلك مافروس.

- لكن علينا مواجهته لمعرفة ماذا يخطط، علينا مجاراته.

التفت إلى شيرفين، وقال له:

- صديقي العزيز، أنا آسف لما سمعته اليوم عن والدك.

ابتسم شيرفين، وشدَّ على يده، وقال ممازحًا:

- ربما أنا أيضًا سوف أدفن هنا.

مافروس سأل ماتياس:

- لماذا لا تُريد أن تتقلد منصبًا في السلطة؟ أنت أكبر المرشحين،

ناهيك عن كونك فردًا من الشعب، إنك خيار جيد جدًا لنا .

- لا يا مافروس لا أريد، لا أضمن بأيّ شكلٍ من الأشكال تلوّث يدي بدماء شعبي، لا أرغب أن أكون ظالمًا بنظر أحدهم، هذه المناصب تتطلب شيطانًا حقيقيًا، أعلم أنني كنتُ أكثر المتحمسين لهذا الأمر، لكن بعد كل ما حدث، تعبتُ جدًّا، لن أقوى على عيش حياة محفوفة بالمخاطر والعلاقات السامة، أود أن أحيأ بحريتي.

ذهب ماتياس ومافروس للتسكع قليلًا، فقد قررا الاطلاع على حجم أضرار الحريق للبدء في الترميم والإصلاحات غدًا، وجلستُ أنا وشيرفين نسترجع ذكرياتنا في هذا المكان بالذات، وعلم المدينة يرفرف أمامنا، سألته عن رأيه بما قاله ماتياس للتو.

- إنه محقٌّ، أنا لا ألومه.

- لا أستطيع الخروج من ذكرى أبي يا شيرفين، إنني أفقده كثيرًا.. انظر حولك، كل شيء هنا عليه بصماته وأحاسيسه، يا ليته كان بيننا الآن، لفرح أشد الفرح بعودة مافروس والتأكد من براءته.

حاول شيرفين مواساتي بقوله لي:

- إنه يرانا بالتأكد يا شيرو، يرانا ويشعر بنا.

- أتعلم يا حبيبي؟ لم أعد أستطع رؤية هذا العلم أبيض اللون، إنني أراه ملطخًا بالدماء.

- أجل، بالتأكد ذاك العلم وجميع أعلام المدن الأخرى ملطخة بدماء الشعوب وآثام الحاكمين، ومنذ زمن وأنا أفكر، هل الشر فطرة البشر، أم نكتسبه مع الأيام؟! كل ما يحدث حولي يُبرهن لي أن الشرور تحتل مساحة كبيرة في قلوب أغلب البشر على أقل تقدير، إن لم يكن جميعهم، لكن الأمر يختلف من فردٍ لآخر في طريقة إظهار هذا الشر، وتجسيده على أرض الواقع.

- هل تظن أن الشر قد تملك عقلك عندما اقتحمت منزل العرّاف؟

- لا أعلم، ربما لم أستطع السيطرة على الحقد والظلام اللذين اعتمرا داخلي طيلة تلك الأيام إلا حين سكبتهما عليه بتلك الطريقة التي لا تشبهني، لا أعلم إن كنتُ نادمًا أم لا، لكن ما أعنيه، أن حتى ذلك الحارس الذي كان يتواجد في درب السلام، هو مأمورٌ بالتأكيد بتنفيذ ذلك العمل ومغلوبٌ على أمره، لكنه بالتأكيد شيطان، ربما شيطان أخرس أعمى أصم؛ فهو لم يتحرك قيد أنملة لنصرة ضحايا ذلك المكان المشؤوم، بينما يشاهدهم يوميًا يتعرضون لأسوأ أنواع العذاب! أنا أصنّفه أنه أشد شرًا من القاتل ذاته، فقد تخلى عن ضميره وإنسانيته بشكل كامل.

- إنه مشوه من الداخل يا حبيبي، لا يوجد تبرير آخر، جميع من كان يعمل هناك من ضحايا ومدننين وجلادين ليسوا بأشخاص أسوياء، إنهم مشوهون من داخلهم.

في الصباح، أثناء توجهننا إلى منزل السيد هافال قابلنا ماتياس في ساحة المدينة، كان يُساعد السكان على تجميع الأشياء التالفة والتخلص منها، ويوجّه أوامره لمجموعة أخرى للذهاب إلى درب السلام؛ لتُحضر مَنْ تبقى من الأحياء هناك، قال لنا:

- رافقتكم السلامة يا أصدقائي، أخبروني مَنْ سوف يحصل على أكبر جزء من الكعكة عند عودتكم.

دخلنا بهو القصر حيث استقبلنا جازان بابتسامته المعتادة، وبالطبع سأل عن ماتياس.

في ردهة الاستقبال كان بانتظارنا السيد هافال ومانرلوف، وقد خاب أمل شيرفين بعدم وجود وليم.

استقبلنا السيد هافال بحرارة، وقال:

- ماتياس بالفعل عنيد جدًّا.

قال شيرفين:

- سيدي، دعه وشأنه؛ فقد قرر عدم الخوض بهذا الأمر.

- حسناً، وأنت يا سيد شيرفين، إذا كنت تود العودة إلى مدينتك
يُمكننا طلب استثناء خاص لك، لكنك لن تستطيع العودة إلى هنا مرةً
أخرى.

- شكراً لك، أنا أود البقاء هنا، لكن إن تكرمت بمحاولة إحضار
عائليتي إلى هنا لزيارتي بين الحين والآخر؛ فسوف أكون ممتناً لك.

- لا عليك، إنه أمر يسير، يُسعدني أنك قد قررت البقاء بيننا، سيد
مافروس، ما خطبك؟

- ليس لديّ خطط.

قال ذلك مافروس باقتضاب.

- سيدة شيرو، أنتِ هنا لتكوني شاهدة، نحن أسرعنا بعقد هذا
الاجتماع لوضع النقاط على الحروف، وبعد ذلك بأيام سوف نعلن بشكلٍ
رسمي عن القرارات المستقبلية.

سأل شيرفين بجديّة:

- لماذا تتكلم بصيغة الجمع؟ أتعني نحن هنا مجموعة واحدة؟ أم
أنك تعني تحالفك مع السيد مانرلوف؟

- لا يهم، في النهاية سوف نتوصل إلى اتفاق يُرضي جميع الأطراف..
سوف أتكلم بوضوح أكثر، كان الناجد مدعوماً من عدة جهات، أما الآن،
فنحن نفتقد هذا الدعم، كان السيد ماتياس أكبر المرشحين لاستلامه
الحكم أو أي أحد من محيطه لعراقة ونفوذ عائلته، كنا نعول على الدعم
الذي سوف يحظى به إن استلم مقاليد الحكم، لكن بعد رفضه القاطع
أرى أننا نحتاج إلى ركيزة أو حليف يُثبت وجودنا.

قال شيرفين:

- والآن أنت تعول على السيد مانرلوف؟

أشار إليه بحركة درامية.

- لا، لا أطمح للحكم، أريد فقط أن أكون بمنصب المسؤول عن جهاز الأمن في المدينة بحكم خبرتي في هذا المجال.

أجاب مانرلوف، فقال شيرفين:

- سيد هافال بعيداً عن موضوع الحكم، هناك تساؤل يدور في رأسي منذ أن وطأت قدمي هذه المدينة، أعلم أن أغلب سكان المدينة من الطبقة الفقيرة وغير المتعلمة التي تعيش فقط لكسب قوت يومها بسلام، لكنني قابلت العديد من التجار وأصحاب العقول الراجعة.

وأشار إليه:

- وبشكل جدي أنا مستغرب، كيف تسنى لكم تصديق ذاك الخرف، والإيمان بجميع الخرافات والأساطير التي كان يرتكز حكمه عليها؟!

ضحك السيد هافال:

- سيد شيرفين، نحن لسنا حمقى، أو على الأقل، أنا أتكلم عن عائلتنا ومن أعرفهم، بالطبع نعلم الحقيقة، دمك أحمر اللون كدمي ودم جميع سكان العالم، وإن دخلت إلى مطبخ قصري سوف ترى الحليب اللذيذ بانتظارك، بالمناسبة أنا لا أستغني عنه البتة، الشيء الذي كنا نجهله، حقيقة درب السلام، وما تبقى من حقائق، فهي كانت واضحة جلية أمامنا.

نظر إليه شيرفين بحدة، وأردف السيد هافال قائلاً:

- أعلم أنك تعتبرنا متواطئين مع حكومة الناجد في إيهام شعب المدينة والتلاعب بعقولهم وعواطفهم، لكن التمرد صعب ومكلف، ولم

أقدم عليه إلا عندما أيقنتُ أنه سوف يصب في مصلحتي، لا أخفيك أننا استفدنا من حالة الشعب المُغيَّب سابقًا، لا أرى ضيرًا من عدم تمكن الناس من تناول الحليب أو الأطعمة الأخرى المحظورة أو ارتداء ملابس بيضاء، هذه الأمور مجرد كماليات يا عزيزي.

قلت له:

- لهذا السبب اتخذت جانب النَّاجِد في بادئ الأمر؟

- يا رفاق، دعونا نناقش قضيتنا الأساسية الآن، لا يهْم أي طرف كنت أساند، ما يهم الآن هو النتيجة الجميلة التي توصلنا إليها، إذاً لغاية الآن، هل هناك أي اعتراض؟ أود أن أطرح فكرة تجديد الحكم كل عامين...

وفي هذه الأثناء سمعنا جلبة عند بوابة القصر، هبَّ جازان لرؤية ما يحدث ليصطدم بوليام مستشيطاً غضبًا، دخل إلى جلستنا عنوة وراح يصرخ في وجه هافال:

- كيف تعقد اجتماعًا من دوني! هل تنوي الغدر بي؟! لقد وعدتني أيُّها الوغد.

لم يجب هافال، فقط أشار للخدم لإخراجه من هنا، بينما يحاولون إخراجه هرع شيرفين خلفهم، وصرخ قائلًا:

- افعل ما شئت يا هافال، نحن لا نبالي بمن سوف يتولى الحكم.

أنا ومافروس هممنا باللاحق بشيرفين، لكن السيد هافال كرر سؤاله:

- لم تقل لي يا مافروس، ما خطتك؟

أجاب بشكلٍ عفوي:

- سوف أعمل في الميناء.

حكاية من الماضي

خرج شيرفين مُسرِعاً، رأى حراس قصر السيد هافال يحاولون تهدئة وليام الذي كان يردد ويبرق، أخذه شيرفين من يده عنوة، وأنا تبعتهم، أما مافروس؛ فقد عاد إلى الميناء، كان صراخ وليام يملأ المدينة:

- ماذا تريد مني أيُّها الوغد؟! ما الذي كان يقوله لكم هافال، يريد تنصيبك حاكماً علينا يا نجل دياز؟!

- لا يا وليام، لم يتطرق إلى هذا الموضوع أبداً، اهدأ قليلاً، سوف أشرح لك كل شيء.

- ما غاية هذا الاجتماع، لماذا لم يقم بدعوتي؟ لماذا طردني؟! أَلْف سؤال وسؤال يدور في رأسي.

- لا أعلم لماذا طردك من قصره هكذا، لكن الاجتماع كان بطلب منا، أردنا إخباره أن ماتياس انسحب من كل شيء، هذا هو سبب الاجتماع.

- آه.. ماتياس ذاك! إنه أذكى مما توقعت، حسناً ماذا تريد مني أنت؟

- أين دُفِن أبي؟

كنتُ قد وصلت بجانب شيرفين وأمسكتُ بيده، تحوّلت ملامح وليام من الغضب إلى الشماتة:

- يا لك من مسكين، ما الذي قد يدفعني لإخبارك؟ يمكنني التلاعب بعواطفك والتمتع بهذا.

شدّ قبضته شيرفين، أجبت بدلاً عنه:

- يا سيد وليام، شيرفين أضحي فردًا منا، هو زوجي الآن، ولدينا طفلة كما تعلم، إنه إنسان واقعي، ولا يهتم بهذه الأمور العاطفية، لكنني أنا من طلبت منه سؤالك، ربما تستطيع طفلتنا زيارة قبر جدها في المستقبل.

- إنها لحظة رومانسية جدًا، حسنًا، سوف أحاول تذكر أين دُفن والدك الموقر، كما تعلم، لقد دفنتُ الآلاف خلال سنين خدمتي للناجِد، لكن قبل هذا أصدقني القول يا عزيزي، ألم تكن أنت يد عزرائيل التي سحبت العزّاف للموت؟ ألا تظن أننا متشابهون؟

- هل ذلك يصنع فرقًا الآن؟

- لا، فقط ارو لي فضولي.

ابتسم شيرفين فقط، ما جعل وليام يصفق ويضحك بصوت مرتفع:

- جيد جدًا! إذا نحن متشابهان، لقد فعلت كل ما في وسعك للوصول إلى هدفك بغض النظر عن الطريقة، كما فعلتُ أنا بالضبط، هل صدقت مافروس عندما هرب إليك تلك الليلة أنه نجا من القصر بأعجوبة؟! هذه الأعجوبة كانت أنا، أنا من أمرتُ رجالي بعدم اللحاق به! وتخلصتُ منهم في اليوم التالي لكي لا يشي بي أحد.

- هل تُريد نسب الفضل لك الآن؟ حسنًا شكرًا لك، والآن قل لي، أين

دُفن والدي؟!

- اتبعني، والسيدة شيرو ستأتي؟! رائع، كيف تقبلين بالزواج من

مجرم يا سيدتي؟

- كفى، لا يمكنك اتهام أحد بأي شيء، أنت كنت المتميز في هذا

المجال! أنت تحمل وزر جميع من قتلتهم وتسببت بأذيتهم، بما فيهم أبي.

- لم يكن لدي خيار يا سيدتي الصغيرة، ذلك العجوز أبى أن يُفارق

الحياة باكراً.

قال شيرفين:

- هل كانت غايتك اقتناص مكان الناجد؟

- إنها حكاية طويلة، هذه فرصة مناسبة لأقصها لكم ريثما نصل إلى وجهتنا، ليس لتبرئة نفسي؛ إنما لأوضح لك حجم التشابه الكبير بيننا.. مثل أي شاب واعد انضممتُ إلى أبناء الناجد الأمناء، كنتُ فردًا مميزًا جدًّا، فقد برهنتُ بذكائي في عدة مواقف أنني أهْلٌ لتحمل المسؤولية، سارت الأمور بسرعة، فترقيتُ لأصبح أحد حراس قصر الناجد كما حدث مع مافروس بالضبط، في هذه الفترة كان الناجد قد تزوج من سديم، طفلة مزعجة تلعب في أرجاء القصر، كنتُ مُكلفًا بحراستها وضمان سلامتها، فقد كان يعول عليها إنجاب ولي العهد له، في أحد الأيام رأيتُ سديم تسترق السمع إلى حديثِ حساس بين الناجد والعرّاف، وببساطة أخبرته بذلك.

احتقن الدم في وجهي، ورغبتُ في ضربه وتهشيم فكه!

- أنت كنتَ شاهدًا على الظلم الذي يُمارس ضد الشعب وبقيت صامتًا! لم توفر أي جهد بإيذاء أحد لتحقيق هدفك، حتى مع تلك الطفلة.

- أجل بالتأكيد كنتُ أعلم، منذ أن انضممتُ إليهم وأنا أعلم بوجود فساد في الحكم، لكن لم أتوقع أنه وصل إلى هذا الحد، لكنني لم أهتم، فالناجد في آخر سنوات عمره، ولا يملك وليًا للعهد، هذا ما كان سوف يصبُّ في مصلحتي بعد وفاته لاعتلاء منصب الحكم، لكن أحلامي سُحِّقت بعد علمي أن الناجد لم يتخلص من سديم، إنما جعلها تتقمص حياة رجل.

بعد وشايتي بسديم تمت ترقيتي لأكون كبير الحرس، لذلك ابتعدتُ قليلًا عن مراقبتها، عندما علمت أنها حامل، لم أتقبل فكرة أن تضيع جهودي سدى، أنا متيقنٌ أن الناجد عقيم؛ لذلك عدتُ إلى مراقبتها دون

علمه، لاكتشف علاقتها بمافروس، سديم أنجبت فتاة، أعلم أنكم ادعيتم أنها طفلتكما، لكن لا بأس، فلکم كامل الحرية في التلاعب بنسل عائلتكم المبجل.

بعد اطمئنان قلبي أنها فتاة وانفراج أساري، علمتُ أن الناجد قد طلب منها الإنجاب مرة أخرى؛ ليحظى بولي عهد ليس من صلبه، أقلقني انضمام مافروس لحرس القصر، فباتت إمكانية حمل سديم مرة أخرى واردة، سأصدقكم القول أنا في تلك الأثناء استسلمت، لم أعد أفكر في خلافة الناجد، وركزتُ على توسيع نفوذي أكثر، حتى كانت تلك الليلة التي سرق فيها مافروس الوثائق وهرب، لقد أوحى لي بطريق جديد لم أكن أجروء على الإقدام عليه، على الرغم من أنني ملازم للناجِد، وببساطة كان يمكنني الانقلاب عليه دون جلبة، لكنني لم أكن أملك الشجاعة الكافية للتفكير في هذا الأمر، في نهاية المطاف جاء شاب أرعن فعل ما كان عليّ فعله منذ زمن، لذلك أفسحتُ له الطريق؛ لكي يهرب.

قال شيرفين:

- إن علم مافروس بأنك من وشى بسديم وتسبب في عذابها طيلة تلك السنين، فسوف يقتلك.

- لا داعي لذلك يا صديقي، ولا تخبره أنني من شوّه وجهها قبل قتلها، لقد كانت جميلة جدًا.. أجمل نساء القصر، هل تود أن أصفها لك؟

- أنت وغد حقير!

صرختُ في وجهه، عانقني شيرفين، وقال له:

- أنت وأمثالك عارٌ على الرجال، أشكر الإله أنه لم يكن مسموحًا لكم التعامل مع النساء، وإلا كنتم سوف تفسدون جيلاً كاملاً.

ضحك ووليام وقال مستنكرًا:

- لو تعلم يا شيرفين؟! كنا نكافأ بالنساء يا صديقي! لكن نساء من

المدينة الشمالية حسب الاتفاق الذي كان مُبرماً بيننا، لكن للأسف أخذوا جميع النساء بعد مقتل العرّاف، هل ترى حجم المتعة التي أفسدتها علينا؟

قلت له:

- هذا مقرف!

- سيد شيرفين، لقد وصلنا، هنا دُفن والدك بعد أن تم تجريده من بزته؛ ليرتديها من سوف يحل مكانه في القبر الرسمي.

قلب الأرض

- يقع المدفن على تلة مرتفعة في الجهة الشرقية للمدينة، قال وليام:
- لقد دُفِن هنا والدك بمفرده، لم ندفن في هذا المكان أحدًا غيره، على الأقل في عهدي، لقد أشرفتُ بنفسِي على دفنه بطريقةٍ تليق بمقامه.
 - هل سلبتم شيئاً من أعضائه، كما دأبتم على فعل ذلك مع عمال المناجم في درب السلام؟
 - لا أستطيع التأكيد أو النفي.. ما أجزمه، أن مدفنه هنا.
 - كان شيرفين مطأطأ الرأس، نظراته تستقر على التربة التي كانت تكسوها بعض الأعشاب المتفرقة، غادر وليام، ولم نرُه بعد ذلك اليوم أبداً.
 - جلس شيرفين على الأرض، ومسد التربة بيده، وقال:
 - أشعر أن قلب الأرض ينبض يا شيرو.
 - كان الطقس يندز بهطول الأمطار، وشعر شيرفين يتطاير بفعل الرياح.
 - هياً يا حبيبي دعنا نعود الآن، وسوف نقوم بزيارته دائماً.
 - لا، أريد نقله إلى جانب والدك.
 - حسناً سوف ننقله غداً، هياً بنا نعود الآن.
 - وانحنيتُ؛ لأقبَل جبينه وأساعده على النهوض، لكنه جذبني وأجلسني بجانبه، وقال لي:

- لطالما تخيلتُ أن موت إنسان عزيز سوف يكون أقسى عقاب أمراً به، وكلما زرت قبر أبي المزعوم في مدينتي، شعرتُ بالعجز والخذلان، أما الآن فأشعر أن والذي قد توفّيَ للتو، لقد سرقوه مني مرتين، إنني أشعر بذات العذاب الذي قاسيته عندما قُتِل.

شددتُ على يده:

- حبيبي، الآن سوف نزوره معاً، وأي عجز تشعر به سوف أحمل نصفه في قلبي، ويستند خذلانك على كتفي، غداً سوف يرقد بجوار والذي، أنت تعلم لقد كانا على علاقة طيبة، لن يبقى وحيداً بعد اليوم.

- ليسا فقط صديقين، إنما قُتِلَا على يد ذات المجرمين أيضاً، إنها سخرية القدر، والدانا لديهما قواسم مشتركة أكثر من اللازم.

عندما غادرنا تلك التلة، كان الليل قد حلَّ على المدينة، في الساحة، كان ماتياس والسكان يتناولون وليمة من أجبان وألبان وحليب وأرز أبيض دون أي إضافات، لم أرَ بحياتي وليمة بيضاء بهذا الحجم، كان ماتياس سعيداً جداً، يوزع الخبز والكعك على الجميع برفقة جازان الذي هرع إلى شيرفين عندما رآه.

- لماذا خرجت خلف وليام وتركت الاجتماع؟

- اتخذته ذريعة للهرب من ذاك الاجتماع الممل يا صديقي.

اقترب ماتياس من شيرفين، وقال له:

- ماذا حصل يا بطل؟

أجبتُ بدلاً عنه فقد كان في حالة شرود تام:

- لا شيء يُذكر يا ماتياس، السيد هافال اقترح أن يجعل فترة الحكم لعامين فقط غير قابلة للتمديد، والسيد مانرلوف يرغب بمنصب المسؤول عن أمن المدينة.

قال أحد العامة:

- سيد ماتياس، سكان المدينة يرغبون بطرح فكرة على حضرتك.
- أجل بالتأكيد يا عم، قل ما عندك.

- نود هدم قصر النَّاجِد، وتنظيف الأرض هناك ونقل الرفات إلى المقابر، إنه يحتل مساحة كبيرة يُمكننا استغلالها بأيِّ شيءٍ يُفيد الشعب، لكن المشكلة تكمن في ملكية هذه الأرض.

- ليس هناك أي مانع، انسَ قضية الملكية؛ فهي أرض لعامة الشعب الآن، سوف نباشر غداً بهدم القصر، ويُمكننا تشييد مساكن للمشردين أو أماكن مخصصة للباعة المتجولين بدلاً عنه، وسوف نعمل على إعادة ترميم ساقية المياه التي تصب في تلك البقعة، مع حفر بئر؛ ليتيسر على جميع السكان الحصول على مياه الشرب متى شاؤوا.

طلب شيرفين من ماتياس أن يجلس جانبه، وأنا جلبتُ بعض الجبن؛ لأتناوله، وأخذتُ بعضاً منه لوالدتي والعم ماهان، أنا متأكدة أن أمي سوف يروق لها طعم الجبن.

- ماتياس، أريد منك أن تساعدني بأمر ما، اليوم علمتُ من وليام مكان مدفن والدي، إنه بعيد عن المدينة، أريد نقل رفاته إلى جانب قبر السيد ديفان، لا أريد أن يبقى وحيداً هناك.

- بالتأكيد يا صديقي، سوف نقله حيثما تشاء، أنا آسف لما تشعر به، لكن عليك تخطي الأمر سريعاً، انظر، الآن لديك عائلة، وعليك الاهتمام بها.

ثم سرد له شيرفين كل ما سمعناه من وليام، وأوصاه بعدم إخبار مافروس أي شيء متعلق بسديم، ماتياس غضب بشدة وقذفه بشتائمهِ ولعناته، لم يذكر له أي تفاصيل عن كشفنا لتواطؤ السيد هافال عن عمد بإرساء الخرافات التي كان الشعب يحيا عليها؛ تفادياً لردّة فعله المتوقعة.

بدأت تُمطر، هرع الجميع للعودة إلى الميناء، أما شيرفين فقد كان مستمتعاً جداً تحت المطر، ما اضطرني إلى مجاراة مسيره البطيء؛ لكي أبقى برفقته، على الرغم من كرهى الشديد لهذا الطقس، ماتياس بدوره أخذ ما تبقى من الجبن والخبز؛ ليُطعم العم ماهان وعائلتي.

عندما وصلنا للميناء كان مافروس يأكل الجبن بنهم عكس توقعاتي، فقد قال لنا سابقاً أنه يذكره بالناجِد، كان سعيداً جداً، ولم يكف عن الضحك برفقة ماتياس الذي كان يُطعم السيد ماهان بصعوبة، شيرفين قرر البقاء بالخارج تحت المطر، وعندما تأخر الوقت، وقلقتُ عليه، أخذتُ الرداء الأبيض الذي نسيتُه الفتاة ذات الشعر الأحمر هنا سهواً، ارتديته؛ لأحمي نفسي من البرد، كان شعوراً غريباً جداً أن أرتدي شيئاً أبيض اللون، ترك في نفسي أثراً غريباً لا أستطيع تفسيره، كمن يلتحف بالقمم هرباً من الليل.

خرجتُ إلى شيرفين الذي كان ينظر للسماء وضحك بخفة عندما رأني:

- الآن اسمُ على مسمى.

لكنه جعلني أبكي، لتختلط دموعي مع المطر، عندما اقتربتُ منه جثاً على ركبتيه أمامي، وقال لي:

- هل تقبلين بالزواج مني يا شيرو؟

قلت له بصوتٍ يختلط بدموع الفرح:

- أيُّها الأحمق، أنا بمثابة زوجتك منذ أن لمستني أول مرة، فهل تُحاول أن تتزوجني مرةً أخرى؟

حملني بعفوية، واتجه إلى مكتب والدي:

- يا رفاق، سوف أتزوج شيرو.

فرح الجميع، وعلت هتافات الفرحة، استفاق العاملين في الميناء على أصوات الأهازيج الذي كان يرددتها ماتياس ومافروس، التف عدد كبير حولنا، وبدؤوا بتهنئتنا.

قال السيد ماهان:

- أنا وكيل العريس.

واقترب من والدي متسائلاً:

- يا سيدتي اللطيفة، هل تقبلين بتزويج ابنتكِ الجميلة لابني البطل شيرفين؟

ضحكت أمي لأول مرة بعد وفاة والدي وعانقتني بحرارة، وشهد جميع الموجودين على زواجنا، وقام بعض العاملين بإخلاء حجرة لأجلنا كهدية لنا هذه الليلة.

تزوجتُ من شيرفين في ليلةٍ ماطرة، مرتديَةً ثوباً أبيض ليس لي، وفي حجرةٍ أو بالأحرى في مكتب لأحد العاملين في الميناء خالٍ تماماً من أي أثر للحب أو الحياة، لكن في تلك اللحظات، كان ذلك المكان الموحش أجمل القصور في نظري، فقد كنتُ بجوار شيرفين ملتصقةً به، وما زلتُ أذكر وقع نبضات قلبه تلك الليلة، وأذكر كل القبل التي طبعها على جسدي بنهم.

عمال المناجم

في أول صباح بعد ليلة زواجنا، قبل أن نخرج لكي ننقل رفات القبطان دياز كان شيرفين قد استيقظ باكراً وخرج؛ ليجلس على رصيف الميناء يراقب موج البحر، اقتربتُ منه قائلة:

- حبيبي أيمكنك الالتفات إليّ لحظة؟ أعدك أنك سترى شيئاً أجمل من البحر.

التفت إليّ بابتسامته الكبيرة الفاتنة، وقال:

- بالطبع أنتِ أجمل من البحر و...

توقف عن الكلام عندما رأى الأساور في يديّ، ونهض بحماسة كبيرة.

- من أين لكِ هذا؟

- هذا سرٌّ، فقط ضعها حول معصمك، الآن سوف تحمل ذكرى زواجنا، فقد أردتُ أن أقدمها لك اليوم تحديداً، على الرغم من أنها بحوزتي منذ مدة.

عانقني بشدة وقبّلني عندما تجمعت الدموع في عينيه.

كان ماتياس ومافروس برفقتنا لمساعدتنا في نقل الرفات، عندما وصلنا لساحة المدينة تقدّم شخصٌ وتكلم مع ماتياس حول الأشخاص الذين جلبوهم من درب السلام ليلة أمس، ولكي يحموهم من المطر قاموا باستضافتهم مؤقتاً في أحد المستودعات، وسأل عما سنفعله بالمبنى المشيد هناك.

أجاب ماتياس:

- سوف نهدمه بالتأكيد، لا حاجة لنا به.

في هذه الأثناء جاءت عربة السيد هافال الذي كان برفقة جازان،
ترجّل من العربة وألقى التحية علينا، ماتياس أكمل قائلاً:

- كما علمنا، أن ملكية المناجم لا تعود لمدينتنا لذلك...

قاطع السيد هافال:

- يُمكننا الاستيلاء على عدد من المناجم، فهي باب يقودنا لريح كبير
جدًا.

- لا نريده.

قال ماتياس بحزم.

- لكن يا سيد ماتياس أنا أقترح...

- قُلْتُ لك لا نريده يا هافال! سوف نهدم المبنى ونزرع تلك الأرض
بالمحاصيل الموسمية من كل عام.

- حسنًا كما تريد، أتفهم موقفك.

- إن كنت تود المساعدة، عليك تزويدنا ببعض المواد الطبية
الأساسية، سوف يتولى شيرفين مهمة تقديم العلاج الأولي لعمال المناجم،
إنهم بحالة يرثى لها.

نظر السيد هافال لشيرفين، وقال بلطف أسر:

- أنا جاهزٌ للبدء في هذا الأمر النبيل.

تجاهل ماتياس لطف السيد هافال المبالغ به، وياشر بتوجيه

السكان:

- سوف ننقسم إلى مجموعتين، المجموعة الأولى موكل إليها مهمة هدم

القصر، ونقل ما يُمكن نقله من رفات إلى المقابر، والثانية سوف تذهب لهدم ذاك المبنى وردم الحفرة المشؤومة.

قال شيرفين:

- لا تنقلوا أي رفات أرجوكم، الجثث الموجودة تحت القصر، وفي تلك الحفرة من الممكن أن تنقل لنا بعض الأمراض، نحن لا نعرف سبب وفاتها وظروف دفنها، وضعنا الآن لا يسمح لنا بإيجاد طرق آمنة بما فيه الكفاية لنقلها وإعادة دفنها بالشكل المطلوب.

تبادل الجميع النظرات فيما بينهم بحيرة وحن، فقال ماتياس:

- لن ننقل أي رفات في الوقت الحالي، سوف نقوم بمناقشة هذا الأمر لاحقًا، لدينا أولويات أهم الآن، هيّا لنبدأ العمل.

غادر السيد هافال وجازان بعد أن وعد ماتياس بتأمين المواد الطبية، وأكملنا طريقنا باتجاه التلة مكان مدفن والد شيرفين.

حاول ماتياس ومافروس تولي الأمر قدر الإمكان، فقد داهم شيرفين حزن عميق أثناء نقل الرفات، استغرقنا وقتًا طويلًا لإعادة تسوية أرض التلة، ودفنه بجانب والدي، ومع حلول المساء، ذهب شيرفين لتفقد عمال المناجم المساكين، وأخذ بعض الفتيان برفقته لمساعدته في تنظيفهم وإطعامهم، وبالتأكيد رافقه ماتياس.

بقيتُ في الميناء بجوار والدتي والعم ماهان الذي أصبح محبوبًا من الجميع، على الرغم من التشوهات التي لحقت وجهه، لكنه كان دائمًا مرحًا ولطيفًا؛ لذلك تقرر تسليمه منصبًا شرفيًا لمراقبة العمل في الميناء المتوقف مؤقتًا عن العمل.

استمرت أعمال الهدم وإعادة ترميم المنازل لأسابيع؛ حيث عاد بعض السكان إلى منازلهم وأعمالهم، ووصلت المواد الطبية المطلوبة إلى شيرفين الذي لم يوفر أي جهد في علاج جميع الجرحى، لكنه أخبرنا أن عمال

المناجم أجسادهم ضعيفة جداً ومشوهة، وكان يدخل دائماً بدوامة اكتئاب عندما يُفارق أحدهم الحياة بين يديه، بدأ بتدريب بعض الفتيان والفتيات على الإسعافات الأولية، وأنا كنت دائماً برفقته، لكن لم يستهويني هذا العمل الشاق، لذلك شرعتُ بتدوين كل القصص التي أسمعها من السكان، أو التي يحاول كتابتها عمال المناجم الذين تطوع بعض العاملين سابقاً في ميتم الأطفال بإعادة تأهيلهم ومحاولة كسر خوفهم الدائم، بالإضافة إلى مراقبتي الدائمة لشيرفين، بينما هو يقدم العلاج للجرحى وللمتضررين جسدياً، إنه خلال عمله يكون منسجماً جداً بشكل ملفت، غارقاً في أفكاره أو في عالمه الخاص، فقد أصبح حساساً جداً ومحبطاً أغلب الوقت، وفي كل مرة يلمح بها شيرفين أحد الأطفال يلهو أو يلعب، يقول لي:

- لا أصدق أنهم يلعبون ويمرحون وسط هذا الدمار كله، ليتنا نملك قلوباً وذاكرة متسامحة كأطفال هذه المدينة يا شيرو.

في إحدى المرات بينما أراقبه، خطر لي أن أكتب له شيئاً ما وأقدمه له، لعله يبتسم ويروح عن نفسه قليلاً.

أخذتُ القلم ودونتُ على دفترتي:

"أود أن أكتب لك وأغرق بين الحروف،

أود أن أسطر لك قصائد وأبياتاً شعرية

تجمعني بك أبد الدهر تحت سقف الحب والغرام.

أرغب أن أدخل أعماقك وأستنشق رحيقك وغبارك الكوني،

فأنا أعترف بكامل قواي أنني أراك نجماً ساقطاً،

شهاباً استقر في سماء قلبي قبل سماء كوكبنا.

مباركة عليك الضحية المتيمة في حبك،

فلم يُعد يهمني الاقتراب أو الابتعاد عنم هو غيرك".
قدمتها له مع ابتسامة بينما كان يعالج أحد الجرحى، والدماء تغطي
أكمام قميصه الأزرق، وعندما قرأها ضحك ملء شذقيه، وقال لي:
- أنتِ سمائي وأرضي، وضحيتي أيضًا.

شرع ماتياس والسكان بتشديد ملجأ سكني متواضع وحديقة في
أرض القصر بعد هدمه بالكامل بهدف توفير مسكن جيد للدراويش
وضحايا درب السلام.

خلال هذه الفترة كان السيد هافال صاحب القرار بعد أن غيَّب وليام
عن المشهد تمامًا، لم يصدر أي شيء رسمي، لكن كل الإشارات كانت
توضح أنه سوف يكون الحاكم القادم؛ حيث استطاع إعادة حركة
التجارة البحرية تدريجيًا مع المدن المجاورة، بعد أن بادر وأرسل شحنات
من بذور الورود البيضاء إلى جميع المسؤولين وأصحاب القرار كهدية
تعبّر عن رغبتنا بإحلال السلام والسكينة، وبعد أن دشّن مانرلوف عدة
مستودعات له، فهو لم يدخر أي مجال يمكن أن يوفر له المال إلا واستفاد
منه بأقصى درجة ممكنة.

تقرر طلاء كل المنازل بلون أبيض، والمتاجر بلون أخضر، وفُرض على
جميع التجار توظيف القادرين على العمل من عمال المناجم بهدف
محاولة دمجهم في المجتمع، والأسر التي تعرفت على ذويهم من ضحايا
درب السلام؛ تحملوا مسؤولية إعالتهم بشكل كامل.

إحدى أكبر المشاكل التي واجهتنا بعد فترة الانقلاب، في المرحلة
الانتقالية إلى منظومة حكم جديدة، هي خريطة النسل، فقد تبين لنا أن
أغلب من أرسلوا في رحلة درب السلام سابقًا لم يفارقوا الحياة، بينما
كانوا قد سُجلوا في سجلات المدينة أنهم أموات، وعلينا أيضًا محاولة إثبات
هوية الجميع، بالإضافة إلى ازدياد عدد اللقطاء والمشردين بعد الحريق.

هذا الوضع سبب فوضى كبيرة، لذلك خرج علينا السيد هافال
بمجموعة قرارات مهمة لإعادة هيكلة المجتمع.

اقترح وأمر

مضى أربعة أشهر على حادثة الانقلاب على الناجد، الذي اختفت جثته في ذلك اليوم بعد اعترافه، ماتياس وجازان ذهباً معاً، نحن عدنا للميناء تاركين خلفنا السيد هافال ومانرلوف اللذين أخبرونا فيما بعد أنهما لم يأخذا الجثة معهما، كذلك لم يصرّح أحد من سكان المدينة أي شيء بخصوص هذا الموضوع.

بعد عودة أغلب السكان إلى منازلهم، طلب شيرفين مساعدة ماتياس لبناء طابق آخر فوق منزل عائلتي، فقد كنا بحاجة لطابق جديد يتسع لستة أشخاص، من ضمنهم شادن التي بدأت تكبر ويزداد نشاطها.

في تلك الأيام كان الجميع يلجأ للسيد هافال إن احتاجوا لأي دعم، أو ليُلبى لهم حاجاتهم؛ لذلك قرر السيد هافال أن يتكلم بشكلٍ صريح.

في أحد الأيام تحت سماء مدينتنا بينما شيرفين يقدم العلاج لبعض الجرحى في محكمة الشعب التي تحولت بشكل مؤقت إلى مركز علاجي، جاءت عربة السيد هافال الذي طلب من جازان جمع السكان ليقترح علينا أمراً ما.

- يا رفاق - كان يحاول جاهداً عدم استخدام كلمات وتعابير الناجد - هناك أمرٌ ملحٌ علينا إيجاد حل مناسب له، مسألة الأنساب، كيف لنا إعادة ترتيبها وتدوينها؟

لم يُجب أي أحد، من الواضح أنه لا يريد مشورتنا، لديه قرار يود إعلانه فقط لا غير.

- أنا أقترح أن نحصي جميع الموجودين في المدينة، ونُعيد تسجيل معلوماتهم من جديد، وتدوين أسماء ومعلومات المفقودين، ومن وجد ذويه على قيد الحياة من ضحايا درب السلام عليه إثبات ذلك بشهود، أو أي وثائق إن وجدت أو معلومات، ومن لم نتأكد من أصوله سوف يعيش في المسكن الذي يتم تشييده، سنستعين بالجميع للتعرف على الأفراد المجهولين، علينا رسم خريطة جديدة لنسل سكان المدينة، وبالنسبة للأطفال الذين تشرذوا وفقدوا عائلاتهم بسبب حرائق المدينة والأحداث التي جرت، سوف تساهم لجنة التربية وإعادة التأهيل بالاهتمام بالأطفال لحين بلوغهم سن الرشد؛ لهدف تنشئة جيل جديد بعيداً عن ماضيها الأليم، لذا يُرجى من الجميع خلال الأيام القليلة القادمة إعادة تسجيل وتنشيط معلوماتهم بشكلٍ رسمي.

أشار ماتياس بيديه بلامبالاة.

استطرد السيد هافال:

- لقد مضت فترة طويلة، والمدينة بلا حاكم أو دستور جديد، أنا أطلب من وجهاء المدينة ترشيح أي شخص لاستلام هذا المنصب، ومدة الحكم سوف تكون لعامين فقط، وعلينا اختيار حاكم بعد كل دورة عبر الانتخابات الشعبية بشكل عادل صريح، وإن لم تصلني أي أسماء مرشحة، سوف أتولى هذه المسؤولية الكبيرة بنفسني، وأتولى زمام الحكم لفترة عامين على هذه المدينة.

ضحك ماتياس وقال بتهكم:

- هذا اقتراح أم أمر يا فخامة السيد هافال؟

نظر إليه السيد هافال بحدّة:

- اقتراح وأمر، الجميع يلجؤون إليّ للمشورة بأي تفصيل، إنذا ليس غريباً أن أسنّ بعض القوانين التي تصب في مصلحة مجتمعنا، يجب علينا

البتّ في مسألة الحكم في أسرع وقت ممكن، أنا لست متمسكاً بها لأهداف شخصية.

نظر إلى الجميع، وقال:

- أرجوكم، لا تسيئوا فهمي، هذه مسؤولية كبيرة أنا بغنى عنها، بكل بساطة يمكنني الانسحاب والعودة إلى قصري وحياتي الرغيدة، إنما بسبب انتمائي العميق لهذه الأرض وشعبها، فأنا جاهز لأكون الخادم والحامي لهذه الأرض الجميلة، ومن يود ترشيح أحد آخر، فليخبرني.

تفرق الحشد دون أي إجابة، لكن أحد المسنين قال له:

- مباركٌ عليك الحكم، يمكنك تقاسم السلطة والنفوذ مع من تشاء، نحن لا نهتم، فقط ارفعوا أيديكم عن أرض هذه المدينة؛ لتتعاقي مما اقترفت فيها أيدي من سبقكم فيها، وارفعوا نظركم المتعالي عن خيراتها وأحزانها؛ لنقتسمهم نحن بالعدل.

بالفعل بعد ثلاثة أيام أعلن مانرلوف أن السيد هافال سوف يكون حاكم المدينة، وسوف يبقى في ذات قصره الذي سوف تبقى أبوابه مشرّعة للجميع في سائر الظروف، وبعد ذلك بساعات، سمّى الحاكم هافال السيد مانرلوف مسؤولاً عن أمن وجيش المدينة الذي سوف يُعاد بناؤه على عقائد وركائز جديدة.

قبل أن يتم إنهاء إحصاء السكان وإعادة تسجيلهم بشكل رسمي، ناقشنا قضية شادن مع مافروس؛ حيث كنا ملزمين بتسجيلها خلال أيام.

- ماذا علينا أن نفعل يا مافروس؟

- لا شيء يا أختي، أنا لا أرى أنه من المناسب أن أكذبكما بعد أن قال شيرفين إنها ابنتكما، كيف لي أن أعلن أمام الجميع أنها ابنتي من سديم التي كانت زوجة الناجد وليست زوجتي؟ سوف أجلب لها العار والسمعة السيئة حتى بعد مماتها، سوف تلاحق شادن وصمة عار هذه العلاقة

الأئمة للأبد، وقد تكرهني عندما تكبر وتفهم ما يجري حولها.

نظر إلى شيرفين، وقال له:

- سجّلها على اسمك يا أخي، نحن عائلة واحدة وسوف تكبر بيننا، الجميع سوف يتشارك في الاعتناء بها، وأود أن أصدقك القول، أنا أرى أنك مناسب لتربيتها أكثر مني، أنا متأكد أنك سوف تكون مثلاً للأب الصالح لها.

نهض شيرفين من مكانه، وعانق مافروس، الذي ذرف الدمع بحرقة:

- حسناً، سوف يبقى سر شادن بيننا، يُمكنك الإفصاح لها عن الحقيقة عندما تبلغ سن الرشد إن رغبت بذلك.

في صباح اليوم التالي، تم تثبيت اسم شادن الثلاثي "شادن شيرفين دياز" في سجلات عائلتنا بشكل رسمي بعد أن قمنا بإعادة تثبيت نسب عائلتنا بشكل كامل، وكتب بجانب اسم والدي أنه توفي ليلة حريق المدينة دون ذكر أي تفاصيل أخرى، وبالتأكيد قمنا بتزوير تاريخ زواجنا الفعلي ليكون ملائماً مع عمر الطفلة، في ذات اليوم نطقت شادن أولى كلماتها بشكل صحيح؛ حيث كنا منشغلين بأعمال إعادة ترميم منزلنا، بينما هي تلعب بالقرب من والدتي حيث وجدت وردة حمراء اللون رفعتها عالياً وقالت "أحمر"، وفور سماع شيرفين لهذه الكلمة بدأ يرقص طرباً، وذهب إليها وعانقها، وأمضى طفلة ذاك اليوم يجلب لها أشياء حمراء فقط؛ ليُعيد سماع نطقها لهذه الكلمة مجدداً؛ حيث كان يتبجح أمامنا بقوله:

- أرايتم؟ هناك رابط روحي بيننا! ليست صدفة أن تكون أول كلمة تنطقها هي معنى اسمي.

زيارة غير متوقعة

بعد مرور شهر على تنصيب السيد هافال نفسه حاكمًا للمدينة، عاد جميع السكان إلى منازلهم، وقد استخدموا محكمة الشعب وأجزاء من الميناء لإيواء المشردين، ريثما ينتهي تشييد المسكن الخاص بهم فوق حطام قصر الناجد، نحن عدنا إلى منزلنا برفقة شيرفين والعم ماهان، الذي أصرت والدتي على بقاءه معنا، فقد أصبحا صديقين الآن بالرغم من تعرضه للنبذ من بعض الأشخاص، والأطفال تحديداً؛ بسبب التشوهات التي خلفتها النيران في وجهه، كانت أمي تراه بقلبها بعد أن فقدت بصرها، وشادن لم تفرح قط من مظهر العم ماهان، فقد أغرمت به من أول نظرة، وكانت تشاركه اللعب أغلب الوقت فقد بلغت عامها الأول منذ شهر، وهي تزداد حركة ونشاطاً يوماً بعد يوم، في حين أن والد سديم قد توفي بعد أن صارع الألم والحسرة وحيداً، وقام مافروس بدفنه بجانب سديم.

كان الجميع منشغلين بإعادة ترتيب حياتهم من جديد، أما السيد هافال فقد انشغل بتعديل وإعادة هيكلة الدستور؛ لكي يتم نشر نسخ مطبوعة معتمدة منه تفادياً لأي لبس في المستقبل، بمساعدة مانرلوف الذي ازداد نفوذه وسطوته، لكن لم يكثرث أحد لهما، فقد تعلم شعب هذه المدينة أن يكون مسؤولاً عن نفسه دون الرجوع إلى ولي الأمر.

خلال إعادة فتح طرق التجارة والمتاجر المحلية، قرر السيد هافال تقديم مساعدة لمن يحتاج رأس المال لبدء تجارته أو مشروعه، على أن يسترده منه بعد عامين بأرباح مضاعفة، لاقى هذا العرض إقبالاً وترحيباً

كبيرين من عدد كبير من التجار، والذين استقرضوا المال من السيد هافال مع رهن منازلهم له أو أراضيهم أو متاجرهم إلى حين إعادتهم للمبلغ المتفق عليه.

ماتياس أعلن تدمره وعدم موافقته على هذا القرار:

- إنه يستغلنا يا شيرفين! هل سمعت ماذا قال؟! يريد ضعف المبلغ بعد عامين، إنه نصاب! سوف يبني قصرًا آخر من أموالنا، وعلى كرامتنا!
- لكنه حل يشبه الشراكة في العمل يا ماتياس، من خسر أمواله أو ممتلكاته في الحريق، فلن يجد سبيلًا آخر، أنا أيضًا أفكر أن أطلب منه هذا القرض.

فقد كان شيرفين قد أفلس تمامًا بعد أن حاول جاهدًا إعادة عمله كوسيط بين التجار، لكن وضع التجارة آنذاك لم يكن يسمح لهكذا أعمال، فقد كان عدد التجار الذين يتعاملون مع المدينة قليلًا جدًا.

- لا يا صديقي، لا تطلب من ذاك الوغد أي شيء إن كنت ترى أنها شراكة عمل، فشاركني أنا.

طرح ماتياس على شيرفين فكرة استلام إدارة أحد متاجره، ليكون مسؤولًا عنها، فقد وسَّع ماتياس تجارة عائلته من قطاع الأسمدة إلى تجارة الفاكهة والأجبان وبعض الأعشاب المفيدة. بالطبع، شيرفين اختار أن يكون مسؤولًا عن متجري الأجبان والأعشاب، لكن بعد فترة وجيزة أصبح شيرفين المسؤول عن جميع متاجر العائلة بسبب رغبة ماتياس أن يعيش حياة الرحالة، فعلى الرغم من حظر السفر المفروض على شعب المدينة، كان يحصل على تصريح خروج من المدينة، بأمواله بالطبع؛ ليسافر ويكتشف العالم.

أثناء هذه الفترة، تكررت تهديدات وليام للسيد هافال واتهامه بخيانة العهد، كما حدث وسمعنا أنه في أحد الأيام بينما كان تَمَلًا قام

بمهاجمة القصر، وكان يصرخ:

- لقد وعدتني بمنصب مهم في حال ساعدتك على إسقاط الناجد يا هافال الوغد، لقد قدّمت لك جميع أموالى وأموال حكومة الناجد لكي تدعمني! أيُّها الوضيع، يا ابن المزارع المخبول، أنت لا تختلف عن الناجد بشيء، فقط ترتدي بزة أنيقة، أعدك أنك ستُلاقي ذات المصير يا ابن العاهرة.

لكن حراس القصر أخرسوه بالقوة.

عندما كان يتجول في المدينة تحت تأثير الكحول أو في أي حالة أخرى، يتعرض للشتم والقذف بالحجارة من قبل الأطفال والنساء اللاتي يعتبرنه المساهم الأول في قتل أبناء شعبنا وتشريدنا، لم يستطع أن يجد له أي عمل يؤمّن له دخلاً مادياً يكفيه للعيش، فبعد أن وصلت حالته السيئة للذروة أقدم على الانتحار، ووجد جثته أحد المزارعين في منزله الواقع وسط الغابة الشمالية، وعندما كشف شيرفين على الجثة؛ حيث بات معروفاً أنه يقدم العلاج والاستشارات الطبية دون مقابل مادي للجميع، وجد أنه قد توفي على أقل تقدير منذ أسبوع، ودُفن في ذات المكان، وهُدِم منزله بما فيه فوق قبره.

مافروس والعم ماهان التحقا بالعمل في الميناء؛ حيث عادت حركة التجارة للانتعاش رويداً رويداً، أما أنا فقد عملتُ على إعادة كتابة جميع قصص سكان المدينة التي دونتها، لعل قد يُقدّر لها أن ترى النور يوماً من الأيام في حال استطعتُ إعادة صياغتها ونشرها، أو كتابة رواية عن مدينتنا.

في أحد الأيام، جلب لي شيرفين أحد أنواع الجبن الناعم القابلة للدهن، وقال لي:

- هناك وصفة لإعداد حلوى الجبن الباردة مع التوت البري أو ما

يُسمى بكعكة الجبن البارد* سوف نعدّها اليوم مساءً، ستروق جدًّا لشادن، لقد تذوقْتُها خلال سفري، وما زلتُ أذكر طريقة إعدادها. في تلك الليلة بينما نُعد كعكة الجبن مع التوت البري والكعك المقرمش، كان شيرفين سعيدًا جدًّا، يُخطط لمفاجأة مافروس والعم ماهان بهذه الحلوى عند عودتهما، لكن حصل ما لم نتوقعه، فقد عادا قبل موعدهما بقليل برفقة سيدة جميلة ذات شعر أسود فاحم، وثلاث فتيات بأعمار مختلفة.

عندما فتحتُ الباب، مافروس قال لي:

- لا تُصدري أي جلبة، هناك مفاجأة لشيرفين.

كانت هذه عائلته، لقد وفر لهم السيد هافال استثناء للسفر، وسوف يبقون هنا لأسبوع كامل.

كان شيرفين في حجرتنا يُلاعب شادن، وعندما سمع صوت والدته جاء مسرعًا حاملًا الطفلة على يده، والدموع تنهمر من عينيه، لقد كان لقاءً حميميًّا جدًّا، التفتت شقيقات شيرفين حوله وانخرطن في بكاءٍ محموم، كما شاركتهم شادن البكاء دون سبب.

كانت سعادته لا توصف أبدًا، وأمضى طيلة ذلك الأسبوع يُدندن ويغني ويتجول في المدينة برفقة شقيقاته اللواتي أغرمن بالحلوى الملونة التي عاود مخبز عائلة السيد هافال صنعها، أصبح جازان المسؤول المباشر عن جميع أعمال العائلة بشكلٍ رسمي، راح يعرّفهم على كل شبر في المدينة، المتاجر، الميناء، الجبال، والغابة، ويقصّ عليهم الذكريات المتعلقة بهذه الأماكن، طبعًا السعيدة منها فقط.

*كعكة الجبن البارد: تتكون من خليط كريم الجبن والقشطة والحليب، حيث يسكب فوق أرضية من الكعك المقرمش، ويزين بالتوت البري أو أحد أنواع المربي أو الشوكولا أو أي نكهة أخرى حسب الرغبة، ويوضع في الثلاجة لمدة ساعتين على الأقل.

والدة شيرفين كانت لطيفة ومرحة جدًا، قالت لي في إحدى المرات أنها لم تكن لتُصدق أن ابنها سوف يجد شخصًا يجعله راغبًا في الاستقرار والزواج، فقد كان يُفضّل السفر والترحال كأبيه، وبالطبع، شيرفين قرر عدم إخبار والدته بأي شيء يتعلق بموت والده، ولكي نُبدي شكرنا وعرفاننا، قمنا بزيارة السيد هافال كعائلة جميعنا، وشكره شيرفين على مساعدة عائلته بالحصول على استثناء للسفر، بينما أكد السيد هافال بدوره أنه يُمكنه الحصول على استثناء سفر لهم، كلما رغبوا بذلك.

بينما نتبادل أطراف الحديث في قصر السيد هافال، التفت إليّ، وقال:
- لقد أخبرني جازان أنك وثّقت مجموعة من قصص العامة والأحداث التي جرت في المدينة خلال فترة الانقلاب المجيد، ما رأيك بالعمل في هذا المجال، لكن تحت ظل الحكومة؟

تبادلنا النظرات أنا وشيرفين على استحياء، وهزئتُ كتفي بلامبالاة.
ابتسم السيد هافال، وشرح لنا أنه ينوي تأسيس جهة مسؤولة عن توثيق ونشر أخبار المدينة محليًا في البداية، وربما يتوسع نشاط النشر في الخارج فيما بعد؛ لكي يكون جميع السكان على دراية بما يحدث، وسوف يُستخدم هذا المنبر بشكل دائم ورسمي للإعلان عن أي تعديلات في الدستور أو القرارات المهمة، فهو لا يود اتباع الطرق القديمة، قال بشكل حُرفي:

- أريد منك أن تتولي عمل فن صناعة الخبر.

خاتم زواج

في مساء آخر ليلة لعائلة شيرفين في مدينتنا، جاءنا جازان؛ لِيُذَكِّرنا بموعد انطلاق السفينة غدًا صباحًا بينما نتناول طعام العشاء، طرقت الباب واستقبله شيرفين بإحدى نكاته:

- جميل، قُل لي هل جلبتِ رائحة السمك المشوي إلينا؟ لسوء حظك، لقد أوشكنا على الانتهاء.

ضحك جازان على استحياء:

- لا يا شيرفين، شكرًا لك، أردتُ تذكيركم بموعد انطلاق الرحلة غدًا صباحًا عند الساعة العاشرة إلى المدينة الجنوبية، بحسب معلوماتي سوف تصل الرحلة إلى ميناء المدينة...

- دعك من ذلك يا بُني، تعال وشاركنا طعامنا.

قالت ذلك والدة شيرفين.

- أشكرك يا خالتي، عليّ الإسراع بالعودة.

- جازان يا صديقي، عليك محاولة التمرد قليلاً على حاكم المدينة، اطمئن لن يأمر بالقبض عليك؛ فأنت أخوه المُدلل.

ضحك شيرفين وشادن التي تضحك لمجرد سماعها صوت ضحكة

شيرفين.

ارتبك جازان؛ فهو لا يقوى على مجاراة استهزاء شيرفين الدائم بكل شيء، أنقذه مافروس الذي فرغ من إطعام شادن، ونهض لإلقاء التحية

على جازان.

أردفت والدة شيرفين قائلة:

- لا عليك منه يا عزيزي، أوصل امتناننا وشكرنا الجزيل للسيد هافال، لقد أمضينا أسبوعاً جميلاً هنا بينكم، نأمل أن نكرر هذه الزيارة في الأيام القادمة.

- بالتأكيد، أخي دائماً في الخدمة.

بعد أن غادر جازان، وبينما كنتُ أساعد عائلة شيرفين على توضيب حقائبهم، خلدت والدتي للنوم برفقة شادن، مافروس اختلى بحجرته، جلست والدة شيرفين بجانبى، وقالت:

- أريد التحدث معكما في أمر مهم.. عزيزي شيرفين، ما فعلته لا يرضيني، شيرو فتاة طيبة، لقد أحببتها كما لو أنها ابنتي، لكن كيف تجرأت على الزواج والإنجاب دون علمنا؟ هذا أمر لا يُغفَر، لو كان لا يزال والدك على قيد الحياة...

قاطعها شيرفين وأمسك بيديها:

- ماما حبيبتي، أعلم أن ما فعلته يُنافي الأعراف المجتمعية، لكن انظري إلى النتيجة الآن، لديّ عائلة صغيرة ودودة، أنا سعيد جداً.

- لكن هذا لا ينفي أنكما اقترفتما خطأً فادحاً، من الأساس كيف وافقتِ يا شيرو على الزواج منه دون موافقة عائلته؟!

والدة شيرفين كانت لطيفة معي طيلة هذه الفترة، لكن الآن شعرتُ بشيءٍ مختلف في نبرة صوتها، ربما تراني قد أغويتُ شيرفين للزواج مني دون موافقة عائلته، ربما احتدّ موقفها بسبب شادن؛ فهي لا تعلم حقيقتها، ولم ترَ من المناسب أن تتعرف على حفيدتها بعد عام من ولادتها كما زعمنا، أنبني ضميري وقلبي بسبب إخفائنا الأمر عنها، لكنني لا أعلم النتائج المترتبة عند إخبارها الحقيقة، وبينما أنا شاردة في ملكوت

أفكاري قال شيرفين:

- ماما، شيرو لا شأن لها بالأمر، أنا من أصرّ على ذلك، وبسبب الظروف التي حدثت في تلك الفترة، لم أستطع إخباركم وإعلان الأمر بشكل رسمي، ببساطة.. أرجوك، لا ترسمي أبعدًا أكثر لهذا الأمر.

قالت بمرح لم أكن أتوقعه:

- انظر! حتى إنك لم تجلب لها خاتم زواج.

نظر إليّ وابتسم:

- آه لقد غفلتُ عن هذا الأمر.

خلعت الخاتم التي كانت ترتديه وراحت تتحسسه بحزن، وقالت:

- على الرغم أن والدك قام بإهدائي الكثير من الحلي الثمينة الجميلة، يبقى هذا الأعلى على قلبي، لقد قدّمه لي بعد موافقة والدي على زواجنا، أخبرني حينها أنه مصنوع من الذهب الخالص، وهذا حجر الفيروز الذي يتوسطه، يُدّكره بلون البحر الذي يُحبه ويهواه أكثر مني ربما، وقد صُمّم خصيصًا لزوج من الخواتم، أنا أملك واحدًا، والآخَر كان بحوزة والدك، عندما نقلوا الجثمان إلينا، أخبروني أنه قد اصطدم بقاع السفينة عندما سقط في البحر، لذلك لم يستطع أن يسبح وينقذ نفسه من الغرق، كان وجهه مشوهًا بطريقة مخيفة جعلتني أتخيل قوة الاصطدام الذي حدث، أما يداه فقد كانتا مضممتين مغطاتين بالكامل تحت بزته الجميلة، تحسستُ أصابعه لعلني أجد الخاتم لكن لم أجد شيئًا، ربما سقط في البحر، أو دُفِن معه دون أن أعلم، وددتُ لو كان باستطاعتي الاحتفاظ به، كان المفضّل لدى والدك.

نهض شيرفين مبتعدًا عن أعين والدته، بعد أن لاحظت أن الدموع تجمعت في عينيه، وكادت تسيل على وجنتيه.

نظرت إليّ تلك السيدة الجميلة بقوتها وحرزها، وقالت:

- أود أن أقدمه لك بدلاً عن خاتم الزواج الذي لم يجلبه لك شيرفين،
حافظي عليه، واعتني به من أجلي.

لست متأكدة إن كانت تقصد في كلامها شيرفين أو الخاتم الثمين، في
جميع الأحوال سوف أعنتني بهما على أكمل وجه.
ذهبتُ وعانقتُ شيرفين الذي كان يبكي بصمتٍ بجانب النافذة،
ويردد:

- كيف لي أن أقول لها يا شيرو أن نصفها الآخر مدفون هنا على بُعد
أمّاتار منها؟ بالتأكيد سوف تجد الخاتم هناك بينما هي تتحسر على
ضياعه منها، هل يحق لي أن أبوح لها أن من ودّعته لم يكن والدي؟ هل
يحق لي أن أفتح جرحها مرةً أخرى؟ هذا إن كان مغلقاً بالأساس.
- لقد اتفقنا ألا نقول لها شيئاً عن هذا الأمر يا حبيبي، لا مبرر لإعادة
إحياء حزنها.

- هل قدمت لك الخاتم كهدية؟

- نعم، سوف أرتديه على أنه خاتم زواجنا، فهو جميل جداً.
- إنها تحبّك بالتأكيد، لقد تخلت عنه؛ ليبقى في يدك، على الرغم أنه
بالتأكيد عزيزٌ عليها جداً.

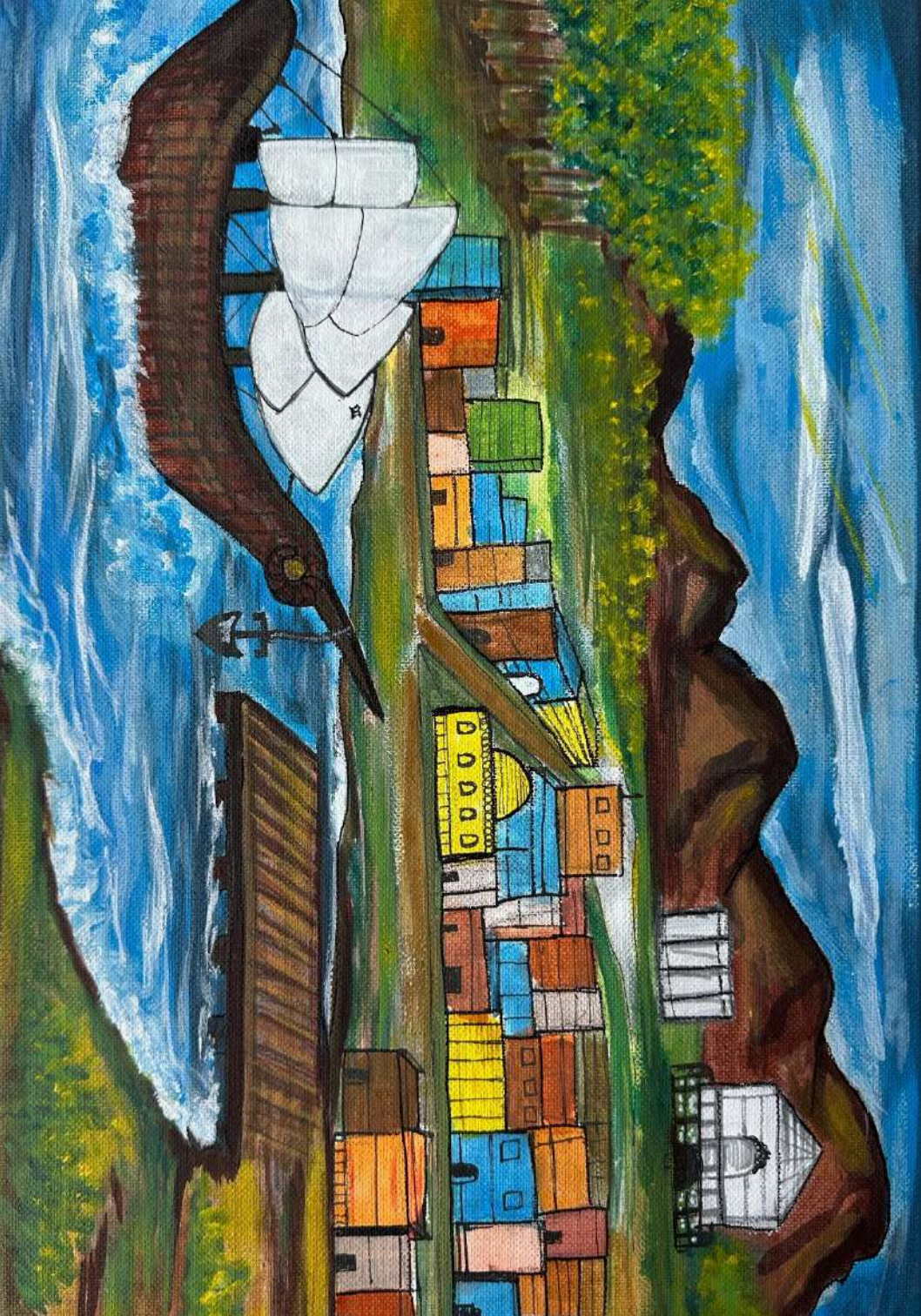
قبل أن يغادروا صباحاً، عانقت شادن، وقالت لي:

- إنها تشبهك كثيراً، بالكاد ألمح شيرفين في هيئتها، لكنها تبدو نسخة
مصغرة عنه بتصرفاتها، لقد كان وما زال حاد الفضول مثلها تماماً.

الجزء الخامس والأخير

"خارج مضمار كل الأفكار، كل مفاهيم الخير والشر، الفضيلة والخطيئة،
هناك مرجح واسع بلا نهاية، سألقاك هناك".

- جلال الدين الرومي، شاعر متصوف.



مدينة السلام

تُدعى مدينتنا "مدينة السلام" رغم أن شعبها مُصنَّف كشعب إرهابي ومحظور عليه السفر خارج حدودها، لكنها تبقى هذه المدينة منبع السلام، تخلَّصنا من العزلة عن العالم الخارجي التي فُرضت علينا سابقاً من الداخل، لكننا لم نستطع أن نتخطى العزلة التي فُرضت علينا من الخارج بشكل علني، وباتفاق جميع الأطراف لغاية الآن. علم مدينتنا أبيض، جميع منازلها بيضاء اللون كشعر سكانها الذين لا يفضلون صبغ شعرهم عندما يغزوه الشيب، أما متاجرها فتتلون بلون العشب الأخضر الجميل.

مدينةٌ محشوة بكلِّ ما هو لونه أبيض، ابتداءً من المنازل والطرق، انتهاءً بقلوب سكانها، لم يعد اللون الأبيض مُقدَّساً أو مُحرمًا بالنسبة لأكثرية الشعب؛ بل بات مُباحًا، يُمكن تلطيخه وتدنيسه بالدماء والأوساخ، ورغم ارتفاع استهلاك الأقمشة والملابس البيضاء، ما زال هناك بعض الأشخاص، وخصوصاً كبار السن لا يُفضِّلون ارتدائه، إما بسبب ترسبات فكرية ما زالت تُسيطر عليهم باللاوعي، أو لعدم رغبتهم في التشبه بالنَّاجد الذي دنس هذا اللون بكلِّ ما أُوتِي من قوة، والحمد للرب، حاكم المدينة الحالي يرتدي جميع الألوان، على الأقل نضمن أننا لن نقع في معضلة اللون المقدس والمحرم مجددًا، متأملين أن تتلون أيامنا ونعيش سنوات أفضل من التي مضت.

تطل مدينتنا على البحر، هناك ميناء واحد يقع في الساحل الجنوبي؛ حيث تتداخل الحدود مع المدينة ذات العلم الأحمر من جهة الجنوب، ومن

جهة الشرق تفصلها سلسلة جبال عن المدينة ذات العلم الأخضر، أما في الشمال فتحدّها غابة شاسعة عن مدينة ذات علم أسود، قد أعيد تسميدها مؤخرًا؛ لتُزرع بالأشجار المثمرة.

يحكم المدينة بشكلٍ فعلي السيد مانرلوف الذي يتقلد منصب رئيس الأمن والدفاع العام، وعدة مناصب أخرى تخوله أن يفعل ما يشاء منذ خمسة أعوام بعد موافقة حاكم المدينة السوري السيد هافال ميتري الذي ألغى بند انتخابات الحُكم الدورية كل عامين، واستولى على مقاليد السلطة بجميع أشكالها، سياسيًا بعد أن بسط نفوذه بقوة من خلال ممثل الحاكم السيد مانرلوف الذي شيد سجنًا كبيرًا بجوار حدود المدينة الشمالية، زجَّ به جميع المعارضين والمخربين، وأحكم قبضته على اقتصاد المدينة، بعد أن تولى أخوه جازان مسؤولية كل الأعمال التجارية والزراعية في المدينة، جازان لم تغيّر السلطة والنفوذ، بقيّ ذاك الشاب الأخرق كما يحب أن يلقبه ماتياس الذي أصبح زوج أخته، فقد تزوّج جازان منذ ثلاثة أعوام من شقيقة ماتياس الصغرى، وأنجب منها فتاتين توأم، بالطبع اختار اسميهما شيرفين، وللأسف بعد ولادتها تعرضت لوعكة صحية استدعتها للسفر خارج المدينة لتلقي العلاج المناسب، فقطاع الصحة لدينا ما زال ضعيفًا جدًّا، لا مراكز علاجية تغطي جميع الحالات الطبية، لكن بعد أن شُفيت بشكلٍ كامل فقدت قدرتها على الإنجاب، ما جعل السيد هافال يلح على أخيه بالانفصال عنها؛ ليتزوَّج غيرها، وينجب ولي عهد له، لكن جازان رفض بشكل قاطع، فهو مغرم بزوجته الجميلة حد الجنون.

ماتياس أوكل جميع أعماله لشيرفين الذي لم يوفر أي جهد باختلاق أسماء جديدة للسلع التي يجلبها ماتياس خلال سفره الدائم المتواصل جدًّا، في كلّ مرة يسافر فيها ماتياس يرسل لنا برقية يخبرنا فيها أنه تزوج وينتظر مجيء طفل على الطريق؛ حيث كان يقع بغرام فتاة ما في

كل مدينة يزورها، لذلك تعددت زيجاته القصيرة الأمد، وأصبح أبًا لكثير من الأطفال حول العالم، كان يختار أسماءهم شيرفين بالتأكد.

أما أنا؛ فقد باشرت عملي في مجال الصحافة ضمن المؤسسة التي دشنها السيد هافال منذ أربعة أعوام؛ حيث أطلق عليها اسم "منبر الحقيقة"، أسسنا مجلة أسبوعية خاصة بالتعديلات الدستورية والقرارات الرسمية وإنجازاتنا العظيمة وانتصاراتنا، مع قسم ترفيهي يتناول قضايا متعددة، وأضفنا أيضًا قسمًا يشرح معاني الأسماء بإسهاب في اللغات الأخرى التي نجهلها، وذلك كان اقتراح شيرفين بالطبع الذي دأب على كتابة معاني أسماء عدة أسبوعيًا، وقبل عام أضفت لها قسمًا أكتب فيه بعض أبياتي الشعرية والقصص التي وثقتها أثناء فترة الانقلاب التي تُدعى الآن "حركة الإصلاح السياسي الشعبية" تكريمًا لجهود الشعب آنذاك.

ألغيت كل المناسبات والأعياد السابقة، من ضمنها احتفالية يوم السماء، وبتنا نحتفل في يوم ذكرى الثورة الشعبية والقبض على الناجد؛ فقد أصبح يومًا وطنيًا وإجازة رسمية في أرجاء المدينة.

نحن نحیی ذكری وفاة والدي في هذا اليوم، ونزور قبره، ومعنا إكليل ورود بيضاء نضعها على قبره، بينما واطبت والدي على زيارته بشكل أسبوعي، إما برفقة مافروس أو العم ماهان، واحتفظت بجميع تقارير الجرد التي كان يدونها خلال عمله، لا شيء، فقط لأنها مكتوبة بخط يده.

أنا، شيرفين، والدي، مافروس وابنته، والعم ماهان نُشكّل عائلة واحدة، تقريبًا لم يبقَ شيئًا كما كان في حياتنا سابقًا، ما بقي من ثوابت تُختزل في أمور قليلة جدًا كمزحة شيرفين اليومية؛ حيث يقول لي قبل أن نخلد للنوم، هل يلزمني أن أكرر عهد الدم بيننا؛ لأضمن جوارك للأبد يا حلوتي؟!!

نقطن في منزل عائلتي ذاته الذي ترعرع فيه أبي وجدي من قبله،

بعد أن شيدنا طابقاً علوياً يحتوي على ثلاث حجرات، واحدة منهم متصلة بشرفة تطل على الشارع العام، أصرت شادن على الاستحواذ عليها، كما استحوذت على قلوبنا جميعاً، بحجة أنها تحب أن تتكلم مع العصافير، على الرغم من أنها ما زالت تنام في حجرة والدتي يومياً، حاولنا مراراً إنجاب أخ أو أخت لشادن، لكننا لم نُفَلح، يبدو أن أحدنا عقيم، ولأن الأمر ليس ملحاً إلى هذا الحد بالنسبة لنا، فلم نقم بأي فحوصات خارج المدينة لمحاولة علاج الأمر أو حتى لمعرفة السبب، فوجود شادن يكفيننا، والظروف القاسية التي مررنا بها لم تُغَيِّر من شخصية شيرفين المرحبة الصاخبة، ازداد مخزون دعاياته أضعافاً مضاعفة، بات شخصية محبوبة من قبل جميع سكان المدينة، كَوْن صداقات وعلاقات كثيرة جداً، وقام بتوثيق علاقاته من خلال تنظيم رحلات ترفيهية وأمسيات فنية وفعاليات في المقاهي والحدائق بمشاركة جميع سكان المدينة؛ لتمضية أوقات ممتعة مسلية، وغداً معروفاً أنه معالج جيد موثوق، مع أنه لم يستطع استكمال دراسته علم الطب لصعوبة السفر خارج المدينة للعامة، هذا الأمر لم يمنع فضوله الجامح وشغفه بالتعلم لإشباع رغباته، فقد كان يطلب من ماتيئاس إحضار الكتب العلمية له من جميع أنحاء العالم لدراستها والاطلاع عليها لتطبيق المعارف التي يكتسبها منها على أرض الواقع.

مافروس ظل ملازماً لوالدتي بشكل كامل، فتحمل مسؤولية إعالتها ومساعدتها بكل شيء، رغم تأقلمها مع وضعها الجديد، لكنه لا يزال يُحمل نفسه ذنب ما حصل لها ويحاول تكفيره، بالإضافة إلى أنه قد واطب على عمله في الميناء كما كان والدي، ولم يتزوج قط رغم محاولات والدتي الدائمة في إقناعه بفكرة الزواج، فقد أصبح شغلها الشاغل أن تجد له فتاة مناسبة، بالمقابل كان العم ماهان يحذره، ويقول له دائماً:

- إنه فخ، لا ترضخ لهم يا بُني، لا تسلّمهم المقص بنفسك؛ ليقصوا

لك جناحك.

لكن جناحي مافروس قد سُرقا منه منذ زمن بعيد، ودُفنا بجانب سديم التي داوم على زيارة قبرها والتحدث معها لساعات بشكل منتظم، وعلى اعتبار أن عمل العم ماهان في الميناء كان صوريًا، فقد اقترح عليه ماتياس إعادة تشييد متجر الذكريات، وألحَّ عليه كثيرًا؛ لكي يوافق على ذلك، فماتياس يستطيع جمع قطع مميزة خلال سفراته لعرضها في المتجر الجديد، لكن رد العم ماهان كان:

- إن عشتُ أكثر من تسعين عامًا، فسوف أعيد افتتاح المتجر، إنني أعدك بهذا، عندئذٍ سأكون أقدم وأندر قطعة فيه.

في يوم ميلاد شادن السادس، ارتدت فستانًا أبيض مزينًا بورود حمراء، كان هذا التقليد يتكرر في كل عام للاحتفال في يوم ميلادها؛ حيث شرح لها شيرفين أن معنى اسميَّنا هو أبيض وأحمر، ما أثار دهشة وسعادة شادن، فقررت أن تواظب على ارتداء هذه الألوان في يوم ميلادها من كل عام، وبمناسبة الحديث عن الألوان، أصبح اللون الأحمر هو المفضل عندي في كل شيء، لقوته وجرأته وصخبه ووضوحه الشديد، وكل ما يحمل من صفات ومعانٍ.

شادن لم ترث من ملامح شيرفين أي شيء بالتأكيد، هي تشبه مافروس لحدِّ كبير وتملك ذات الشعر المجعد، لديها عينان خضراوان يقول عنهما مافروس أنهما طبق الأصل عن عينيِّ والدتها سديم، لكنها أخذت من شيرفين شخصيتها بالكامل، لقد أثر في تربيتهما بشكل كبير حتى باتت نسخة مؤنثة عنه، فهي فضولية جدًا وتحب الاستكشاف مثله، مرحلة جدًا وصاخبة أغلب الأحيان، ولديها ذات الذوق بالطعام، وفي اختيار ألوان الملابس والضحكة المجلجلة ذاتها؛ حيث كانت تضحك على جميع دعابات شيرفين السخيفة.

شادن لا تناديننا بكلمتي ماما وبابا البتة، لكن إذا أرادت منادة والديتي، فهي تقول لها ماما كما أفعل أنا، إنها تخاطبنا باسميَّنا، وتلفظ

اسمي بنفس النطق الغريب الذي يملكه شيرفين، وتخاطب العم ماهان بكلمة جدِّي، لكنها تعرف جيدًا أنه ليس جدها الحقيقي، فهي تزور قبر جدِّيها دياز وديفان بشكلٍ دائمٍ برفقتنا أنا وشيرفين، وتُعلّق دائمًا أننا عائلة الأسماء المتشابهة؛ فقد سألت شيرفين ذات مرة:

- هل تزوجت شيرو فقط بسبب أن اسمها يُشبه اسمك؟ وماذا لو قابلت فتاة تدعى شيرفي، هل سوف تتزوجها أيضًا؟

كان رد شيرفين على سؤالها الغريب:

- لا يا صغيرتي، تزوجتُ شيرو؛ لأنها أوقعتني في سحر عينيها، وقيدت روحي بالقرب منها.

بينما أُحصّر المائدة للاحتفال بيوم ميلاد شادن، عادت برفقة مافروس من الخارج؛ حيث ابتاع لها الكثير من الهدايا، فهو لا يبخل عليها بأي شيء، ويفرقها بحبه ودلاله لها، ففي صباح اليوم بينما أساعدها في ارتداء فستانها كانت ممسكةً بالمرآة التي أهداها لي شيرفين في ذكرى ميلادي الثاني والعشرين؛ حيث جذبت انتباهها كما فعلت مع شيرفين من قبل، قالت لي:

- يا شيرو، أنا قررتُ أن يكون مافروس أخي، فأنا دائمًا أشعر أن هناك شيئًا مختلفًا في مشاعري تجاهه، لذلك قد أصبح أخي وليس أخاك منذ الآن.

وخرجت تتبختر أمامي مُقلدةً مشية شيرفين الخرقاء؛ لتُخبره بقرارها هذا، لم أستطع السيطرة على دموعي، بينما شيرفين يضحك قائلاً:

- رائع! لقد أصبح لديّ طفلان.

نحتفل في يوم ميلادها كل عام برفقة ماتياس الذي يحرص على التواجد في هذه المناسبة بشكلٍ دائمٍ، فلم يفوت أي يوم ميلاد لشادن رغم

سفره المتكرر، وبحضور جازان وعائلته الصغيرة أيضًا.

إنَّ أحبَّ جزءٍ على قلب شادن في احتفال عيد ميلادها هي فقرة فتح الهدايا، بالنسبة إلى ماتياس فهو يحضر لها هدايا عديدة لا تحصى، من كل مكان قام بزيارته، وفي بعض الأحيان تبقى تلك الهدايا مغلقة ولا تُفتح إلا بعد مضي فترة طويلة ليس لشيء، فقط لكثرتها، أما جازان؛ فهو فاشل في اختيار الهدايا، لذلك تتكفل زوجته ذات الذوق الرفيع جدًا باختيار الهدية المناسبة مع بعض المخبوزات اللذيذة من مخبزهم العريق، لكن شادن لا تهتم إلا للهدايا التي تُصنع يدويًا أو التي تحمل معنى معينًا مثل القطع النادرة التي يُقدمها العم ماهان لها، ودائمًا شيرفين يبقى صاحب الهدية الأكثر تميزًا، فقد أهداها العام الفائت وردة نصفها أحمر، والآخَر أبيض محفوظة في وعاء زجاجي خاص؛ لتبقى مزهرة لأطول وقت ممكن، الليلة قرر أن يقدم لها قلادة على شكل قلب، حُفر عليها "أنتِ فرحتنا يا شادن"، وأخبرها أن اسمها يعني الفرح؛ ليُثير حماسها أكثر.

خلال تناولنا مائدة العشاء التي ساعدني فيها شيرفين على إعداد كل أصناف الطعام التي تفضّلها شادن خصوصًا، وأصر على طلب ملون أحمر للطعام من مخبز السماء؛ ليُعدَّ كعكةً حمراء اللون بنكهة الفراولة التي تحبّها شادن، مع فطيرة التفاح المفضلة لديه، ذات الذكريات الكثيرة له مع كل لقمة.

سألني جازان:

- هل ما زالتِ تفكرين يا شيرفين بكتابة قصة عن مدينتنا؟

- نعم، ما زالت تراودني هذه الفكرة، إنها مغرية جدًا، لكنني أظن أن عليّ حذف بعض الأحداث أو تجاهلها أو تعديلها؛ لكي نستطيع نشرها بسلام.

أمسك يدي شيرفين بلطف قائلاً:

- لا يا حبيبتى، اكتبى الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة.

مقتطفات مختارة من ديوان الشعر النثري "هواجس البحر" الذي نشرته السيدة شيرو ديفان عندما أكملت عقدها الرابع، وأهدته بحفلٍ بسيطٍ لزوجها السيد شيرفين دياز بعد أن لاقت روايتها "مدينة السلام" التي نشرتها قبل عامين نجاحًا منقطع النظير.

إهداء الكاتبة

كل إحساسٍ أحمله في قلبي وأترجمه إليكم، هو نتاج لوجود شخص واحد بجانبني داعمًا لي منذ قرابة العقدين، لقد أشعل فتيل حب الأدب في نفسي بكلمات بسيطة جدًا، لكنها حُفِزَت في ذاكرتي، وسرت في دمائي حتى نرف قلمي هذه الأبيات:

كان يا ما كان بزمنٍ ليس ببعيد، وقبل وجود الحب، في فناء الشوق

عصف مدينتنا إعصارٌ كاسر بعثر ما فيها وشرّد من كان

وبعد انحساره عنها بأثاره الموجهة القاسية،

ظهر من يدّعي الخلود، واستنكر حالنا الميؤوس

بعينين كال موج الجارف، وبقلبٍ كاللؤلؤ

استولى على عرش مدينتنا، أخضع شعبها ابتداءً من قلبي ووصولاً لأعماق روحي

وبحفلٍ التنصيب زرع شجرةً امتد ظلها لآخر أطرافني وقال:

لا حُبّ بلا وجودي، لا خلود لي إلا في أرضي، لا أمان إلا بيدي.

في عام الحب،

سقط ملاكٌ على هيئةِ فارسٍ أمام ناظرِيٍّ وأحكم قبضته على أيامي.
هدم هرم المنطق وأعاد تشييده ومثَّلَ أمامي كمنارةٍ لقلبي التائه.
اقتيد قلبي إليه وبذخ عليّ بسيلٍ من المرجان والياقوت.
أمطرني بلهيبِ نظراته وأحرق كل أثرٍ لحيرتي وتوجسي وبدل لون جلدي ودمي.
وقبل أن أنظر إليه متسائلة من يكون؟ غرس أنيابه في موضع مقتلي،
غيَّبني عن حاضري، ورسم واقعي من جديد، وأعاد تشكيل أفراعي؛
ليكون أول وآخر من أمات قلبي فرحًا، واستعبد روحي عشقًا.

على حافة الكون،

من نثر نجمًا في أعالي السماء
مع توقيت فصل ربيع العشق والهيام
أتى من يدعو روحي إلى أمسية حب
على جمر الانتظار تلوت صلواتي
جلستُ معتدلة لأخفي انحناء روحي أمامه
متجاهلةً اضطراب قلبي وضياع كلماتي مني
أذهلني بما يُخفيه لي من عبق الكون المُستتر خلف الهاوية الكامنة في عينيه،
التي أمضيتُ سنين عمري بتفاديها، أو عدم تفاديها؛
فلا فرق بين الوجود واللاوجود في حضوره
أمسيةٌ تلتها جلسات، وليالٍ تمضي على وقع ألعان الامتنان والغرام.

الخاتمة

إن كل ما يُمكن كتابته والتعبير عنه يقف خلف حواجز شامخة تمنع الكلمة من التحرك وتُقيدُها، وربما حدثت هذه القصة في مدينة السلام وربما لم تحدث، من المحتمل أن تحدث في أي مكانٍ آخر مع مراعاة اختلاف البيئة، والمجتمعات، والأهداف، والمصالح.

إنها قصة عن تأثير الكلمة التي تشمل الحقيقة أو عدمها، على المستقبل والحاضر والماضي؛ حيث يُمكن لكذبة خرقاء محاكاةً بشكلٍ يتناسب مع بعض العقول المعينة تتبعها سلسلة أكاذيب لتدعمها، أن تُشكّل عقيدة للإنسان، لا يستطيع أن يكسر قيودها أو يخرج من حدودها لمئات الأعوام؛ ليبني منها ملجأً آمناً يستجدي منه القوة ويلقي عليه جميع خيباته وانكساراته، إن القيود الفكرية التي تُحيط العقل قد تُسبب ردّات فعل مبنية على أساس خاطئ تمتد نتائجها لأجيال، وتُعيد تشكيل المشاعر والأحاسيس العامة، إن الحقد والكراهية مشاعر لا تظهر فجأة من حدث معين؛ بل تُبنى شيئاً فشيئاً في النفس مع كل صدمة، ليترسخ أثرها مع الامتداد العرقي والموروث الثقافي.

الناجِد في قصتنا ليس شخصاً؛ بل هو مجرد وهم استغل جهل الآخرين وضعفهم؛ لينمو ويكبر ويفرض عليهم نفوذه، فيتلاعب بالمنطق كما يحصل في واقعنا؛ حيث تنقاد مجموعات كبيرة من البشر ذوي العقول الراجحة خلف وهم يتخفى تحت هالة نور بيضاء من الرحمة والطيبة، يترك خلفه آثار دماء وجروح عميقة وشروخ بين الشعوب لا

يُمكن إصلاحها، وللتغلب على هذا الوهم وكسر القيود نحتاج لشرارة شكٍّ أو فضول، تُحرِّضنا على إعادة النظر بما نحمل من أفكار ومعتقدات ومسلمات نستमितُ بالدفاع عنها، وهي أساساً ليست من اختيارنا؛ بل فُرِضت علينا منذ ولادتنا بشكلٍ قسري كصفاتنا الجسدية.

يُمكن للعنف أن يمحو مدناً وعقائد وأجيالاً بأكملها، لكنه من المستحيل أن يُوقف فكرةً أن آوانُ توقدها في عقلٍ طفلٍ صغير.

تمت